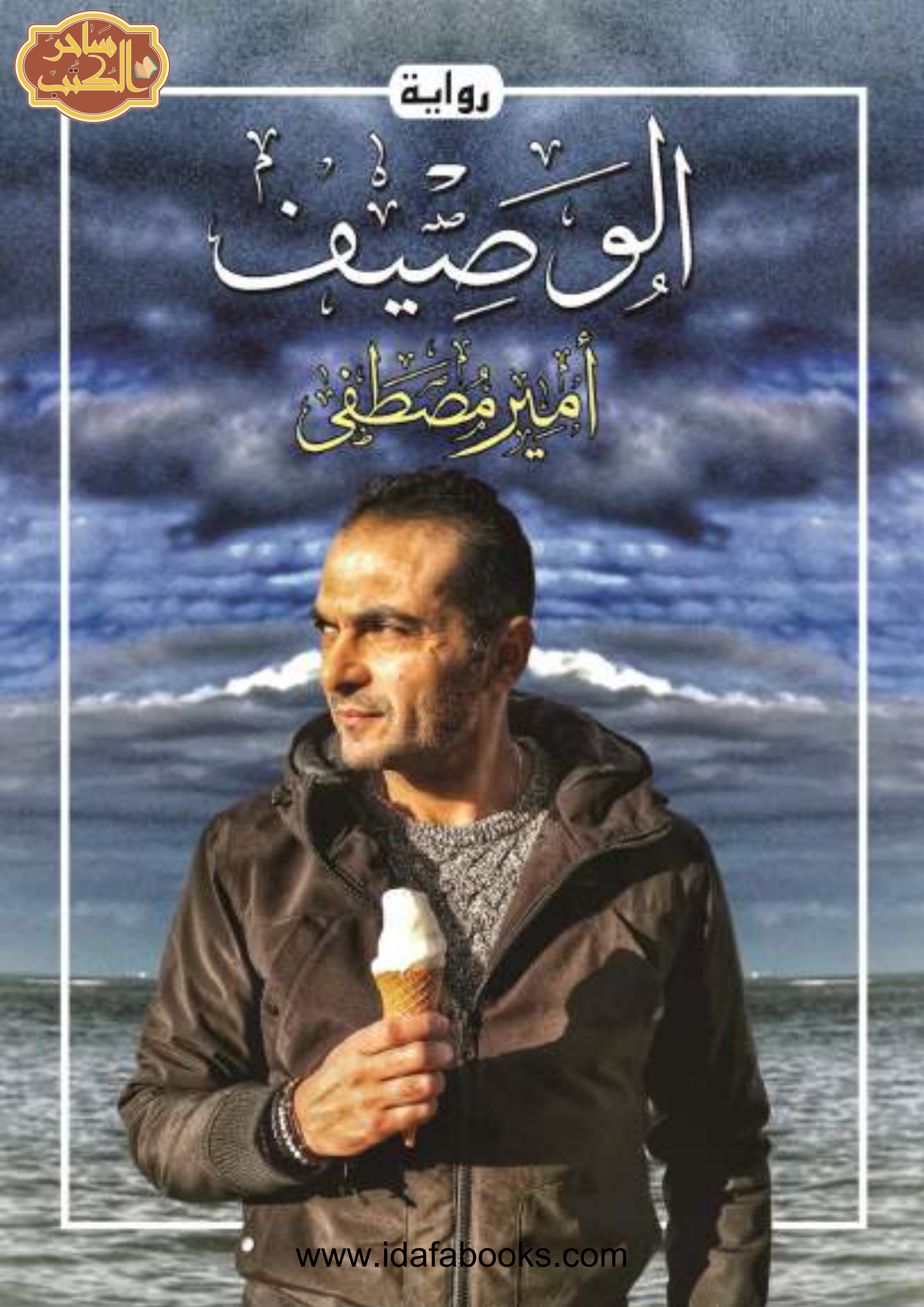


ساحر الكتب
رواية
الوصيف
أمير مصطفى
www.idafabooks.com

الوصيف

رواية

أمير مصطفى

الإسكندرية: حسناء للنشر

الطبعة الأولى: ٢٠١٧

ISBN 978 -977-6535-86-2

رقم الإيداع: ٢٥٠٦٥ / ٢٠١٧

ديوي: ٨١٣

٢٩٨ ص، ٢٠ سم



الإسكندرية، ج. م. ع

٠١٠١٨٨٣١٣٦١

٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧

المدير العام: عادل أبو الأنوار

بطل الغلاف: أحمد سليم ؛ عدسة: معتز محمد أحمد

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار

الإخراج الفنى: أمير مصطفى

الوصيف

رواية

أمير مصطفى



١

نسيم البحر المحمل باليود ينعش صدري، يفجر شعور النشوة القابع في أعماقي، صوت تنهدات (الست) وهى ترقب لقاء الحبيب بلهفة يشوبها الجزع في (أغدًا ألقاك) يدغدغ طبلتي أذنيّ، يزيدني من الحياة روعة.

مشهد تجلي الموجودات تدريجيًا الناجم عن إشراقة شمس اليوم الوليدة، يغسل قرنيتي عينيّ مما علق بهما من أقذار العالم.

ما كان للحياة أن تصبح أروع من هذا.

نشوة انتصاري تخالطها نشوة جمال الطبيعة كأنها تهنئني، كل هذا يزيد من خفقات قلبي، يحملني إلى سماء سابعة لم تصلها أحلام البشر.

اقترابي من منزلي يثير حماسي. تلك من اللحظات النادرة التي لابد من الاستمتاع بها على انفراد.

"أنا أحيا في غدي الآن بأحلام اللقاء

فأت، أو لا تأت أو فافعل بقلبي ما تشاء"

تقولها بلوعة تحرق قلبي، تذرف لها عيني عبرات تعكس شجنًا خفيًا بداخلي. ألتمس منديلاً كي أمسحها به، أشعر بـ...

"حاااااااااااااااسب"

تخترق أذني صرخة تخلع قلبي، تردني لعالم الواقع بفظاظة.

صوت ارتطام يعقبه ارتجاج عنيف.

تصطدم رأسي بالمقود وقدمي تدهس المكابح بتشنج لا إرادي.

تدور السيارة بي حول محورها، تتداخل عليّ الاتجاهات من حولي، ألم شنيع في أنفي ومذاق لاذع للدماء في حلقي، اصطدام عنيف تدور له رأسي، تغيب الموجودات عن ناظري، أذنى تلتقط أصوات سباب..

تضرع لله..

أبواق سيارات..

تنهيدات أم كلثوم..

تحطم زجاج..

ظلام يتسلل إلى وعيي، يعقبه صمت مطبق.

* * * * * *

"يابنى حرام عليك هتضيع مستقبلك".. قالتها أمي في توسل وأنا أحزم حقائبي.

"محدش في العيلة هيعبرك، هنعتبرك ميت".. قالها رأفت من قبل وأنا أغادر شقته بالإسكندرية.

"خيبت أمل أبوك روح إلهى يخيبك".. قالها خالي وهو يغادر شقتنا ناقماً على أفعالي.

إنهم يحبونني، أدرك ذلك جيدًا، إنهم يريدون لي ما يعتقدون أنه مصلحتي، ولكنهم تقليديو الفكر، أسرى لتقاليد المجتمع وتقييم الآخرين لهم. وأنا مشبع بالأحلام، فائق الطاقة، أرى المستقبل الذي لا يرونه، هى حياتي التي اخترتها بنفسي وليست تلك التي صمموها من أجلي بما يناسب أفكارهم.

من لا يقاتل في سبيل أحلامه لا يستحق أن ينالها. أعي ذلك ولسوف أحتملهم في صبر.

كان أبي - رحمه الله - يتمنى أن أصير طبيبًا مثله ومثل أخي الأكبر رأفت - فخر العائلة - ولكنني أخفقت قليلاً في الثانوية العامة، كنت متفوقًا ولكن ليس للقدر الكافي، درجتان فقط حالتا دون تحقيق حلم أبي فلم أجد سوى كلية العلوم لألتحق بها، كنت مُجدًا في دراستي في محاولة لتعويض ما فاتني وأبي رأى ذلك فلم يتخلّ عني قط.

أبي أستاذ الجامعة، عضو الحزب، ذو النفوذ والعلاقات المتعددة، لم يجد عسرًا في أن يجد لي وظيفة ممتازة بشركة (أبي قير للأسمدة). كان يتمنى أن يلحقني بشركة بترول ولكنه لم يوفق في ذلك، والواقع أن (أبا قير) لا تختلف كثيرًا عن شركات البترول، لا تقل كثيرًا في الوضع الاجتماعي ولا في العائد المادي.

كان أخي رأفت قد هاجر بأسرته لكندا بعدما حصل منها على الدكتوراه في طب الأشعة واستقر بها، وكانت سمية قد تزوجت من محسن محفوظ والذى يعمل في سفارتنا بهولندا وابن المهندس محفوظ غالي صديق والدي، لم يتبق له سواي كي يبحث لي عن عروس تناسبني من وجهة نظره، بالفعل بدأ في البحث عن عروس من عائلة تمكنه من المزيد من النفوذ حتى وافته المنية قبل أن يدرك مأربه.

حينما فرغ المنزل ذو الثماني غرف عليّ أنا وأمي، لم أجد ما يمنع أن أمارس هوايتي التي أحلم بها منذ سنوات الدراسة الابتدائية، والتى تملكتني منذ التحقت بفريق التمثيل في المدرسة الثانوية - قد يكون هذا ما منعني أن أكون أكثر تفوقًا في الدراسة - طيلة حياتي أتمنى أن أصبح ممثلاً، كنت أحلم بالدراسة بمعهد السينما ولكني لم أجرؤ على مواجهة أبي بذلك، كنت حديث السن لا أملك حجة الدفاع عن أحلامي ولا القدرة على الاستقلال برأي، ولكن الآن

بمقدوري مجابهة خالي -عميد العائلة بعد أبي- أستطيع مواجهة رأفت وسمية وأمي وكل شخص في الحياة ينكر عليّ حقي في الحلم.
لو كان (أحمد مظهر) قد استمر بالعمل العسكري ما كان صنع مجدًا له ولأسرته كما فعل بالسينما، لو كان (محمود مرسي) استمر في تدريس الفلسفة لطلاب المرحلة الثانوية ما كان سيذكر اسمه بعد سنوات، وحتى (صلاح ذو الفقار) و(يحيى الفخراني) وآخرين غيرهم أردد على مسامع أهلي أسماءهم فلا يقتنعون.
محسن كان يقول بعقلانية الدبلوماسيين: ".. وما المانع أن تمثل كما تحب مع الاحتفاظ بوظيفتك التي لا يجرؤ أحد من دفعتك بالكلية على الحلم بها"، قال لي إن الفن ليس مضمونًا ولا يشكل استقرارًا، أخبرني عن ممثلين عاشوا مليونيرات وماتوا مفلسين، ولكني لم أستطع أن أوضح وجهة نظري.
إن احتكاكي بعمالقة الفن جعلني أدرك جيدًا أن التفرغ للتمثيل والاستقرار في القاهرة هو طريقي الوحيد في الحياة الذي أتمنى أن أسلكه.

إن مفهوم النجاح يختلف من شخص لآخر، النجاح هو الوصول لمكانة تسعد صاحبها وتمنحه الرضا عن ذاته، فمثلاً رأفت تكتمل سعادته بأن يصبح أستاذًا بجامعة تورنتو، محسن يتمنى أن يصير وزيرًا للخارجية، وأنا أريد أن أكون ممثلاً، لو صرت وزيرًا لن أكون سعيدًا ولو صار هو أستاذًا جامعيًا لن يعد ذلك نجاحًا وهكذا.

لقد قال لي (أحمد زكي) - الذي أراه أبرع ممثل في العالم - أثناء التصوير:

"أنت كويس وموهوب بس محتاج تدريبات كتير عشان تنمي موهبتك"

وقالت (السندريلا): "اهتم بالقراءة وخليك مثقف، كل ما تقرا هتفهم الشخصيات أكتر وتأدى أحسن"

صحيح أن دوري في الفيلم كان فقط ثلاثة مشاهد، إلا أني كنت أحضر كل أيام التصوير وأتعلم منهما، فعلاً الفنان الحقيقي إنسان حقيقي، لم يتأفف أحدهما أن يحادث كومبارس مثلي، أو يمتنع عن تقديم النصح له.

كنت في إجازة بدون مرتب من عملي لكني أدرك الآن أنني لن أحتمل العودة لرائحة المحاليل، وإضاءة المعمل المعقمة الباردة الخالية من الإحساس.

هكذا استقلت من عملي وحزمت أمتعتي للقاهرة حتى أبقى بجوار ما أبغي وما أجيد، لم أستسغ أبدًا كوني كيميائيًا، ولا أتصور نفسي موظفًا. أنا لا أصلح سوى أن أكون ممثلاً وليس شيئًا آخر. صحيح أن بداية الطريق عسيرة ومتعبة إلا أني أوفر حظًا من فنانين عظماء كانت بداياتهم أشد قسوة، على الأقل أنا أملك المال الذي يسمح لى أن أقيم في شقة جيدة، أملك ما يكفى لأشترى الملابس التي تناسب كل دور.

لن تكون قصة كفاحى هى قصة الفقير الذي كان يذهب للأستوديو سيراً لأنه لا يملك ثمن ركوب الحافلة، أنا أملك سيارتى، ورصيدي في المصرف يغنيني عن أهلي الذين قاطعوني، فقط أشتاق لأمي وسأزورها كلما استطعت، سأتحمل تسفيه أحلامي على يد رأفت، سأتحمل عجرفة خالي الذي يراني رقيعاً مدللاً يبدد ثروة أبيه، سأتحمل كل شيء حتى أصنع اسمي، اسمي الذي سيزيدهم شرفاً فيما بعد.

لحظة حصولى على جائزة أفضل ممثل سأكون قبلتهم التي يسعون إليها بعدما جعلوني مقلب النفايات الذي ينفرون منه.

إن الحياة معركة لا ينالها المترددون والتابعون، وأنا سأخوض معركتى حتى النهاية التي أبتغيها.

كان هذا ما يدور في ذهني وأنا في طريقي إلى القاهرة، لم يكن يعلق في أذني سوى صوت أمي وهى تناديني لتضمني إلى صدرها مرة أخيرة، صوت أمي الذي يطاردني وهى تنطق باسمي راجية....

..... اسمى بصوت أمي لا أميز غيره، يخالطه صوت لهاث، هل هو لهاثي؟ صوت أزيز إلكتروني لجهاز ما، خطوات رقيقة تزحف على الأرض، نهنهة شخص لا أتبينه. ضوء تدريجي يتسرب لقرنيتيّ

فيؤلمهما، صورة مهتزة مشوشة لا أتبين منها شيئاً، صوت يصرخ بلهفة.

تتضح الموجودات تدريجياً، يطالعني وجه أمي الحبيب، تتأملني بثغر باسم وعينان منهكتان من أثر الدمع، ألم ممض يسري في ساقي، ولهيب يجرى في عنقي، أتنهد فأشعر بوجهي يحترق، أصرخ متأوهاً ليغيب وجه أمي، وصوتها يبتعد مردداً اسم شخص ما، أتبين سقفاً فوق رأسي مصنوع من ألياف صناعية تتخللها مصابيح نيون أصاب العطب أكثرها، يطالعني وجه رجل وقور بمعطف أبيض يبدو طبيباً، خلفه يظهر جزء من وجه فتاة بدينة لابد أنها ممرضة، أدرك أني على سرير مستشفى ما، محاطاً بالأجهزة وجسدي هامداً لا أقدر على تحريكه متلحفاً بأربطة وجبائر، هناك أسلاك وخراطيم تخرج من عنقي، يدي اليمنى مقيدة لعمود السرير المعدني الافقي، يدي اليسرى مكبلة بالضمادات الطبية هى الأخرى.

"حمد الله على السلامة يا حبيبي"

تقولها أمي بتضرع، تقبل راحتي المفرودة بفعل القيد، يبعدها الطبيب، يتفحصني بدقة وأنا أحاول استيعاب ما حدث.

كانت أيامى في القاهرة تمضى بصحبة مجموعة من الشباب الذين جمعهم ذات الهدف ويحيون ذات الظروف، أذهب لمكاتب الريجيسيرات التي عرفتها عن طريقهم، أخوض تجارب أداء أمام

مساعدين المخرجين الذين يبحثون عن موهبة جديدة، أسهر يومياً معهم على المقاهي وفي الحانات الرخيصة التي لا يقدرون على تدبر نفقات الأرقى منها، أقرأ الشعر والأدب وأتدرب على تقمص الشخصيات التي أقرؤها، أشارك الفرق الصغيرة في مسرحيات الهواة، نتنفث جميعا ذات الحلم ونحيا ذات الواقع، أجابه إحباطات متكررة، وأصادف نجاحات بسيطة تدفعني للإحتمال.

بعد أكثر من عام على تجربتي المؤلمة أمام (أحمد زكي) و(سعاد حسنى)، أبتسم لى الحظ وحصلت على دور أكبر أمام (محمود عبد العزيز)، نجم الشباك الذي يسمح للجمهور برؤية وجهي حتى ولو لم تجمعني به أية مشاهد، فقط يكفي اسمه على الأفيش.

ولكن يبدو أن قسوة قدري لم ترحم هؤلاء النجوم البائسين، لقد حدث تقريبًا ما حدث بالماضي وأصبح الفيلم مثل سابقه، وصمة عار في تاريخ أبطاله.

وحديث أمي يعذبني بالاستماع لصوت العقل والعودة للحياة معها، الشماتة التي أراها في عين رأفت في كل إجازة له جعلتني أنفر أكثر من الإسكندرية، نصائح أختي وزوجها في الخطابات الواردة لأمي تهينني، يتحدثان بلهجة الحكيم الذي ينصح طفلاً شقيًا بالكف عن ركوب الأرجوحة والعودة للمدرسة.

وهكذا مرت بضع سنوات وأنا لم أحقق شيئًا تقريبًا بالرغم من الفرص العظيمة التي نلتها ودمرها سوء حظي اللعين حتى أتت الفرصة الحقيقية هذه المرة.

كنت قد تعرفت على المخرج (شريف عرفة) في الفيلم المنحوس، شاب مثلي يكبرني بأعوام معدودة تقريبًا، كان مفعمًا بالأحلام ومشبعًا بالموهبة المتقدة، وقد بدأ الآن اسمه يلمع مع النجم (عادل إمام)، إذا كان (شريف عرفة) نفسه قد تجاوز لعنة الفيلم المشئوم وصنع نجوميته، فهل لن أقدر أنا أيضًا على ذلك؟! بالفعل حاولت السعي خلفه أكثر من مرة حتى قبل أن يعطيني دورًا مهمًا هذه المرة أمام العملاق (عادل إمام)، إنها الفرصة التي فعلا تأخرت عني حتى نضجت تمامًا، وكأن القدر يصالحني عما فعله بالسابق، وهكذا بمجرد الاتفاق قررت العودة للإسكندرية وقضاء الوقت المتبقي على التصوير مع أمي علها تطمئن أنني لست بالفاشل الذي يحسبه خالي.

٢

ينفث الدخان في وجهي، يتذمر، يتوعدني بأشياء كثيرة بعدما عذبني بأسئلته، ينهض مشيرًا للكاتب المصاحب له قائلاً في حسم:
"يفرج عنه بكفالة قدرها خمسة آلاف جنيهٍ نظرًا لحالته الصحية"
يخرج وكيل النيابة من غرفتي، أتنهد، أتأمل وجه أمي القلق، وجه الأستاذ زكريا - المحامي - الممتعض، يطلب منهما الطبيب الخروج قليلاً وينصحني بالنوم، الممرضة تحقن شيئًا ما في المحلول الوريدي المعلق على عمود بجواري، أغمض جفناي محاولا الحصول على بعض الراحة.
عندما استيقظت لأول مرة بعد الحادث اكتشفت أن ذراعي اليمنى معلقة إلى السرير المعدني بـ (كلبشات ميري)، وجدت جواري رجل أمن، غالبًا هو أمين الشرطة المكلف بحراستي، وجدت الأطباء قد حقنوني بالمحاليل الوريدية في عنقي بسبب أنهم لم يعثروا على أوردة في أطرافي بسهولة، غالبًا بسبب النزف المستمر.

لا أعرف ماذا حدث بدقة ولكن الجميع يؤكدون الحادث، كل ما أذكره أني كنت عائدًا للمنزل ككل يوم من ذات الطريق، وبعدما قطعت المسافة كلها وأنا على بعد خطوات من منزلي حدث شيءٌ ما مبهم بالنسبة لي.

لكنهم يقولون إن سيارتي قفزت فوق الأفريز مهشمة السور الحديدي له لتصدم شخصين ثم تنقلب على جانبها محطمة في طريقها واجهة متجر (مؤسسة بغداد).

أصبت على أثر الحادث بكسر في الأنف، وكسر مضاعف بالساق اليسرى، بخلاف الكثير من الرضوض والسحجات والجروح، وفوق ذلك كله جرح غائر بجبيني وارتجاج بالمخ، لقد فقدت الوعى ليومين كاملين، استيقظت بعدهما لأجد نفسي في المستشفى بهذه الحالة، سيارتي صارت قطعة خردة لا تصلح أن تباع حتى بالوزن، أما الطامة الكبرى فهى أن أحد المصابين تهشم له ضلعان والآخر قد توفىّ جراء الحادث.

وهكذا في لحظة واحدة غاب فيها إدراكي تسببت في كارثة لعشرات الأشخاص، نفسي وأسرتي والمصابين وأسرتيهما، فضلاً عن إفلاس صاحب المتجر الذي - للأسف - كل تجارته من الساعات والأجهزة الإلكترونية باهظة الثمن، لابد أنني هشمت ثروة برعونتي.

بعد وقوع الحادث حملنا المارة جميعًا إلى المستشفى (الميري)، وألقونا جميعًا في العنبر المجاني الذي هو أقرب لساحة حرب منه لأي شيء آخر، بعد علم أمي وقدومها هي وزكريا محامي أبي استطاعوا حجز غرفة لي بالأجر في الجناح الاقتصادي بالمستشفى ونقلوني إليها بصحبة أمين الشرطة الذي قيدني بالسرير.

هرع الأطباء في علاجي فورًا إلا أن أمي حينما علمت باحتياجي لتركيب مسامير وشريحة في ساقي المحطمة أصرت على نقلي لمستشفى خاص، راحت تحث زكريا على محاولة إخراجي بأي ضمان لاستكمال العلاج بمستشفى خاص، خاصة وأن المستشفى الجامعي (الميري) ليس بها قسم للعظام، الفقراء فقط هم من ينقلونهم لمستشفى (ناريمان) أما نحن فنملك المال الكافي حتى لتلقي العلاج خارج مصر إن لزم الأمر. وهكذا بقيت بضع أيام حتى تم استجواب النيابة وكفاح زكريا للحصول على إذن خروج بكفالة، وقد كان.

* * * * * *

اليوم فقط أتى خالي لزيارتي كي يؤنبني ويلعن استهتاري ويوبّخ أمي التي أفرطت في تدليلي ويذهب ساخطًا علينا، حمدًا لله أن أخي رأفت لم يحضر من كندا كي يفعل الشيء ذاته، باقي أفراد عائلتي تنصلوا مني منذ خرجت عن طوعهم كما قالوا فلن يتفضل أحدهم عليّ بالزيارة، الوحيدة المعذبة معي منذ الطفولة هي أمي الغالية.

يا الله! إنّ أسوأ كوابيسي يتحقق بالكامل وقد بدأت المصائب تنهمر عليّ واحدة تلو الأخرى، لقد استطاع المحامي أن يدفع لصاحب المتجر مبلغًا باهظًا على سبيل التعويض، وأقنعه بالتنازل عن حقه، وكذا فعل مع الرجل المصاب.

صحيح أنني أوشكت على الإفلاس ولكن لا يهم، إن قائمة التهم الموجهة إليّ طويلة وزكريا يحاول اختصارها قدر المستطاع.

المشكلة الحقيقية كانت في الرجل المتوفى، أمه المكلومة حينما ذهبت إليها أمي لترجوها قبول التعويض، أهانتها وطردتها من منزلها وهي تدعو عليها أن تتذوق مرارة فقد الابن كما فعلت بها.

أمه ما كان يرضيها سوى أن تراني معلقا بحبل المشنقة، وأنا لا أجد سبيلاً للخلاص وزكريا يفعل ما في وسعه ولكن عن دون رضا، لقد صارحني بمشاعره نحو شخص مستهتر بلا خلق مثلي، تمنى لو أن عقوبتي تصل للإعدام كي أكون عبرة.

هذا رأى محاميّ فيّ فما بال القاضي الذي ينظر قضيتي؟
إن وكيل النيابة الشاب توعدني بأقصى العقوبة.
رباه! لقد ضاع مستقبلي للأبد.

* * * * *

تسألني الممرضة القصيرة ذات الغمازتين:

- هو أنت ممثل بجد؟!

أبتسم وأومئ برأسي في صمت فتستطرد:

- بس أنا مشفتكش في أي حاجة قبل كدة.

أجاوبها بتململ: معلش أصلي لسة مبتدئ.

تتساءل في لوم وهي تفك الخيط الطبي عن جرح جبهتي الملتئم:

- طيب ليه عملت ف نفسك كده، وضيعت مستقبلك؟.. أنت أمّور قوي على فكرة.

أنظر لها بمقت حقيقي، أحاول أن أدير وجهي عنها ولكنها تنهرني، أغمض عينيّ وأصمت ريثما تنتهي من مهمتها، حقًا ما عاد سوى الممرضات العوانس كي يؤنبنني على ما فعلت.

تخرج من الغرفة تصاحبها لعناتي لتتركني وحيدًا لأفكاري المتوحشة تفترسني، سحقًا لها ولسوء حظي اللعين، لحظة واحدة أغفل فيها يضيع على أثرها كل شيء، لحظة واحدة تكلفني سنوات بالسجن برغم أني لم أفعل شيئًا جديدًا، لقد فعلتها عشرات المرات من قبل فلماذا هذه المرة بالذات؟ حتى وإن كنت قد أخطأت فهل يكون عقابي بهذه القسوة، كثيرًا ما يخطئون ويبقون سالمين، لماذا أنا تحديدًا يتهشم جسدي لهذه الصورة، ساقي لن تعود أبدًا لطبيعتها، وجهي الجميل (رأس مالي) تشوه بندبة عن جرح غائر بالجبهة ما استطاع جراح التجميل إخفاءه تمامًا، حتى شكل أنفي تغير بعد

كسرها، سيارتي التي تحطمت وأموالي التي خسرتها في التعويضات، والأدهى من ذلك عمري الذي سأخسر سنوات منه في السجن.
لماذا يكون قدري بهذا السوء؟ هل خلقني الله ليعذبني؟ لِمَ لَمْ يُنجني من الحادث؟ أو حتى يقتلني به كما حدث مع ذلك العابر؟ لِم قُتِل رجلٌ بائس بيديّ أنا؟ لم فعل بي كل هذا؟

******

بعد ستة أشهر تقريبًا تماثلت للشفاء وكانت القضية قد نظرت وصدر تجاهي حكم مشدد بالسجن، استأنف فيها الأستاذ زكريا وجاء الاستئناف ليثبت الحكم أيضًا، ليته كان الإعدام فهو رحمة مما سأقاسيه.

أربع سنوات حبس مشدد وغرامة عشرة آلاف جنيه، يا لها من مصيبة كبرى والأدهى أن المحافظة لاتزال قضيتها أمام القضاء لم يبت بها، إن من خسائر الحادث تدمير ممتلكات عامة مثل السور الحديدي وكشك المرور.
أى أن مدة السجن قابلة للزيادة فضلا عن التعويض المادي.
أربع سنوات وأكثر من أجل غفلة واحدة، ضياع مستقبلي وتدمير حياتي من أجل خطأ واحد.

أربع سنوات وأكثر بين القضبان، بصحبة المجرمين، بإذلال الحراس، سنوات في الجحيم من أجل ماذا؟! وماذا لي بعد أن أخرج من السجن؟!

لقد خسرت كل شيء، مهنتي ضاعت، أموالي بددت، صحتي اعتلت، وسأقضي السنوات القادمة في العذاب المهين لأخرج أتسول بعدها، سحقًا لتلك الحياة الظالمة، أنا لن أترك نفسي لقضاء يوم واحد بالسجن، وإن كان القدر قد عجز عن فعلها فلازالت فرصتي قائمة وأنا لازلت حراً.

* * * * *

إن مشكلة الوقوع في الخطأ أنه يغري المرء بالمزيد من الأخطاء، ومن أهم الدروس المستفادة من أخطائي هى ألا أحاول الانتحار داخل مستشفى. إن الممرضة الطويلة السمراء قد اختلست من أجلي علبة كاملة من دواء منوم بزعم مني أني لا أستطيع النوم، طبعًا فعلتها بعدما تقاضت الثمن، بعدها تناولت الحبوب كلها في منتصف الليل ولا أحد يشعر بشيء، لا أعرف ماذا حدث ولكن يبدو أن أحد الأطباء كان يمر ويبدو أنه ارتاب في أمري وغالباً فهم ما فعلت بنظرة فاحصة منه، كنت أتمنى أن أستيقظ في العالم الآخر وجل ما فعلته أنني استيقظت لأجدني محاطًا بالخراطيم والأسلاك مرة أخرى.

ذات المشهد لأمي المعذبة الباكية، ذات الرائحة الكريهة للمطهرات، ذات اللون الأبيض القميء عندما يشي بالسقم وآلام الاحتضار، ها قد عدت للحياة كي أستمتع بالموت البطيء في السجن.

لقد انتهيت بالفعل، يبدو أن خالي كان على حق، لقد فشلت أن أكون كما أراد لي، وفشلت أن أكون كما تمنيت أنا، وحتى الانتحار الذي يفعلونه يوميًا فشلت في إنجازه، يبدو أنني أستحق السجن عقابًا على هذا.

٣

ماعاد في يدي شيء، يبدو أن الله مستمتع بعذابي، لايتركني لأنعم بموت سريع، لازال مصرًا على إيصالي إلى السجن بسلام، وهكذا جلست مستسلمًا في عربة الترحيلات.

وصلت صامتًا كأن الأمر لا يعنيني، رحت أقف في طوابير لا أهتم بها ولا يحركني سوى نطق اسمي مصحوبًا بوكزة في كتفي التي ما عدت أشعر بها هى الأخرى وكأنها كتف شخص آخر، سلمت أشياء وتسلمت أشياء أخرى، أحملها في آلية، طابور آخر، أتجرد من ملابسي، طابور مبتل، طابور ملوث بمسحوق أبيض نفاذ الرائحة يقذف في العيون ليعميها وفى الحلوق ليلهبها وعلى الجلد ليثير الاشمئزاز.

لكني فقدت قدرتي على الاشمئزاز، اسمي يتكرر عشرات المرات بين عشرات الأسماء، أقفال تفتح، أبواب أجتازها فتغلق خلفي، أنظر للفراغ ولا أرى شيئًا، طابور آخر، ارتدي زيّ المساجين، أحمل رقمًا ما لا أتبينه ولا يهمني، أقف في طابور قصير لا يتعدى السبعة أشخاص أمام مسجون آخر، يأمرنا بالنوم في مساحات مضحكة، لكني فقدت قدرتي على الضحك أيضًا.

أطيعه وأذهب لمكاني، أضع ما أحمله على الأرض محشورًا بين الأجساد الممددة، أجلس فوقه، تطفأ الشموع المضاءة في آخر العنبر، يعم الظلام الكون، ظلام لم تره عيناي من قبل، ظلام أسود من مصيري المشئوم.

أسمع نهنهة شخص يغالب دموعه تأتي من مكان ما، يعلوها أصوات شخير منفرة، رائحة مقيتة تتسلل لأنفي، خليط من العرق الكريه والبول والتراب، أسمع همهمات شخص ما يناجي ربه.

تهدر الأفكار في رأسي كخطوط الإنتاج العملاقة في مصنعي السابق، إنها حقا نهاية ساحقة للبطل.

لطالما تخيلت أن الحياة فيلم طويل أنا بطله الأوحد وكل ما حولي (ديكور)، الآن ما عاد إنكار الواقع يجدي، لقد أصبحت في السجن فعليًا، أجلس القرفصاء على (النمرة الميري) لأن المساحة المتاحة لا تسمح بأكثر من ذلك.

ليلة طويلة سوداء لا تنتهي، وعليّ إن أردت البقاء حيًا ألا أجعلها تتكرر، عقلي يخبرني أن لكل مشكلة حلاً ولكل قفل مفتاحًا، إن السجن له قواعد سأحفظها كلها لأحيا بصورة آدمية، سأعتبر نفسي امتدادًا لكل فنان دخل السجن وخرج منه أقوى وأكثر موهبة، صحيح إنهم كانوا سجناء ظلمًا من نظام مستبد، لكنني أشد منهم مظلمة، فأنا ضحية قدر غاشم وليس مجرد نظام جائر.

هذه الفكرة الأخيرة جعلتني أبتسم لأول مرة منذ زمن نسيته، لا أعرف لماذا أجاهد للبقاء هكذا بعدما حاولت الانتحار من قبل، إني لإنسان عجيب حقًا، حينما كنت أملك المال والحرية والفتوة خاطرت بهم، وحينما خسرت كل ذلك تشبثت بالبقاء.

يبدو أن ظلام السجن أنار قبسًا ما للحكمة بداخلي، وهو ما أثار لديّ تساولات غريبة تمامًا، هل فعلاً أنا مظلوم من قِبل قدر أبطش؟ أم أنني مسئول عن تعاستي مسئولية كاملة؟

هل كان الأجدر لي أن أموت وقدري الذي ألعنه تعاطف معي فاكتفى بالسجن؟ هل هذا عقاب الله على خطيئتي؟ أم أنها مجرد مجموعة من المصادفات الحمقاء المختلطة بسوء الحظ قادتني إلى هذا المكان؟ انخرطت في البحث عن أجوبة منطقية لكل تلك الأسئلة وأنا أتذكر شريط حياتي السابقة بأسلوب (الفلاش باك)، يبدو أنني في طريقي للجنون.

أدركت فجأة أن أضواء الصباح بدأت تتسلل عبر نافذة العنبر المرتفعة، يبدو أن الصباح قد حان وهو أول صباح لي خلف القضبان، لا أدري ماذا سأواجه في صباح السجن، لا أدري ماذا ألاقيه في الليالي المقبلة؟ لابد أن أفهم كل شيء سريعًا حتى لا أصادف ما يرعبني، إن الحكايات عن السجن تثير الذعر في أعماقي، إنه الجحيم بالمعنى الحرفي للكلمة، وأنا لابد لي من البحث عن

وسيلة خلاص، إن كان السجن أصبح واقعًا فلأحاول جعله واقعًا قابلاً للتحمل قدر المستطاع.

* * * * * *

طابور طويل نسير فيه فهمت أننا في الطريق إلى الحمامات، يتقدمنا رجل غليظ الملامح والتكوين، كان هو من استقبلنا بالأمس وأمرنا بالنوم في تلك المساحات العجيبة، هو حكمدار العنبر حسبما أفهم، وغالبًا أقدم نزيل بالعنبر، تقدمنا الرجل حتى اصطففنا أمام حمام ما وبدأ المساجين في الدخول واحدًا تلو الآخر، جاءه أحد الحراس وتبادلا الهمسات فيما بينهما ثم أشار الرجل للطابور وطلب من المستجدين الاصطفاف في طابور خاص، كنا ثمانية أشخاص اقتادنا الرجل إلى حمام آخر وأمرنا بالدخول لتنظيف دورة المياه تلك، كانت أنظف كثيرًا مما توقعت، مستحيل أن تكون هذه للسجناء، هل هي خاصة بالحراس؟ ثم فهمت من زميل لي في الصف أنها تخص نزلاء آخرين، نزلاء الدرجة الأولى، (البكاوات).
ضحكت في سخرية وأنا أتأمل هذا الحمام البسيط، هل تلك دورة مياه الدرجة الأولى؟ ما شكل دورة المياه خاصتنا إذن؟ طبقًا لمواصفاتهم هنا فقد كنت إذن أحيا في منتجع سياحي بالمالديف.
بدأ الرجل الغليظ يعرفنا بنفسه ويفتخر بتاريخه الإجرامي ويصور نفسه كبطل أسطوري لا يقدر أحد على مجابهته، بعد المحاضرة التعريفية قام بإرشاد كل واحد منا لعمله وأمرنا بالانتهاء من العمل

خلال عشر دقائق لأن (البهوات على وصول)، بالفعل بدأ زملائي في العمل وظللت أنا أتامل الصنابير اليدوية الرخيصة والقيشاني البائس الذي يحيط بالجدران.
نظرة طويلة أعقبتها بتقدمي نحوه وهو يبحث عن ثقاب بين طيات ملابسه ليشعل سيجارة تتدلى من بين شفتيه الغليظتين.
ملت على أذنه وأنا أستجمع في عقلي كل أدوار الأقوياء في السينما وحاولت أن أغلف كلماتي بكامل الثقة وأنا أهمس له:

- أنا طالب حمايتك يا ريس، وتحت أمرك ف كل حاجة.

يبدو أن كلامي أثار اهتمامًا لديه فترك ما كان يفعل ونظر لي طويلا وكأنه يقيمني ويقدر مدى ما يستطيع الحصول عليه، ثم قال بلهجة مشوبة بالشك وهو يدس سيجارته خلف أذنه:

- مش انت اللي دوست الناس بعربيتك وقتلتهم؟ يعني عيل خرع أمك جايبالك العربية عشان تهرس بيها خلق الله، أنت هنا هتتربى صح، أنت متعرفش إن السجن تهذيب وإصلاح.

قالها وهو يبتسم في شماتة، ويدس سيجارته بين شفتيه مرة أخرى ثم قال لي آمرًا:

- ولّع لي يا حيلتها.

تنهدت وأنا أنظر لعينيه هنيهة ثم ابتسمت ابتسامة واسعة وأنا أهز رأسي في ثقة تامة، بينما قلبي يخفق بشدة تكاد تفضح أمري ثم قلت:

- أنا لسه جاى طازة زي ما أنت عارف، معييش أي حاجة..

ثم أردفت بلهجة موحية وأنا أتقمص دور (عادل أدهم) في فيلم الأشرار:

- بس ليا حساب كويس قوي ف الكانتين، يا صاحبي.

ابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه النخرة وقال في هدوء وهو ينظر في عينيّ نظرة تكاد تثقبهما:

- هنشوف.

****

متململًا على سرير رث في ثانى ليلة لي بالسجن أفكر، لازلت لا أجد النوم بسهولة، كان هناك اثنان مازالا متيقظين يتهامسان وبينهما شمعة هزيلة تنشر الظلام أكثر مما تبدده.

أتأمل الجدران القميئة حولي، اللون الرمادي الحكومي المقيت وقد اتسخ بالأتربة والبقع الداكنة مجهولة المصدر، كانت الجدران متزاحمة بالنقوش التي تشي بعذابات السجن، بضع أدعية، عبارات ركيكة فارغة مما يظنها الجاهل أدبًا مثل "الرجولة مالهاش قطع غيار"، سباب والكثير من السباب الموجه لكل شيء.

أسماء يتبعها ألقاب يظن أصحابها أنها تضفى عليهم بعض الهيبة.
"حمو الزغروف"لم أفهم معنى الزغروف ولكنه لقب يحمل من الشقاء أكثر مما يحمله من مظاهر (الشقاوة).
أصغي قليلاً فأتبين نهنهات شخص ما يغالب دموعه، ترى هل هو ذات الشخص؟ إذا كان هو فلِم يبكي سرًا كل ليلة؟!
أسمع شخيرًا لم أتخيل أن أنفًا آدمية قادرة على إصداره، تلتقط أذناي وسط هذا الضجيج صوتًا هامسًا يتلو القرآن، صوت عذب جزل يبعث الراحة في النفس، أرهفت السمع محاولا تبين الآيات التي يتلوها حتى تبينت هذا القول:
﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1]
قدرًا مقدورا؟! هل معنى هذا أن كل حادث أو موقف، بل كل كلمة وكل نفَس هو مقدر قبل سابق على الإنسان؟ هل معنى ذلك أن الله قدر لي هذا الحادث وقدر لى السجن في هذا الوقت؟ هل قدر لهذا الرجل أن يموت بسببي؟ إن كان هذا صحيح فلم؟!
أظن أن كل إنسان لابد أن يحمل جزءًا من المعاناة في قدره، هناك أشخاص خلقهم الله فقراء يعانون، وهناك أثرياء مرضى لا يتمتعون بثرواتهم، وهناك أغنياء أصحاء مثلي لابد أن ينالوا جزءًا من الألم في حيواتهم.

---

١ (الأحزاب ٣٨)

هو إذن قدرٌ مقدور ولابد أن أتقبله بصبر، لأن ليس لديّ شيء آخر، إن اعترضت على قدري لن أكسب سوى الكفر، فلأقبل صاغرًا إذن، قد يكون هذا هو العدل بعينه.

سمعت من قبل أن الله يعطي الرزق لكل شخص ٢٤ قيراطًا، تختلف توزيعاتها، فربما آتاني المال والشباب وسيمنحني الشهرة والنجاح بعدما أخرج من السجن ولهذا قدر لي سنوات السجن كضريبة للنجاح الآتي.

أراحني هذا التبرير إلى حد ما ورحت أحاول النوم وأنا أدعو الله اللطف في قدري.

******

كنا في اليوم الثاني وقد بدأ توزيعنا على الأعمال، جاء مكاني في ورشة الجلود طبعًا بمعونة ضاحي كي أكون بجواره، ولكن للأسف كانت مهمتي شاقة كفيلة بقتلي قبل أن تنقضي سنوات السجن، كان دوري يتلخص في أن أجرّ لفافات الجلود العملاقة لأقربها من ماكينة كبيرة يقف عليها مسجون أقدم، والمفروض أن أكرر هذه العملية طيلة ساعات النهار، إن ساقي اليسرى مليئة بالمسامير التي تتحمل وزني بالكاد، وحتى لو كنت بكامل صحتي ما كنت أقدر على زحزحة تلك اللفافة سوى سنتيمترات معدودة.

لابد من تدخل سريع وحاسم، وهكذا رحت أبحث بعيني عن ضاحي حتى وجدته يقف في آخر الورشة يدخن ويثرثر مع صول الحراسة،

تلاقت أعيننا وقبل أن أتحرك من مكاني أشار لي هو بأصبع واحد، سحقًا إن ثمن مساعدتي في إيجاد عمل أيسر يتكلف ألف جنيه، حسنًا أيها الوغد فلنلعبها بصورة أفضل، هززت رأسي بالموافقة وأشرت له أن يأتي، بدا مذهولاً وهو يشير إلى نفسه ولسان حاله يقول أتجرؤ على مناداتي أنا؟ ابتسمت وأنا مستمر في هز رأسي فأتاني غاضبًا وهو يصيح ليسمع الورشة كلها:

أنت يا روح أمك واقف كده ليه؟

وجدته عندي والشرر يتطاير من عينيه فقلت له هامسًا: اتنين.

لم أكثر في القول ولا هو، اقتادني على الفور إلى الصول فيما يبدو للجميع أنه يقتادني لعقاب ما، مال على أذنه بكلمات لم أتبينها ولكن على أثرها نظر لى الصول في قسوة ثم أشار للضاحي الذي جذبني من يدي وخرج للعنبر المواجه من الورشة ليقدمني لرجل يناديه بـ (فوزي باشا).

******

إن الحقيقة التي أدركتها بعد قضاء يومين فقط في السجن، هي أن السجن نموذج مجرد شديد الوضوح للمجتمع الضبابي الذي يدور خارج أسواره، ولكونه كذلك فإن الضعيف في السجن يطأه الجميع بأقدامهم دون رأفة، والقوي ينال كل ما يريد بل أكثر مما يريد كذلك.

وكما أن القوة البدنية لا يعتد بها في الحياة فهي كذلك لا يعتد بها في السجن، القوة الحقة هي النفوذ، السلطة، والمال، وأنا لا أملك عصابة أبسط بها نفوذي، لا أملك سلطة على الحراس ورؤسائهم، ولكنني لازلت أملك بعض المال الذي لن ينفعني وجوده في المصرف بشيء ولكنه يستطيع هنا شراء الراحة والرفاهية كما يفعل خارج الأسوار. حتى لو نفدت أموالي فلديّ أموال أمي وإخوتي، هم لن يتركوني أتسول، إن لقسوتهم حدًا لن يتعدوه بأى حال.

وهكذا حصلت على سرير نظيف بجوار النافذة لأني اخترته بعيدًا عن (الكنيف)، حصلت على حماية الضاحي (حكمدار العنبر)، حتى أنني حصلت على خادم يغسل ملابسي ويحمل عني (جردل البول)، وكذلك تعرفت على الرجل الذي يعرف الطريق لمفاتيح كل الأبواب المغلقة بالسجن.

******

يضحك (فوزي منصور) كاشفًا عن أسنانه الصناعية البراقة في ضوء الشمس وهو يتناول مني السيجار الإنجليزي ليضعه بين شفتيه ويخرج من جيبه قداحة ذهبية ذات فص من العقيق.

يشعل سيجاره ويقرب مني اللهب لأشعل سيجاري بدوري، كنا في فترة الراحة في فناء السجن، وكنت بدأت أستوعب حقيقة الوضع وبدأت في الانخراط في هذا المجتمع.

كان فوزي مقاولاً يملك تقريبًا نصف الإسكندرية، كان مليونيرًا واسع النفوذ له علاقات تصل بأغلب مسئولين الدولة، وكان يقضي عقوبة عامين لحيازته أسلحة نارية غير مرخصة.
إن من ألقاه هنا ضابط مباحث أوقفه في كمين على مدخل الإسكندرية الصحراوي، كان لدى الضابط إخبارية بعملية مخدرات وكان ينتظرها إلا أن فوزي وقع في طريقه بالخطأ.
كان من الممكن أن يمر الموضوع بسلام في النيابة لو كان فوزي أكثر لباقة وحنكة ولو ترك الأمر لمحاميه، لكنه اغتر بنفوذه وأمواله فتطاول على وكيل النيابة بالحديث وقال له باستهزاء إنه يستطيع شراء النيابة بالقاضي الذي سينظر في قضيته، وهكذا سقط في شر أعماله، فقد كان وكيل النيابة الشاب ابن مستشار وزير العدل شخصيًا، ومن عائلة في المنصورة تملك ملايين تفوق فوزي وأسرته، وأصر المستشار على تأديب فوزي بصورة قاسية.
لم يكن تحامله عليه بدافع تطبيق القانون قدر تحامله بسبب الإهانة، وكأنه ثأر شخصي وتحدٍ بين نفوذه ونفوذ فوزي، وعليها فقد أرسله خلف القضبان لعامين كاملين.

يشير فوزي إلى رجل مهيب المنظر يجلس على مقعد خشبي، لا أعرف كيف حصل عليه ولا كيف يجلس به هكذا في طرف الفناء يشاهد مباراة كرة قدم بين مجموعة من السجناء، بينما جندي

الحراسة يقف (انتباه) بجواره كأنه حراسة خاصة له وليس سجانه.

يقول فوزي:

- هو ده بقى يا فنان، أظبط معاه قبل الراحة ما تخلص.

بمعونة الضاحي استطعت الوصول إلى فوزي، الذي يحاول الظهور بمظهر رجل المجتمعات ذي العلاقات المتعددة بالوسط الفني، بل إنه فعليًا يملك الكازينو الذي كنت أقضي فيه ليلتي المشئومة، وهكذا توسط لي فوزي عند مأمور السجن ليجعل إقامتي أكثر راحة فقام الرجل بتسكيني على سير فحص الأحذية بورشة الجلود، وهو عمل لا أفعل فيه شيئًا سوى الجلوس وتأمل الأحذية المارة على السير للتأكد من أنها خالية من عيوب الصناعة قبل تغليفها في صناديق من الورق المقوى.

وهكذا راحت الأيام تنقضي وأنا من علية القوم في السجن، كنت أتعامل معاملة تجار السلاح والمسؤلين المرتشين.

كان قد مر على وجودي هنا أسبوع تقريبًا، استطاع أن يرتب لي فيه فوزي كل شيء، وكان يبلغ أمي بأخباري، ويتسلم منها احتياجاتي بطريقة ما بما فيها أتعابه بالطبع.

وهكذا ابتسمت لفوزي وأنا أحييه منصرفًا في طريقي إلى الرجل، كان فوزي قد رتب لي لقاءً معه وعرفت منه أن اسمه (حاتم بيه) وهو وكيل وزارة سابق محبوس في قضية أموال عامة كبرى، تقريبًا هو كبش فداء لوزيره الذي أصبح سابقًا الآن، هذا الرجل هو أقوى نفوذ حقيقي داخل السجن، إنه رجل يعرف كيف يحصل على كل شيء دون مقابل، نحن فقط من ندفع ثمن ما نأخذ، أما صعاليك السجن فهم لا يحصلون على أي شيء إطلاقًا،

إن حياتهم بالسجن مشابهة لحياتهم خارجه، سلسلة طويلة من الحرمان والمعاناة.

* * * * * *

كان لعنبر(٩) ميزة شديدة الأهمية، وهي أنه في الطابق الأول ونافذته العلوية تطل على شارع مظلم دومًا لا يفصل بينه وبين أسوار السجن سوى قضبان السكك الحديدية.

كان عنبر (٩) يضم ثلاثة رجال فقط من عتاة الإجرام على رأسهم شخص يدعى (الفص)، غالبًا هو قاتل أجير. كان الفص بمعونة ربيع - بلطجي الدور بأكمله - ينظمان رحلات ليلية لاستضافة السجناء الذين يريدون محادثة ذويهم، كانوا يقفون خلف قضبان النافذة يحدثون أهلهم المصطفين على الأرض عبر شريط السكك الحديدية.

كل شيء هنا بمقابل، والسجين الذي يريد إبلاغ أهله برسالة ما في أي وقت يدفع لربيع الذي يدير المنظومة بأكملها بمعاونة الفص ومشاركة الحراس الذين يتسترون عليهم أمام المأمور والظابط النوبتجي.

كانت تلك وسلية السجناء (الغلابة).. التزاحم لدقيقة حول نصف متر لمحادثة ذويهم الذين لا يرونهم بفعل الظلام وبعد المسافة، كانوا يتحدثون جميعًا في صوت واحد مثيرين ضجة بالغة لا يتبين منها أي شخص كلمة واحدة، والعجيب أنهم يفهمون بعضهم البعض وكل شخص على الأرض يستطيع سماع السجين الذي يحادثه. إنهم مخلوقات غريبة قادرة على التكيف في أي وضع وتحت أي ظرف، ربما لهذا السبب وحده يتناسلون ويستمرون في الحياة.

أما (أولاد الناس) فلهم وسائلهم.. إن حاتم بيه يستطيع أن يفتح حجرة المأمور في أوقات غيابه، يستطيع استعمال هاتفه، ويقدم تلك الخدمة لأصدقائه، بل إن حاتم بيه يقضي ليلته في استراحة المأمور نفسه، وأحيانًا يؤجر هذه الحجرة ليلاً لمن يملك ثمنها، وهو ثمن يفوق حجرة في الشيراتون. ولكن استراحة المأمور هنا تعتبر جنة وسط صحراء قاحلة، وقضاء ليلة واحدة بها كفيل بأن ينسيك السجن، إنها حياة (ملكي) خالصة بعيدًا عن هذا العذاب (الميري).

وهكذا طلبت من حاتم بيه أن أتصل بأمي، وبالفعل استضافني ليلاً في غرفة المأمور، التي هي في الحقيقة غرفته هو، وكأن المأمور مجرد ضيف عنده يزوره بالنهار فقط. قدم لي كوباً من عصير البرتقال الذي لا أحبه ولكنني لم أجرؤ على الاعترض، فعلها بعدما عرف أني أقلعت عن الخمر وترك لي الهاتف وانصرف عنى بلباقة ليشاهد أخبار البورصة العالمية على قناة الشوتايم.

بعدما أنهيت مكالمتي، عرض على مبتسمًا أن أتصل بأخي، فهذا الخط دولي، قالها وابتسم في ثقة وهو يقدم لي تفاحة طازجة في طبق تشيكي باهظ الثمن، تناولتها وأنا لا أقوى على النطق، إن هذا الرجل استطاع أن يفتح لي باب زنزانتي بعد منتصف الليل ليدخلني غرفة المأمور لأستعمل هاتفه، رجل يزود الهاتف الحكومي بخط دولي داخل السجن، يستطيع أن يقدم مشروبات كحولية في السجن، يملك أن يشاهد تلفزيونًا حديثًا مزودًا بقنوات أجنبية ذات اشتراك.

إن هذا الرجل شديد الخطورة والابتعاد عن طريقه أسلم وسيلة للعيش، إن أبي الساذج - رحمه الله - كان يظن أن محفوظ غالي – والد محسن – رجلاً ذا نفوذ، ابتسمت وأنا أتحاشى النظر لعيني حاتم ذئبيتي النظرات وانصرفت في أدب.

حقًا إن السجن جحيم فقط لمن لا يملكون الثمن.

٤

مستلقيًا على فراشي الجديد النظيف، أستمع للراديو الترانزستور الذي حصلت عليه مؤخرًا، لقد اخترت السرير العلوي لنومي كي أراقب السماء من النافذة وأتمتع بالنسمات الشحيحة المتسللة من بين السلك الشائك لتمنحني شيئًا من الشهيق في هذا الجو الخانق اللزج، كنا ما نزال في إبريل والقيظ يقتلني، مابال جحيم أغسطس في هذا المكان.

أما السرير السفلي فكنت أستغله كالدولاب، أحتفظ بأشيائي داخله، بينما شوقي - خادمي - ينام بجواره على الأرض.

فجأة وجدت جواري وجهًا مألوفًا من زملاء العنبر يقف مبتسمًا، ثم قال في حرج:

- لامؤاخذة على الإزعاج يا باشا، لكن لو تسمح لي أقعد جنبك شوية واسمع الأخبار.

نظرت له مليًا، كان أشيب الشعر، نحيلا، يحمل وجهه الكثير من التجاعيد التي منحته مظهرًا للطيبة أكثر مما منحته مظهر الشيخوخة. ما كان يبدو من المتطلفين ولا المتسولين في العنبر، والذى كان ضاحي يمنعهم عن إزعاجي بصرامة شديدة تستحق راتبه الذي يناله مني كل شهر.

استطرد الرجل وقد استشعر الحرج البالغ:

- انا عندى راديو والله.

وراح يشير لسرير في منتصف العنبر كأنه يريني إياه ثم أكمل مبررًا:

- بس الحجارة فاضية ومالقيتش حجارة ف الكانتين.

اعتدلت في مجلسي وأنا أنظر إلى سرير الضاحي فوجدته مجتمعًا بثلاثة من عصابته يلعبون الورق ويتراهنون على السجائر ويتبادلون السباب والاتهمات بالغش في اللعب، نظرت حولي في العنبر فلم أجد شوقي كذلك.

تنهدت في ضيق من ذلك الأحمق الذي انتهز غفلة ضاحي وتقرب مني كي يتسول سماع الراديو، إلا أنني لم أجد فيه ما ينفر فأفسحت له المكان لأعطيه مساحة وأنا أقول:

- إتفضل، ولو تحب أنا معايا حجارة زيادة.

لكنه تسلق السرير وجلس بجواري مربعا ساقيه وهو يشكرني، وقال إنه يفضل مشاركتي الاستماع للراديو، كان يبدو أنه يبحث عن الصحبة أكثر من الأخبار التي لا أعرف لماذا يهتم بها أحد.

مد يده يصافحني مبتسمًا وهو يقدم نفسه:

- محسوبك جابر عطية، لامؤاخذة عامل نضافة في المينا.

وابتسم ابتسامة بشوشة ثم استطرد بتهكم:

- سابقاً طبعاً

ابتسمت لسخريته وقلت بلهجة مماثلة:

- نادر نصار.. كيميائي.. سابقاً برضه.

ضحك قليلا ثم تأمل وجهي وهو يسأل في دهشة:

- مش أنت بتاع إعلان السمنة.

ابتسمت في مرارة وأنا أقول:

- أه، اشتغلت كام إعلان وعملت فيلمين محدش شافهم.
- يعنى حضرتك ممثل بقى، أمال كيميائي إزاى لامؤاخذة؟

قلت في سخرية من حالي بالواقع وليس من سؤاله :

- كنت شغال شغلانتين عشان أحسن دخلي.
- بس مال وشك، التعويرة اللى ف قورتك دي من أيه.
- دي بقى اللى جابتني هنا.
- إزاي مش فاهم.

ناولته سيجارة فشكرني ثم تناولت الأخرى وأشعلتهما وقلت:

- عملت حادثة بالعربية وموّت واحد.

هز رأسه متفهما وقال:

- ومدّتَك قد أيه
- أربع سنين

لم يكن لديّ أي رغبة في الحكي أكثر فرفعت صوت الراديو قليلاً على صوت مذيع ما يسأل ضيفه عن مباريات الدورى العام.

ثم قلت: طيب أحكي لى انت الأول عايز تسمع الأخبار ليه.

قال لى وهو يشير للراديو:

- انا عايز اسمع أخبار الكورة، صحيح إنت أهلاوي ولا زملكاوي؟

نظرت للراديو وأصغيت السمع لأجد المذيع يناقش فرص الأهلي في الحصول على الدورى هذا العام ثم التفتّ للرجل وقلت مبتسماً:

- أنا مبحبش الكورة أصلا.

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- والله ريحت نفسك، عارف أنا الزملكاوي الوحيد ف العنبر والباقيين كلهم أهلاوية.

ثم استطرد وهو يشير لنفس الموضع الذي أشار إليه في أول:

- هتلاقى جنب سريري صورة كبيرة لـ (جمال عبد الحميد)، ثم أشار لموضع آخر وأكمل:

محمد عباس بقى حاطط صورة (حسام حسن) وهتلاقي عم زكي حاطط صورة للخطيب.

ضحك قليلا ثم قال:

- أصله محبوس من أيام الخطيب لامؤاخذة.

نظرت له مليًا وأنا أحاول تقييمه، كان رجلاً بسيطًا جدًا، يبدو هشًا لا يحتمل صفعة واحدة، أثار فضولي فسألته عن سبب دخوله السجن فأجاب ببساطة:

- الدين.

لم أفهم جيدًا فسألته مستغرباً:

- كنت مستلف فلوس يعني وكاتب على نفسك شيكات؟
- حاجة زى كده.. كنت بجهز البنت الكبيرة وجايب لها أجهزة قسط ومعرفتش أدفع، قومت اخدت سنة ونص، فات منهم تسع شهور لحد دلوقتي واهي هانت.

ثم ضحك ببساطة وأكمل:

- الحمد لله انها اتسترت وربنا يعيني على أختها التانية.
- أنت عندك كام عيل يا عم جابر؟
- عندى خمسة، ٣ صبيان وبنتين، الحمد لله جوزت ولد وبنت وربنا يقدرني مع الباقيين.

كنت مندهشًا ولم أستوعب ما يقول جيدًا:

- أنت واخد سنة ونص ليه هو المبلغ كان كام يا عم جابر.

رد بنفس البساطة:

- هو أنا كنت واخد أوضة نوم و دفعت بتاع نصها كده ف جوازة الولا الكبير، بعدين زودت عليها سفرة لجهاز البت،

الحمل زاد عليا ومقدرتش أوفي الدين، قام الراجل اشتكاني بالوصلات اللى معاه.. خدت شهرين ف تلاتة ف ستة، كملوا على بعض كده سنة ونص.

شعرت بضيق حقيقي وانتابتني الشفقة على ذلك الأب البائس الذي دفع ثمن سعادة أبنائه سنوات بالسجن فقلت:

- ومحدش وقف جنبك خالص، معرفتش تجمع تمن المديونة وتدفعه.

قال بنفس أسلوبه الهادئ وكأنه يتحدث عن شخص آخر:

- والله حاولت وسألت أمة لا إله إلا الله لكن محدش قدر يساعدني، خصوصاً إني كنت مستلف فلوس كتير تانية مسددتهاش برضه، لكن ستر ربنا كانت من غير ورق، فمحدش قدر يسلفني تاني حتى بعد ما دخلت السجن، رغم إني من الغارمين وتجوز عليا الزكاة شرعاً.

قلت مواسياً:

- معلش يا عم جابر، ربنا يجازيك خير على اللى عملته لعيالك.

- الحمد لله، متفتكرش إني زعلان، ده أمر الله وكان لازم يحصل، يعني لو مدخلتش السجن بسبب الدين، كنت هدخل لأي سبب تاني مادام ربنا كاتب لي كده.

تأملت كلامه قليلاً، كان يقول ما كان يدور بخلدي منذ أيام عندما سمعت السجين الذي يقرأ القرآن فتذكرت أن أسأله:

- صحيح يا عم جابر مين اللي بيقرا قرآن بالليل؟

قال بفخر شديد وهو يشير إلى صدره:

- العبد لله.

قلت مندهشاً:

- ماشاء الله انت صوتك حلو قوى

تسرب التواضع لنبراته وهو يقول:

- نعمة من عند ربنا.

- أمانة عليك يا عم جابر، ابقى خدني أصلي معاك، أنا مقصر ف حق ربنا كتير.

ابتسم وهو يربت على كفي وقال:

- ربنا يهدينا ويهديك يا بني.

******

هكذا صارت صحبة عم جابر تخفف الكثير من ملل ساعات السجن البائسة، بدأت أنتظم في صلاتي معه سواء بمسجد السجن أو بداخل العنبر حسب المواعيد، كنت أجلس بجواره وأستمع لتلاوته للقرآن برهبة واستمتاع لا ينفصلان، كان صوته شجيًا عذبًا ويقرأ بمهل يتيح لى التأمل في الآيات.

كان أحيانا يقرأ آية واحدة ثم يطرح عليّ فهمه لها ونتناقش فيها، كان شخصًا بسيطًا في كل شيء، محبوبًا من السجن كله وليس من العنبر فقط، لم يكن ملتحيًا أو متجهمًا طيلة الوقت مثل الشيخ عوض، كان بشوشًا يساعد الجميع بدون مقابل، يتشاجر مع زملاء العنبر فقط حينما يشاكسونه بالسخرية من فريق الزمالك الذي يشجعه بتعصب جنوني كأنه يتقاضى راتبًا نظير إنتمائه للفانلة البيضاء.

* * * * * *

كانت الأيام تمضي متشابهة يتخللها زيارات أمي لي التي لاحظت أنها تبدو أكثر مرضًا في كل زيارة، كنت أحيانًا أتصل بأخي رأفت عن طريق حاتم بيه، وأوصيه على أمي، أحيانًا كنت أقرأ الكتب التي أجدها في المكتبة الصغيرة بالسجن.

لقد اكتشفت وجود فصل تعليمي بالسجن يبدو مخصصًا لتعليم السجناء الأميين القراءة والكتابة ولكنه كان يبدو مهملاً، نادرًا ما يقربه أحد وكان يحتوي على مكتبة فقيرة جدًا ولكنها مكتبة على أية حال، كان المسئول عن الفصل التعليمي هو الأخصائي الاجتماعي، المفترض أن عمله هو أن يستمع لمشكلات السجناء ويحاول حلها وتعديل سلوكياتهم الخاطئة، ولكنه كان موظفًا تقليديًا جدًا، يتغيب عن السجن أكثر مما يحضر، غالبًا كان يحضر للتوقيع ثم يتسلل من العمل.

كان يجتمع بالسجناء أسبوعيًا فقط كي يقرأ الجرائد أمامهم ويتركهم يتحدثون دون إصغاء، وكان السجناء ينتهزون الفرصة ليتبادلوا النكات ويغنوا المواويل وكان بينهم مواهب حقيقية.

ذات ليلة اقترحوا عليّ أن نشكل فرقة للمسرح، لم أتحمس كثيرًا في البدء ولكن فوزي منصور راح يحكي لي عن الفنان (على الشريف).

أخبرني إنه كان مهندسًا وتم القبض عليه في المظاهرات العمالية، وفي السجن التقى برفاقه وانضم لهم في فريق للتمثيل ومن هنا عشق التمثيل وكان موهوبًا جدًا، وبعد أن خرج من السجن اختاره (يوسف شاهين) لدور دياب في فيلم الأرض واحترف التمثيل من بعدها.

بالحق أذهلني أن يكون فوزي يعرف اسم هذا الممثل فضلاً عن أن يعرف قصته تلك التي أول مرة أسمع عنها، حقًا إن فوزي بتقربه من الفنانين قد سمع الكثير من الحكايات، وقد استطاع أن يثير حماسي وبالفعل صارحت الأستاذ نبيل الأخصائي الاجتماعي، فلم يعارض وكتب مذكرة لمأمور السجن دون حماس، إنه شخص روتيني لدرجة أنه بلا مشاعر من أى نوع.

أتت موافقة المأمور ببساطة، وما كانت تحتاج لتوصية من أحد، فقد كان لدى السجن مسرح لم أفهم سبب وجوده في الأصل،

وأصبح الأستاذ نبيل مديرًا للفرقة وبدأ في تسجيل الأسماء وكنت أتناقش معه حول موضوع المسرحية وأبحث بين المساجين عن أعضاء للفرقة.

مر حوالي شهرين ولم نجمع سوى ثلاثة أسماء، وعاد الفتور تجاه الفكرة ينتابني وكان الأستاذ نبيل لا يعنيه تكوين الفرقة من عدمه، حقيقة هو لا يعنيه سوى انصرام الوقت ليحين موعد صرف الراتب.

يشبه المساجين جدًا، كل الأيام عندهم سواء، فقط هي أيام تنقضي لتقرب موعد الإفراج، ولكن أي إفراج ينتظره نبيل؟

كنا نجلس أنا وهو متقابلين وأنا أسأله عن سبب عدم تكوين الفرقة حتى الآن فرد باقتضاب:

- المساجين مش فايقة للكلام ده، مش ف دماغهم.

سألته: ليه، دي على الأقل حاجة مسلية وهتعدى الوقت؟

- احنا هنا مش ف مدرسة، ده سجن والمساجين مش هتسيب وقت الراحة وتيجي تعمل بروفات.

- طيب ممكن نستأذن المأمور يعفيهم من أشغالهم، باعتبار أنهم بيأدوا دور مهم برضه.

نظر إليّ مليًا وعلى شفتيه شبح ابتسامة ساخرة وقال:

- عايز المأمور، يعفي مسجون من الشغل؟ ده الود وده يشغلهم ٢٤ ساعة، وبعدين هو المأمور فايق للسجن.

قالها واتسعت ابتسامته وعاد يدس وجهه في صفحات الجريدة.
لم أفهم ماذا يقصد فعدت أسأله لكنه تملص من الجواب وتعلل بأنه يريد أن يدخل الحمام.

تركته وانصرفت إلى الخارج وأنا أتنهد، حقًا لما يشغلني أن تكون هناك فرقة مسرحية بالسجن من عدمه؟ أنا أصلا أكره المسرح وأفضل عنه السينما، وأكره الروايات المسرحية الكلاسيكية التي سيجبروننا على تنفيذ واحدة منها.
ولكن السجناء فعلاً يعملون طوال اليوم كالعبيد، إنهم عمالة مجانية في ورش السجن، ويستغلون أوقات الراحة في النوم أو التدخين أو الأحاديث المتبادلة بينهم. ربما لهذا لا ينتظم المساجين في فصول محو الأمية.
دلفت إلى العنبر فلم أجد جابر، سألت عنه شوقي فقال لي إنه في المسجد بانتظار صلاة العصر. وسألني هل أحب أن ألحق به أم أن أتوضأ وأصلي هنا، كان المسجد بعيدًا عن العنبر، فأمرته أن يحضر زجاجة المياه ليساعدني في الوضوء هنا، ويحضر لي سجادة الصلاة، لم يكن شوقي يصلي ولا يفقه شيئًا عن الدين، بل لم يكن يفقه شيئًا عن الدنيا أيضًا، كان يتعاطى الأقراص المخدرة، ويفعل أي شيء نظير الحصول على ثمنها، كان من حثالة السجن والكل يزدريه سواء كان الحراس أو المساجين.

(البرشامجي) و(النشال) أكثر المساجين وضاعة في السجن، لذلك غالبًا ما يكونون خدمًا للمساجين الذين يملكون دفع ما يكفيهم لشراء المخدرات.

فى المساء بينما كنت أستمع لمسلسل إذاعي قديم في الراديو دقت الساعة العاشرة، ولكنها تبدو في السجن الثالثة بعد منتصف الليل، بعد لحظات سمعت حركة خفيفة وأصوات للحرس تتحدث بالخارج، كانت حركة خفيفة لا تشي بشيء ولكنها برغم ذلك غير اعتيادية، نظرت لضاحي فنهض من مجلسه وتوجه إلى باب العنبر، لم يكن يحتاج إلى إشارتي ليروي فضوله الشخصي، بالفعل نادى بصوت جهوري على الصول رمضان النوبتجي الذي أجابه من خلف الباب في حديث مقتضب عن ما يدور.

بالطبع جميع العنبر سمع صوت الصول رمضان وهو يقول إن فوزي منصور أصابته أزمة قلبية شديدة، وإنه في الطريق للمستشفى الآن.

٥

لم أطق الانتظار للصباح، وطلبت من الصول رمضان لقاء حاتم بيه.
بعد ساعتين ومع اقتراب منتصف الليل وجدته يأتي ليصطحبني إلى غرفة المأمور.
دخلت فوجدت حاتم بيه يجلس على المكتب ويخط شيئًا ما في أوراق أمامه، أشار لي بالجلوس دون أن يرفع نظره عما يفعل، لحظات من التوتر حتى ترك ما بيده ونهض للثلاجة الصغيرة الموضوعة بركن الغرفة، فتحها وتناول منها زجاجتي عصير برتقال معلبتين، قدم لي واحدة وشرع في تناول الثانية.
شكرته ثم سألت عن فوزي وحالته، ربت على ركبتي وهو يبتسم مشجعًا، وقال إنه سيكون بخير، هو صحيح في حالة حرجة لكنه الآن في المستشفى يتلقى أفضل رعاية طبية، بل إنه سيكون أفضل حالاً مائة مرة وقد تكون تلك الأزمة القلبية هى سبب نجاته.

لم أفهم فسألته مستفسرًا عن قوله، فأجابني بأن فوزي تجاوز أكثر من نصف مدته وعقوبته أصلاً بسيطة، وغالبًا ببعض الوصاية من حاتم بيك ومن أصدقاء آخرين لفوزي سينال عفوًا صحيًا ولن نراه في السجن مرة أخرى.

انتابني الارتباك ورحت أقلب الزجاجة الباردة بين يديّ وأنا أحدق في البساط بين قدمي، بالطبع سأفرح كثيرًا لخروج فوزي من السجن ولكني سأفتقده جدًا، لن أقدر على تدبير أموري بنفسي برغم أني مكثت هنا وقتًا كافيًا كي أفهم كل شيء، لازلت أشعر باحتياجي الدائم لمن يعنى بي.

صرحت بذلك لحاتم بيك فضحك قليلاً، طمأنني أنه باق معي لعام كامل سيرعاني فيه ويوجهني لما ينبغى عمله حتى أكون أكثر راحة في السجن، وبداية فهو سيمنحني زنزانة فوزي، فهي زنزانة فردية، نظيفة ومرتبة جيدًا، بعيدة عن إزعاج المساجين، وبها كل ما كان يحتاجه فوزي ليحيا برفاهية داخل هذه الجدران الصماء.

شكرته كثيرًا فسألني في إلحاح عن أي شيء يقدمه لي، لم أجد بدًا من أن أستأذنه في مهاتفة أخي والاطمئنان على أمي، كان رأفت قد جاء إلى مصر كي يأخذ أمي معه للعلاج بالخارج، لم يأت لزيارتي، فقط مكث في مصر ثلاثة أيام وسافر مع أمي، كان زكريا المحامي هو من أبلغني بذلك بعدما صار هو سفيري لدى الحياة الحقيقية خلفًا لأمي.

وهكذا طلبت أخي، إنها تقارب الواحدة صباحًا أي أنها تقارب الثامنة صباحًا لديه، وهو يستقظ في السادسة، علّ أمي تكون متيقظة.

ميزة أخي رأفت أنه أصبح غربي الفكر، شديد العملية، برغم حنقه مما فعلت وبرغم غضبه مني ولكنه يحاول دومًا مساعدتي والتخفيف عني في السجن، يعرف أن اللوم لن يجدي فتيلاً فلا ينفك يلومني على كل شيء مثل خالي أو مثل زكريا، وحينما بددت نقودي عن آخرها بدأ يرسل لي الكثير، صحيح إنه يذكرني أنها دين عليّ وأنه سيطالب بها في يوم من الأيام، ولكنه يساعدني ويطمئنني على مستقبلي بأسلوبه، يقول إنه سيسترد نقوده عندما أخرج وأنجح في حياتي وأكوّن ثروة من جديد.

علمت منه أن أمي في المستشفى وأنه سيكون عندها بعد ساعة، كان مرض أمي شديدًا ومؤلمًا، لم أفهم بالظبط تفاصيله فما كان رأفت يتحدث ولا مجال كذلك لزكريا، إننا نتكلم دقائق معدودة بالكاد.

هكذا وضعت السماعة والتفت لحاتم بيك، وجدته يتابع مباراة كرة قدم على الشاشة، مباراة من الدوري الإنجليزى كما أظن، دعاني للجلوس معه قليلاً، فجلست.

كنت أتأمل الغرفة حولي ولا أتابع شيئًا مما يدور على الشاشة، كان ينتابني فضول كبير يكاد يقتلني تجاه هذا الرجل، فحاولت استغلال حالة الود السائدة وسألته عن سبب وجوده في السجن وكيف لا يحصل لنفسه على إفراج صحي هو الآخر إذا كان يستطيع فعلها مع فوزي منصور؟

سألني في سخرية:

- وهو أنا مستنيك لما تقوللي؟

ارتبكت وتلعثمت في الكلام وأنا أوضح له أنني فقط مندهش وكنت أرجو منه الإيضاح إن كان يسمح بذلك.

ولكنه لم يسمح لي سوى بالانصراف ففعلت.

* * * * * *

يجلس نبيل أمامي يقرأ (الأهرام) بغير اكتراث وأنا أحاول انتقاء كتاب من المكتبة الفقيرة، إن مكتبة السجن تم إعدادها بعناية فائقة كأنها امتداد للجرائد الثلاث، تخلو من أي شيء قد ينتقد السياسة من قريب أو بعيد، ولذلك فهي لا تحتوي سوى كتب التاريخ التي توضح عصورًا أكثر ظلمًا وجهالة، ودواوين الشعر الرومانسية الساذجة، والكتب الدينية التي تحمل توقيع شيوخ الأزهر المحابين للسلطة فقط.

سألت نبيل وأنا مستمر في البحث:

- هو ليه مفيش كتب جديدة بتيجي المكتبة؟!

قال نبيل وهو يضع الجريدة جانباً: يا سيدي إحمد ربنا إن في مكتبة أصلاً، هو انتوا ف سجن هنا، ده انتوا ف ميغة.

- ليه بس يا أستاذ؟! هو أنت شايفنا بنتدلع، ده السجن مرار.

اقترب مني وهو يعدل نظارته على أنفه وقال:

- مرار؟! انت أصلك مشفتش السجون شكلها ايه.

لم أفهم وحينما سألته لم يجب، فألححت في سؤالي وأنا أدرك أنه يملك الكثير من الأجوبة، حتى تحرر لسانه أخيرًا.

يقول نبيل: السجن هنا فيه رعاية طبية هايلة، وفيه مكتبه ومسرح ثم بسخرية يشير لنفسه:

- فيه كمان أخصائى إجتماعى، فيه أنشطة ترفيهية للمساجين، فيه أكل نضيف، فيه دورات مياة حتى ولو كانت مش ولابد، بس فيه.

أحنا ف وسط البلد، عشان كده هتلاقي السجن دايماً نضيف وبيجي عليه تفتيش مستمر، هتلاقي مساجين مهمين هنا زى حاتم بيه وامثاله، هتلاقى أحسن سجون ف مصر سجن طره والمزرعة بتاعته وسجن الحضرة هنا، لأنهم ف قلب المركزية، انت فاهم إنه لو جت هيئة من برة تفتش على سجن هيودوها ف قلب الصحرا، هيجبوهم هنا طبعا ويقعدوهم في فندق خمس نجوم ويفسحوهم في إسكندرية ويبقى كله تمام، وهى دى مشكلة مصر الحقيقية.. المركزية.

كل حاجة كويسة محشورة في المدن الكبيرة والأقاليم تموت مش مهم مادام محدش شايفها.

ثم استدرك وقد شعر أنه تحدث أكثر من اللازم:

- المهم هى دى الكتب اللي موجودة، شوف اللي يلزمك وسبني أقرا الجرنان.

قالها وهو يتلفت نحو الباب ليتأكد أن أحدًا من الحراس لم يسمعه وعاد يطالع الجريدة كأنه يهرب داخل صفحاتها.

اخترت كتابًا عن مفهوم القضاء والقدر لأحد شيوخ الأزهر السابقين وخرجت نحو زنزانتي الفاخرة التي ورثتها عن فوزي منصور.
لقد صدق حاتم بيك في قوله فلم نر فوزي بعدها سوى مرة واحدة سريعة عاد فيها ليجمع حاجياته ويعود للمستشفى لكي يجري جراحة بالقلب، قال إنه سيمكث بالمستشفى في انتظار العفو أو موعد العملية أيهما أقرب، وقد كان وجاءه العفو وخرج ليجري العملية في أكبر مراكز القلب الخاصة ولم أسمع عنه بعدها شيئاً.

٦

"أنا لا أملك أي شيء سواك"

تنطلق الكلمات من حنجرة (ويتني هيوستن) الذهبية فتفذ إلى خلاياي وتتثير الوجيب في قلبي، حقاً لم أجرب الحب في السابق ولا أفهم أصلا العلاقة التي تجعل رجلاً وامرأة يبقيان معًا بعد الفراغ من النشوة، ولكن صوتها الملائكي ينقل لي دفقات من اللوعة لم يشعر بها (جميل بن معمر) في فراق بثينة.

ويبدو أنها لم تأسرني وحدي بل وجدت عزت الشايب ذا الستين عامًا والأسنان الملوثة بالصبغة الجيرية يطلق زفرة ملتهبة من أعماقه وهو يتابعها.

كنا نشاهد معًا فيلمها العبقري (الحارس الشخصي) على شريط فيديو، الفيديو الجديد الذي أهديته لحاتم في يوم من الأيام ومن ثم تركه لخليفته عزت قبل رحيله.

كان حاتم بك قد حصل على الإفراج منذ شهرين مضيا وقبل أن يرحل بحوالي شهر تقريبًا كان عزت قد حضر للسجن.

منذ لاحظت حذاءه أول يوم أدركت أنه (تقيل) وأنه عضو جديد في نادينا.

إن كل شيء في السجن موحد ومتماه إلى أبعد مدى، التميز الطبقي يتوارى خلف الزي والحلي الممنوعة وجفاف البشرة بسبب طوابير الصباح، كل المساجين يتشابهون إلا في أحذيتهم، فالفقراء يرتدون دوما حذاء (باتا) القماشي الأبيض ذا الأربع فتحات والرباط المفقود منذ الأزل، بينما الأثرياء منهم يستطيعون ارتداء حذاء رياضي مريح أبيض اللون يشابه الحذاء الميري من بعيد إلا أنه في الواقع يكون من طراز باهظ الثمن، غالبًا هم يرتدون أحذية (أديداس) المخصصة للاعبي التنس. وقد كان عزت هذا منهم.

* * * * *

بعد وقت قليل عرفت أنه نائب رئيس حي متورط في قضية فساد مشابهة إلى حد ما لقضية حاتم بك، وهكذا بحكم انتمائهم للحزب ولكونهم (حكومة) مثل بعضهم البعض كان لزامًا على حاتم بك أن يورثه كل شيء بدءًا من مفاتيح غرفة المأمور، وحتى أرقام هواتف مساعديه بالخارج.

إلا أن عزت كان أقل مقامًا من حاتم بك طبعا وقد يكون هذا ما جعله أكثر ودًا وأوفى حديثا، وهكذا انعقدت بيني وبينه صداقة حقيقية فهو بالفعل شخص مرح لطيف المعشر، عاشق للطعام الشهي ويتذوق الفن الجيد ويميز جيدًا بين أقوال عظماء الساسة على مدار التاريخ، وهكذا مرت بيننا الأيام كما مرت من قبل بحاتم وفوزي ومن قبلهم آخرين.

بينما نحن منخرطون في مشاهدة (كيفن كوستنر) وهو يجاهد جريحًا ليحميها بجسده ويحسن التصويب على زميله القاتل، قاطعنا رنين طويل متصل للهاتف يشي بمكالمة دولية، وينذر بمصيبة فاجعة في مثل هذه الساعة من الليل، وبالفعل قد كان.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

طوفان من الضياع.. الحيرة.. الخزي.. ومذلة الجدران الخرسانية يجتاح قلبي المكلوم.

لم أشعر بأي منها طوال عشرين شهرًا ونيف. الآن فقط صرت طفلاً وجد نفسه وحيدًا فجأة وسط أغراب مخيفين فراح يبكي وهو يركض بغير هدى.

ماتت أمي وأنا لم أرها منذ أكثر من العام، ماتت وآخر ما احتضنته رأس رأفت الكهل راجح العقل غليظ القلب، وليس رأس الطفل الضائع المذعور الذي لا يعرف كيف يتنفس بغير إرشاداتها.

كشف السجن منذ هذه اللحظة عن وجهه الحقيقي الموحش الخرب الصفيق..

باتت الليالي وكأنها آباد، بدا المساجين كأنهم رفقاء سقر وصار الحراس زبانية غلاظًا شدادًا لا يعصون للمأمور أمرًا.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ذات صباح كئيب من شهر يناير، كنت أحلق لحيتي فرانت مني نظرة لعينيّ..

استشعرت فيها الوحشة، الغربة. ذات العينين اللتين ألفتهما طوال عمري المنصرم صارتا غريبتين تحملان نظرة لا أفهمها بل وأخشاها، نظرة أظن أني رأيت مثيلتها من قبل في عيون طفل متسول صادفته في إشارة مرور وهو يجاهد كي يمسح زجاج سيارتي..

نظرة أعمق

وأقسى من نظرة اليتم.

******

يقدم لى نبيل القهوة وهو يربت على كتفي مشجعًا..

لا أظن استدعاه لي لمجرد واجبه الوظيفي.. أظن أن تحت هذه الملامح الجامدة كأقفال (الانفرادي) فيض من الإنسانية، شلال من المشاعر المرهفة والقلب المثقل بالهموم والعقل المكدود بحثًا عن نهاية لمأساة طويلة الأجل.

لم ينطق سوى بكلمات العزاء، ونصحني بالصبر والجلد، خاصة أنني مرشح للخروج حسن سير وسلوك أي إنها شهور معدودة وأكون حرًا وأعود لحياتي المجمدة بفعل برودة القضبان.

لم أعلق بشيء وأنا أجرع القهوة وأراقب دخان سيجارتي الذي يرسم في الهواء أشكالاً سيريالية أحاول أن أتبين فيها أشكالاً واضحة، تارة تبينت شجرة وارفة الأغصان وأخرى رأيت حصانًا كأنه يقفز على قائميه الأماميين.

انتبهت له وهو يمد يده ينتزع السجارة من بين أصبعي ويبتسم ويأذن لي بالانصراف.

لم أنصرف وعدت أتأمل ملامحه صامتًا

قال لي:

- ربنا مش هيسيبك ف محنتك لوحدك، متخافش، اللى ليه رب ليه ضهر.

نظرت لرماد السيجارة في المطفأة البلاستيكية التي هى بالواقع كانت غطاء مرطبان ما منذ زمن عتيق ولم أنطق.

قال:

- متشيّلش نفسك فوق طاقتك، الأعمار بيد الله، وهى ماتت تحت رعاية أخوك، أكيد لو كنت جنبها مكنتش هتقدر تعمل لها حاجة أكتر من كده.

لأول مرة ينطق لساني لأقول:

- كان كفاية تموت وأنا تحت رجليها، السجن سرق مني عمري وفلوسي ومستقبلي وأمي، كان فيها ايه لو مت في الحادثة وأرتحت زي اللى مات.

نبيل وقد ارتسم على شفتيه شبح ابتسامة:

- انت طبعا شايف إنك ضحية لقدر غشيم وظروف ظالمة، صح؟

أجبت:

- وأنت شايف إيه غير كده، مجرد غفلة في لحظة واحدة ضيعت كل حاجة بلا إستثناء.

نبيل:

- كل إنسان فينا هو المسؤل عن نتيجة اختياراته الغلط، صدقني يا نادر بعد طول سنين شغلي دي أتأكدت من حقيقة واحدة بس.. السجن فعلاً مافيهوش مظاليم.

ضحكت لأول مرة منذ أيام وأنا أستمع لقوله العجيب، نصف المساجين هنا مظلومون وأنا أولهم.

قال لي وهو ينظر في عينيّ مباشرة:

- نادر، إنت عملت إيه عشان تيجي هنا؟!

ارتبكت قليلا ثم أجبت:

- خبطت واحد بالعربية ومات.

رمقنى بنظرة لم تتأت لوكيل النيابة الذي حقق معي في القضية وهو يسأل ذات السؤال:

- قبل ما تخبطه، كنت جاي منين وإزاي.

ألجمني القول بحق، ويبدو أن سنوات السجن قد كسرت عزتي بالإثم.

شردت في خواطري وأنا أواجه نظراته، بات لدي رغبة في الاعتراف أخيرًا بأخطائي، ففي تلك الليلة المشئومة كنت أقضي سهرتي في كازينو رشدي، وكعادتي في ذات الوقت كنت قد أسرفت في الشراب وخرجت مع نسمات الصباح البكر لأقود سيارتي بسرعة تتجاوز المائة وعشرين كيلومترًا في الساعة، إن طريق البحر واسع، خال من المارة في تلك الساعة، يغري بالسرعة الزائدة.

بالفعل قطعت المسافة كلها في دقائق معدودة مثلما فعلت عشرات المرات السابقة، المشكلة الحقيقية أنني دخلت شارع (صفية زغلول) في وسط المدينة بذات السرعة حتى وصلت لإشارة شارع (السلطان حسين) – على بعد أمتار من منزلي – وقطعت الإشارة لأصطدم باثنين من المارة تعسي الحظ وأجر أحدهما أمامي حتى ارتطم بكشك المرور لتنقلب سيارتي على مدخل محل مؤسسة بغداد باهظ الثمن.

لم يرحمني وكيل النيابة ولا القاضي ولا أم القتيل بل لم يرحمني حتى الأستاذ زكريا المحامي.

كنت أمام الجميع العربيد المستهتر الذي يقود سيارته مخمورًا بسرعة جنونية ليكسر إشارات المرور ويدهس المارة ويحطم ممتلكات الغير.

لم أجب نبيل بل سألته في استنكار:

- ماشي أنا كنت مستهر وغلطت وأديني دفعت التمن غالى قوي، يمكن اكتر من الغلطة نفسها بس مثلا واحد زي عم جابر، فاكره اللى خرج من كام شهر، ده كان من الغارمين، الراجل كان بيجهز عياله يقوموا يسجنوه.

نبيل بلهجة منهكة:

- هو كمان مسئول عن غلطته دي، ليه يجيب لعياله جهاز غالي، ما كانوا يعيشوا عيشة أهاليهم، وبعدين كان متكعبل في إيصالات جهاز ابنه والناس بترق معاه يقوم يزود الطين بله وياخد كمان حاجات لبنته وبالغالي.

ثم استطرد ساخرًا: شيلوه معزة.. فَسّى، قال لهم هاتوا لي جمل.

قالها وضحك كثيرًا حتى أخذته شرْقة كادت تفضي بروحه فتجرع بعض الماء من زجاجة متربة بجواره.

نظرت له مفكرًا في حديثه وقبل أن أنبس ببنت شفة وجدته يكمل وكأنما انحلت عقدة لسانه للأبد:

- وحاتم بيه فاكره.. هو وعزت نفس القطعية.. كل واحد فيهم شغال (كحول) عند الوزير بتاعه وبيسمسر معاه.. ولو الراجل الكبير حب يأدب الوزير هيقرص ودنه.. وقرصة الودن أنه يطير له كحول.. ولا فاكر إنه هيجيب الوزير هنا.

حتى أنا مسئول عن رميتي هنا ف ووسط وشوشكم العكرة.. انا اللي خفت من الغربة ورفضت الإعارة.. والنتيجة اهى.. بقالى خمس سنين مش عارف أجيب بدلة لنفسي.. وبرضه مش ملاحق على طلبات العيال.

كان يتحدث بانفعال شديد وارتفع صوته لدرجة استدعت دخول الصول رمضان مستكشفا. نهضت متجها إلى الباب كي أخرسه قبل أن يبدأ الأسئلة والتقصي وكان نبيل قد ارتمى على مقعده يحاول إشعال سيجارة بيد مرتعشة ووجه جامد كأنه قُدّ من صخر، قبل أن أخرج ربتت على كتفه وابتسمت مشجعًا ولم أنطق.

٧

يحب زكريا (الشطة) في الطعام بصورة مفزعة، الطعام ملتهب بالفعل ويسبب لي الكثير من الاحتقان وأنا أتناوله، بينما هو مستمتع جدًا بمذاقه الحريف، والأشد هولاً أنه يكرع معه (الكولا) كأنه سكير يعب من دن بوظة في أفلام الفتوات. كنت أراقبه مندهشًا، تعذبني مشاركته بالطعام ولكني كنت سعيدًا جدًا بهذه المشاركة.

أول مرة يحضر زكريا ليزورني في السجن، ربما يشعر نحوي بمسئولية ما بعد وفاة أمي، هو شخص شديد الوضوح والاستقامة، وغالبًا بدأ يرضى عني بعد محنتي الشديدة وبعدما تأكد من إقلاعي عن الشراب، كان شبيهًا بالأب الصارم الذي لا يطيق ابنه المدلل، وفجأة يفتخر به بمجرد دخوله للجيش.

كنا في ساحة الزيارة والناس من حولي كل منهم بين ذويه وكأنه معهم في جزيرة منعزلة لا يشعر بما يدور حوله.

يتجشأ زكريا بصوت مخيف، لايلفت انتباه الناس هنا باعتباره نشاطًا بيولوجيًا تقليديًا ثم يقول في حماسة:

- هانت يا نادر، أنت كده قربت تعدى تلات ارباع المدة، وإن شاء الله تخرج قريب قوي حسن سير وسلوك.

تنهدت ولم أنطق، لقد صار الإفراج عني فكرة تثير الرهبة في داخلي، سبعة وثلاثون شهرًا بين القضبان، وكأنها ثلاثة عقود، لا أعرف ما ينتظرني بالخارج، ماعاد لديّ مال ولا عمل ولا أحلام، ولا أصدقاء، والأهم ماعاد لديّ أم.

صحيح أن السجن عذاب مضن، لكنني تكيفت مع وضعي بداخله بشكل كبير،

بينما أصبحت الحياة خارج تلك القضبان.. قصية، غامضة، شديدة التعقيد.

يكمل زكريا كأنه ينصت لخواطرى:

- المهم دلوقتي تركز في اللي انت فيه، وإن شاء الله كله هيكون أحسن بمجرد خروجك، والظروف هتتعدل، والدكتور رأفت موصيني عليك قوي، والوالدة الله يرحمها كانت موصياني عليك، أعتبرنى أخوك الكبير وأي حاجة تحتاجها هتلاقيني معاك فيها.
- شكرا يا أستاذ زكريا، أنا فعلا ماليش حد في الدنيا غيرك دلوقتي.

ابتسم في ود وربت على كتفي وقال: طبعا متقلقش من ناحية الفلوس خالص، مصروفك في الكانتين زي ما هو وأي حاجة تحتاجها كلمني في التليفون، أنت بتعرف تتصرف.

قالها واتسعت ابتسامته.

سألته بغتة: تعرف الراجل اللي موته يا أستاذ زكريا؟

بهت قليلا وتأمل في عينيّ هنيهة قبل أن ينطق:

- أول مرة تسأل عنه.. إيه اللى فكرك بيه؟!

ابتسمت في مرارة وقلت:

- عمرى ما نسيته.. وكنت بفكر فيه ف كل ساعة هنا.. كنت حاسس إنه هو السبب في ضيقتي.. لكن بعد وقت وبالذات بعد موت أمي.. حسيت بأمه وحرقة قلبها عليه.. حسيت إني أنا اللي كنت السبب في مصيبتهم وقد إيه أذيتهم.. يمكن سنين السجن دي ما تكفيش التكفير عن ذنبي.

اتسعت عيناه وهو يتأملني وتهدج صوته وهو يقول:

- ياه يا نادر يا ابني، انت اتغيرت قوي في السجن، أنا مكنتش متخيل إنك بقيت..

قطع حديثه وهو يبحث عن لفظ مناسب للوصف فأسعفته بقولي في سخرية مريرة: إني بقيت إنسان.

احمر وجهه وعدل من وضع نظارته في ارتباك وهو يقول:

- لأ مش قصدي يا بني بس...

قاطعته بجدية للمرة الثانية وأنا أربت على يده:

- فاهم قصدك وحاسس بيك صدقني.. المهم تعرف عنه حاجة.

زكريا: طبعا أعرف كل حاجة.. والبركة في الوالدة الله يرحمها.
سألته في استغراب: مش فاهم.. أمي مالها بالموضوع؟!

- أمك الله يرحمها عمرها ما سابتهم.. كانت بتسأل عنهم وبتديهم اللى فيه النصيب كل شهر.. طبعا من غير ما أمه تعرف حاجه.. كانت بتخلي أخته تزورها وتطمن منها عليهم وتديها اللى فيه النصيب.

كان هذا الجانب خفيًا عني بشدة، وآلمني قدر ما بهرني، إن أمي كانت كائنًا شديد الرقة والإنسانية والإحسان، لم تحمل الضغائن لأم القتيل التي زجت بي بالسجن بسبب تعنتها، لم تنس أنني المسئول الأول عن تعاسة تلك الأسرة البائسة، وحاولت أن تكون لهم عونًا ولم تخبرني بشيء، رحمك الله أيتها الملاك.
اغرورقت عيناي بالدمع وأنا أتذكرها وراح زكريا يربت على كتفي مواسيًا وهو يقول:

- الحمد لله يا بني.. ده قضا ربنا واحنا بنحاول نعمل اللي يرضيه.. محدش عارف حكمة ربنا من اللي حصل ده ايه.

قد بدأ يستعمل كلمة (ابني) في مخاطبتي بعدما كان يناديني لسنوات بلقب البكوية أسوة بأبي وكذلك أخي، يبدو أنه بدأ يشعر تجاهي بالألفة وتخطى حاجز الرسميات بين المحامي وموكله ليعود كما كان قبل سنوات طوال، صديق أبي الذي كان يلاعبني ويجلسني على حجره وأنا بعد طفل.

يبدو أن هذا ما جعله يحضر لي الطعام الحريف الذي يفضله هو، إنه يسرّي عني بمفهومه وهو شيء يستحق تقديري برغم آلام القولون التي بدأت تهاجمني.

سألته: وانت تعرفهم يا أستاذ زكريا؟

قال: طبعا.. كنت بزورهم كتير.. وساعات كانت الوالدة تبعتني بالظرف بتاعهم لو البنت حصلها ظروف وماجتش.

سألته: هو كان اسمه ايه المرحوم؟

ابتسم وهو يقول بدفء: اسمه محمد حسن يابنى.. كان عنده ٣٦ سنة.. موظف في شركة العامرية للغزل.

كانت أول مرة أتعرف فيها على ضحيتي البائسة، ليتحول في ذاكرتي من مجرد مجهول ليصير علمًا له اسم ومهنة وتاريخ.

لم يشغلني السؤال عن زميله الآخر، المصاب الذي استغل مصيبته وغالى في طلب التعويض حتى حصل عليه، هو شخص لا يستحق سوى أن يبقى نكرة في ذاكرتي. بينما محمد حسن يستحق أن يكون بطلاً في حياتي.

ويبدأ زكريا الحكي عنه ليخبرني أنه كان الأخ الأكبر لأختين وأخ أصغر، وابنًا لأم قعيدة بفعل الروماتويد وأمراض القلب، كان كذلك ابنا لـ (نقاش) باليومية حينما مات لم يترك لأهله سوى ستين جنيهًا وساعة ذهبية امتلكها في شبابه يومًا ما.

كان محمد قد ورث مهنة أبيه وبعض زبائنه الذين يشعرون تجاههم بالشفقة، فكان صباحًا يعمل موظفًا بشركة المنسوجات ومساءً يكون نقاشًا حينما تتاح الفرصة، كانت له أخت تعمل في مصنع تريكو وأخرى لازالت في التعليم هى والأخ الأصغر، كان هو عائل الأسرة والقوام عليها رغما عنه.

وأنا قد أتيت تحت تأثير الكحول كي أصرعه وأتركهم وحيدين من بعده في مواجهة ليال ذات مسغبة.

حقا كما قال زكريا هي (حكمة ربنا) التي جعلته يتواجد في ذات اللحظة في مكان الحادث، هو تحديدًا دون غيره من البشر، ملابسات الحادث بأكمله تثير العجب، حشد من الملابسات والمصادفات التي جعلت من خطأ فردي، فجيعة رهط من القوم.

ولكن لا يوجد مصادفات في الحياة، كل شيء بقدر، كم تجادلنا حول هذه الفكرة أنا وجابر فيما سبق.

بعد انتهاء الزيارة، عدت إلى زنزانتي محملاً بباقي الزيارة لأطعم شوقي بعضها وأهادي الضاحي بخرطوشة سجائر أجنبية. الضاحي الذي اكتشفت مصادفة أنه هو من يبكي كل ليلة سرًا، كان ممثلاً من العيار الثقيل هو الآخر، يتقمص دور البلطجي المسيطر صباحًا ويقضي ساعات الليل ينتحب على ما فعله بنفسه.

كان يتمنى لو ظل سائقًا كأبيه، يتمنى لو تزوج وكون أسرة وكان همه في الحياة استخراج بطاقة تموين.

فى لحظات الصفاء بيننا كان يحكي عن أحلامه بعد السجن، كان يحلم أن يكون مجرد شخص ما، واحد من ملح الأرض كما يقولون، كان بلطجي السجن الذي يبعث اسمه الرهبة في نفوس المساجين والحراس يحلم بأن يكون نكرة، يحيا في شقاء من أجل أطفاله ويموت بسلام في منزله الرخيص كما فعل أبوه.

أهديته السجائر مبتسمًا وفررت بعدها إلى زنزانتي وحيدًا أستمع إلى الراديو بغير إنصات وأتأمل في حياة محمد حسن ذلك الرجل الذي غير كل شيء في حياتي والذي لم أسمع اسمه سوى منذ ساعات معدودة.

٨

أجرع رشفة طويلة من القهوة فتتخلل إلى روحي لتفيض فيها نشوة لم آلفها مع أي خمر من قبل، أشعل سيجارة تبدو رائحة دخانها كأفخر عطور (شانيل)، تنساب الموسيقى إلى مسامعي لتدغدغ طبلتي أذني في غنج يثير شهيتي للحياة، رباه يالها من روعة.

الوجوه من حولي نظيفة، باشة، متناغمة المظهر، وابتسامة النادل تهدهدني لتنسيني سنوات الجحيم.

أربعة وأربعون شهرًا وتسعة عشر يومًا، مرت وكأنها أبد كان يبدو خالداً.
أول قدح من القهوة تحت شمس الحرية الحانية.

جالسًا في (تريانون) على بعد دقائق من منزلي أتنعم، لم أقو على الذهاب مباشرة لمنزلي بعد انتهاء إجراءات الإفراج عني، فقد كنت أحلم بهذه الجلسة كل يوم طيلة الأشهر الخمسة الماضية التي قضيتها في انتظار الخروج لحسن السير والسلوك، خمسة أشهر من تقديم الطلبات القانونية والتوصيات الودية كي أحصل على إفراج نهائي.

حمدًا لله، لقد قضيت أقل من أربع سنوات في السجن ولكني أشعر أنها أربعون سنة، حقا لقد شخت فيها، ما عاد لدي الرغبة في فعل أي شيء، أو القدرة على مجرد التمني.
أربعة وأربعون شهرًا.. ياله من ثمن باهظ لزجاجتي خمر.

انهض متوجها للخارج، استنشقت نفسًا طويلاً من الهواء استعدادًا لما سأراه خلف الباب وأنا أسحب المقبض بهدوء به شيء من التراجع.
فعلتها أخيرًا وخرجت في مواجهة خطاياي، شارع (صفية زغلول)، أمشيه على مهل في طريقي لبيتي، ذات الشارع الذي قطعته يومًا بسرعة ١٢٠ كيلومترًا.

أتحرك فيه ببطء العجائز من فرط الزحام، أتأمل واجهات المحال التي كانت شاهدًا على رعونتي فيما سبق، تتخاذل قدماي كلما اقتربت نهاية الشارع، أرى من بعيد تقاطع (السلطان حسين)، واجهة معرض (بغداد)، أسير إليها في تخاذل مطأطئ الرأس، كأنني أحمل كفني متوجهًا لمكلوم يسعى للثأر.
أقف في مفترق الطريق أمام الواجهة الزجاجية المستحدثة بالكامل، أمامها سور حديدي للأفريز الخاص بالمحافظة بجواره كشك شرطي المرور.

كل شيء يبدو جديدًا إلى حد ما، لامعًا، تبدو واجهة المحل أفخم مما كانت، يبدو كشك المرور أكثر أناقة.

كل هذا بمالي ولقد أجادوا جميعًا إنفاق تعويضاتهم مني في أماكنها الصحيحة.

أراقب المعروضات الجديدة التي هشمتها يوما بسيارتي،

أتنفس بصعوبة وأنا أرى المارة حولي يتحركون ولا يلتفتون لشيء، كأنني شبح وكأن الواجهة خفية عن العيون.

حتى العاملون بالمحل أراهم بالداخل منهمكين في نقاش ما، لم يعر أحدهم التفاتًا للواجهة ولا لمن يقف أمامها.

كل شيء أفضل مما سبق، المعروضات تبدو أثمن وأرقى، الشارع يبدو أنظف.

أنا وحدي الأسوأ مما سبق، الأقذر، والأكثر علة.

أتطلع لمساحة الشارع وإشارة المرور وأندهش

كيف لي أن أدور بسيارتي عدة مرات في هذه المساحة الضيقة؟!

كيف أنقلب بها والسيارات حولي تسير بالكاد وتتوقف أكثر مما تتحرك؟!

أتنهد وأنا أرى الندبة في جبهتي بارزة، مقيتة، شامتة، تطالعني من خلال ركن داكن في واجهة المحل يعمل كمرآة عاكسة، أوليه ظهري وأتحرك نحو منزلي.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

منزلي الذي هجرته يومًا ما بحثًا عن ذاتي ولم أدرك أنني أترك ذاتي بداخله بحثًا عن سراب.

منزلي متعدد الغرف، واسع المساحات الذي كنت أظنه عاديًا بل وكنت أتمرد عليه أحيانًا.

كم يبدو كل شيء جميلاً اليوم.

أكان لابد لي من قضاء سنوات بالسجن كي أعرف قيمة الأشياء؟!

أتطلع لبيتي الحميم المغلق منذ سفر أمي للعلاج بالخارج.

هذه (البياضات) على صالون لويس الخامس عشر تحمل آثار أمي قبل الرحيل.

تلك السجاجيد المبرومة حول ذاتها داخل ملاءات قديمة - كأنها جثث في بيت سفاح - ، تحمل لمسات يديها فتثير الشجن في قلبي أكثر مما تثير الفزع.

على حائط غرفة الصالون أجد صورة أبي تجاورها صورة أمي، أقترب منها أكثر، أتاملها في دقة، أجد ألوانها قد بهتت وبدت شقوق دقيقة في ورقها، أجد بروازها الذهبي بائسًا فاقدًا لبريقه كأنه قد شاخ هو الآخر.

بدت لي الصورة بأكملها شاحبة، مهترئة، كأنها فقدت روحها خلفًا لصاحبتها.

فرت عبرة على خدى الأيمن، ولم أجد ما يواسيني سوى الدعاء لها، بدأت أتفقد المنزل بشوق الحبيب العائد.

أدخل غرفة أمي، أخي، السفرة والبوفيه العملاق الذي يحتوي على إرث أمي من أدوات المائدة، أدخل المطبخ، أفتح صمام أنبوبة الغاز وأتأكد من سلامة الموقد، وكذلك أفعل لسخان المياه، أدخل غرفتي، أتفقد حاجياتي، ملابسي، كل شيء افتقدته حتى النجف العملاق عتيق الطراز المغطى بقماش (الكريتون).

أتوجه بعدها إلى الحمام لأفتح محبس المياه العمومي، أترك المغطس يمتلئ بالمياه الدافئة المنسابة من الصنبور، أراقبها في سخرية.

لقد كنت أتبول في دلو معدني يبيت معي في ذات الحجرة، كنت أدفع عشرين جنيهًا في المرة الواحدة كي أستحم بماء بارد تحت دش صدئ في تابوت قائم يسمونه حماماً مغلقًا، ومن لا يملك كان لديه الحمام العمومي بكل كوابيسه.

استحممت جيدًا، وارتديت ملابس نظيفة. تعطرت، وارتديت ساعة وخاتمًا فضيًا كبيرًا كان مملوكًا لأبي.

بحثت عن قلادة وسوار معصم فتذكرت أنني ما كنت أمتلك أحدها، كنت أتمنى أن أرتدي كل الحلي الممكنة تعويضًا عن حرمان السجن برغم كراهيتي للحلي في الأصل!

نزلت من بيتي بحثًا عن مطعم جيد، كنت أهوى مطعم (على كيفك) المقابل للترام في ميدان (محطة الرمل) بمواجهة (تريانون)، إلا أنني خرجت لأجده تحول إلى (كنتاكي) وما كنت أحب هذه المطاعم التي تخدم فيها نفسك، إذا كنت سأخدم نفسي فلأخدمها بالمنزل إذًا.

أسير بتؤدة، أتأمل المارة والسيارات وواجهات المحال، أتأمل جمال النساء وإشراقة وجوههن.

إن لدي من الوقت ما لا أعرف فيما سأمضيه، سأبحث عن نقطة بدء لحياتي في وقت لاحق، أما الآن يكفي أن أتمتع بالحرية.

٩

يتناول زكريا رشفات كبيرة من السحلب كعادته في تناول أي مشروب كما يبدو.

يتلمظ المكسرات الذائبة في السائل الأبيض برضا، يدير الكوب بين كفيه طلبًا للدفء، ينظر عبر النافذة للمارة ويبتسم.

كنا في أحد المقاهي لأنه أصر ألا ألاقيه في مكتبه وسط موظفيه وزحام الموكلين، كان مصرًا على توثيق أواصر الألفة بيننا، كان الجو مطيرًا بالخارج والمقهى مكدسًا بالزبائن والجو خانقًا من كثرة دخان النرجيلات المتناثرة حولنا، لكنني كنت مستمعًا بكل هذه الصحبة البشرية.

قال زكريا إنني بعدما أنفقت جل مدخراتي في التعويضات وتكاليف العلاج التي ساهمت فيها أمي وإخوتي، استنفدت جزءًا كبيرًا من رصيد أمي حتى أنها لم تترك شيئا ذا بال للورثة، يقول إنني مدين لرأفت بمبلغ كبير.

ولكنني أعرف رأفت جيدًا وأعرف رأيه في هذا الموضوع، إنه يكره العطاء دون مقابل لأنه من وجهة نظره الغربية يصنع الكسالى والطفيلين، ولذلك هو يعطي على سبيل الدين، لكنه لن يسترد دينه إلا من سعة، هو لا يحتاج المال ولكنه يحتاج الوفاء بالوعد.

أفهم ذلك جيدًا ولكني لا أملك شيئًا الآن ولا أعرف نقطة صالحة للبدء.

ينصحني زكريا بالبحث عن عمل جاد من وجهة نظره، يريدني أن أعمل كميائيًا كما كنت بالماضي، ولكنه هو نفسه يعلم أنني لن أجد شركة محترمة تقبلني بصحيفتي الجنائية.
يقول إنه يبحث لي عن عمل لدى أحد موكليه صاحب شركة أدوية، ولكني أعلم أنه لن يجد وإن وجدت عملاً ما يقبل ربه بأصحاب السوابق فلن يكون عملاً مجديًا، بل قد يلقي لي الملاليم بحجة أنني لن أجد غيره.
صارحت زكريا بخواطري فبدا عليه الهم، هذا الرجل يحبنى حقًا ولا أعرف كيف هذا؟!

أخبرني أن قانون العقارات تم تعديله منذ عامين تقريبًا وأنني الآن أستطيع تأجير شقة أبي لمدة بسيطة بمبلغ كبير، يقول إن قانون الإيجارات الحديث فض الاشتباك بين المالك والمستأجر.
يقول أنني أستطيع أن أؤجر شقتي بمبلغ يتجاوز الألف جنيه شهرياً وأستطيع في المقابل أن أستأجر شقة ما صغيرة بمائتين أو ثلاثمائة مثلاً وأنفق من المتبقي، يقول إن رأفت وسمية لن يرفضا ذلك أبدًا ولن يسألا عن قيمة الإيجار وكل منهم يمتلك أكثر من شقة.

ومتاعي؟! كل قطعة أثاث اشتراها أبي بكده، كل ركن يحمل لمسات أمي لتنظيفه، أين أضع محتويات ثماني غرف؟

يقترح زكريا أن أحشر محتويات الشقة بأكملها في غرفتين أو ثلاث، وأقوم بتأجير الباقي، يقول إن الشقة فاخرة وفي أفضل شوارع الإسكندرية، يقول إن لديه مائة زبون لها.

وأنا أفكر ولا أعرف ماذا أقول تحديدًا.

فقط طلبت منه أن يترك لي مهلة للتفكير، طلبت منه كذلك مبلغًا من المال أتعيش منه إلى حين.

لحظات من التردد مرت عليه قبل أن يخرج من جيبه دفتر شيكاته ويحرر لي شيكاً بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه، تناولته شاكرًا واستأذنته في الانصراف لأعود إلى منزلي المزدحم بالذكريات.

* * * * * *

مع نسمات الصباح الباكر وصوت (إيناس جوهر) يترنم في الراديو بمقدمة برنامج (تسالي) نهضت من سريري استعدادًا للخروج.

تأملت أثاث غرفتي وأنا أرتدي ثيابي، تمعنت طويلاً في الأنتيكات المتناثرة في أرجاء الصالون وأنا أرشف قهوتي.

حدقت في مطفأة التبغ التي أستعملها في تدخيني، المطفأة النحاسية يدوية الصنع المزدانة بنقوش وزخارف إسلامية ألاحظها لأول مرة، المطفأة التي اشتراها أبي من خان الخليلي وهو بعد طالب في جامعة فاروق الأول قبل أن تصير جامعة الإسكندرية.

كل هذا كان كفيلاً برفض فكرة زكريا تمامًا، أنا لن أحرك مقعدًا من مكانه الذي تركته فيه يد أمي، لن أدع غريبًا يمرح بين جدران شهدت لقاءات أبي مع عظماء السياسة والحزب.

اتخذت قراري النهائي وأنا متوجه إلى المصرف.

بعدما قبضت الأموال عرجت على السنترال كي أسدد فواتير الهاتف المتأخرة وأعيد تشغيله، أخبروني أن الحرارة ستعود خلال يومين فقط، سعدت بذلك لأنني كنت أرغب في مهاتفة رأفت وسمية.

لم أجد ما أفعله فذهبت إلى المقهى، كان قريبًا إلى حد ما من منزلي وبجوار سنترال محطة الرمل.

دقائق أقطعها سيراً بمحاذاة الترام، مقهى صغير هو يجمع بين الحسنيين، رخيص الثمن مقارنة بالمقاهي السياحية المجاورة ويطل على البحر من شارع جانبي كذلك.

كنت بدأت ترشيد نفقاتي فأنا لا أعلم متى أجد عملاً ما وماذا سأفعل في أيامي التالية.

وهكذا جلست أستمتع بسحر البحر في الشتاء ورائحة اليود تغسل رئتيّ مما علق بهما من روائح نتنة طيلة أربعة وأربعين شهرًا.

تذكرت في جلستي فوزي، ربما لأن (كازينو رشدي) كان على البحر هو الآخر، كان قد ترك لي أرقام هاتفه كي أتصل به بعدما أخرج، وكنت أفضل فعلاً أن أراه في شركته أو حتى على المقهى هنا، لن تخطو قدماي هذا الكازينو المشئوم مرة أخرى أبداً.

فكرت أن أزوره في مكتبه، استوقفت سيارة أجرة وطلبت من سائقها الذهاب إلى (لوران) – شارع (شعراوى) تحديداً – فانطلق السائق عبر طريق الكورنيش وأنا أتأمل البحر من حين لآخر وأستشعر شيئاً من الغرابة، لا يبدو المشهد مؤلوفًا كما كان.

أمام سور الكورنيش لا أرى سوى البحر، رمال وأمواج، أتأمل جيداً فلا أجد أي أثر لأي مبنى ما، تمر عليّ (كامب شيزار) و(الإبراهيمية) بل و(رشدي) كذلك حتى وصلنا إلى (ستانلي) ففهمت تدريجيًا، رأيت (سان جيوفاني) يقف شامخاً وحيداً على الكورنيش وإن كان يبدو مهجورًا، كيف ذلك؟ أين ذهب الكازينو!! هل هدموه؟ وإن هدموه، هل هدموا كل شيء على البحر كذلك؟.

لم أعرف ماذا حدث وكأنما خرجت من تأبيده لأجد كل شيء تغير، إنهم ثلاث سنوات ونصف، ماذا حدث؟ لم أتمالك الانتظار أكثر وغلبني فضولي فسألت السائق عن (كازينو رشدى).

اندهش لسؤالى فبادرته بمقولة أنني كنت في الخارج، هز رأسه متفهمًا وأخبرني أن المحافظة هدمت كل كازينوهات الشاطئ وكذلك الكبائن.

لم أسوعب برغم منظر الحفارات ومعدات البناء المتناثرة بطول الكورنيش، والسائق يخبرني بأنه لم يتبق سوى كازينو الشاطبي وكذلك فندق سان جيوفاني اللذين في طريقهما للهدم، لم أفهم لماذا ولكنه قال إنه مخطط لتوسعة طريق الكورنيش.

شدهت لحظات وأنا أتأمل شريط الكورنيش الذي كان يعج بالحياة الصاخبة وقد تحول إلى طريق للأشباح بسبب خلائه من البشر بفعل برودة ديسمبر، ومن المباني بفعل قرارات المحافظ.
استمررت في الدهشة حتى وصلنا وجهتنا ونزلت أمام العمارة الشاهقة التي لازلت أذكر عنوانها برغم أني لم أعرف أي شيء عن فوزي منذ عامين ولا أعرف ماذا فعل بعدما هدمت الحكومة الكازينو الذي يملكه.

******

فى مكتبه الفاخر الذي يشي كل شيء فيه بالثراء الفاحش وجدته جالسًا في أبهى صوره، كان ازداد شيبًا وبدانة، ولكنه كذلك ازداد هيبة وثراء.
كان استقباله لي حافلاً شديد الصخب، ولكني شعرت به مصطنعًا مجاملاً لا يحمل من الود المقدار الذي يحاول التظاهر به.

جلسنا نثرثر وندخن السيجار الفاخر الذي لازال يفضله، لم نذكر شيئاً عن أيام (الحضرة) وإن أتينا على ذكر بعض الزملاء، كانت الذكرى سيئة لكلينا يحاول كل واحد منا محوها من ذاكرته.
ولكن فوزي الجالس أمامي كان يبدو غريباً عني، لم يعد بذات الحميمية والصفاء، كنت أرى أمامي تاجرًا أريباً يسعى لصفقة ما خلف كل كلمة، يتحين فرصة الكسب من أى تلميح.

كان آليا جدًا، دقيقاً كآلات صرف النقود المستحدثة، كنت أرافق نسخة أخرى من فوزي منصور، نسخة أكثر قسوة وبرجماتية مما جعلني أنفر منها، ليس هذا هو شريك سنوات السجن (صاحب صاحبه).

يبدو أن الزمن فعلا يغير كل شيء حولنا، بدءًا من شكل المدينة الذي اعتدناه وحتى جوهر الأشخاص الذين نعرفهم. ولكننا لا نريد أن نفهم ذلك ونظل متمسكين بالصور القديمة التي اختزناها في ذاكرتنا رافضين رؤية الحقيقة الجلية أمام أعيننا.

أنا أيضًا كنت أبدو مختلفًا. أكثر صمتاً من ذى قبل، أكثر تأملاً وأقل حماسًا لأى شيء في الحياة،

كان لقاءً باهتًا عرفت بعده أنه لن يتكرر، بل اعتبرته وكأنه لم يقع بالأصل، مفضلاً أن يبقى بداخلي ذكرى فوزي صاحب القلب المعتل الذي أهداني وجبة أسماك فاخرة (ملكي) في أول أسبوع لى بالسجن.

استأذنته وانصرفت وأنا لا أعرف لأين أسير تحديداً.

عدت لمنزلي بعد فترة تسكع في الشوارع لأجد الهاتف يعمل أخيرًا، فرحت كثيرًا بذلك وبدأت محاولاتي في الاتصال بسمية أو رأفت لكن كليهما لم يجب.

فتحت التليفزيون فلم أجد شيئًا يشجع على المشاهدة، دخنت علبتي سجائر وطهوت وأكلت واستحممت ولازالت الساعة لم تتجاوز السابعة مساءً، الفراغ سيقتلني حتما فلابد أن أجد غدًا ما أفعله، إن سنوات السجن أنستني ما يفعله الأحرار في يومهم.

طلبت زكريا في مكتبه فأجابني بترحاب شديد، سألته عن عنوان محمد حسن وكيف أصل لأهله، بدا مستغربًا هنيهة ثم وعدني أن يصحبي إليهم في اليوم التالى.

وضعت سماعة الهاتف وأنا أفكر في هذا اللقاء المزمع بالغد، ماذا أقول لأمه وكيف ستستقبلني في بيتها، شردت في خواطري حتى نمت - غالبًا بدافع الملل -.

١٠

أقف في تمام الخامسة مساء أمام واجهة (إيليت) الزجاجية ذات الطابع اليوناني، أرمق الطاولات التي طالما جلست على إحداها أتأمل تكثيف بخار الماء حول زجاجة الجعة الباردة وأحلم بصورتي على أفيشات السينمات.

كنت مندهشًا بشدة لتحديد الأستاذ زكريا موعد لقائنا هنا، في شارع (صفية زغلول) شديد الرقيّ بعمائره بالغة الأناقة، وعلى بعد خطوات من منزلي، لا أعرف كيف يقطن محمد حسن هنا.
بعد دقيقتين من الانتظار وصل الأستاذ زكريا وترجل من سيارته التي تركها بجوار الرصيف، صافحني مبتسمًا وهو يشير للعمارة الفاخرة التي في المواجهة.
عمارة (مصر للتأمين) العريقة التي بناها المهندسون الإيطاليون في الثلاثينيات، والتى يقع تحتها مطعم (سانتا لوتشيا) أهم مطاعم الإسكندرية في الماضي حينما كان المطعم المفضل للملك (فاروق) ومن بعده (عبد الناصر) و(السادات) و(نجيب محفوظ) و(إحسان عبد القدوس)!
تبعته مذهولا وهو يدلف إلى العمارة ويدخل المصعد المعدني المبطن بخشب الماهوجني ويضغط زر الطابق الأخير.

بئسًا، إن محمد حسن كان يقطن في غرفتين على السطح ضيقتي المساحة، مزدحمتين بالبشر مثل باقي السطح الشاسع الكاشف لمشهد بانورامي فائق الجمال، كانت هذه الغرف فيما سبق (غرف غسيل) مثلما نملك في عمارتنا، ومع الوقت هي أيضًا تسلل إليها السكان وتناسلوا بصورة غير مفهومة.

كانت حياة محمد حسن شديدة التناقض، يسكن غرفة حقيرة بالسطح في وسط الإسكندرية الكوزموبوليتانية.
ينزل سلالم العمارة يوميًا في تمام السادسة والنصف صباحًا ليقابل على ذات السلم أبناء باشوات ودبلوماسيين وأساتذة جامعات ثم يسير عشرين متر فقط ليقف في انتظار أتوبيس الشركة الذي يقله إلى عمله.

يقف على ناصية شارع (السلطان حسين) أمام واجهة مؤسسة (بغداد) يتأمل أجهزة التلفاز اليابانية معقدة التكنولوجيا باهظة الثمن، ويحلم..
يحلم باقتناء أحدها يومًا ما ليضعه في ردهة شقة أوسع تمنح لأخته الغضة بعض الخصوصية، ولأمه مطبخًا مستقلاً عن الحمام، تمنحه هو غرفة يخفي فيها أسراره التي تمنى أن يمتلك بعضها مثل الآخرين.

استمر في هذا النشاط أربعة عشر عامًا وعدة شهور حتى أتيته مخمورًا بسرعة ١٢٠ كم/س لأمنع المزيد من التأمل والحسرات والتشبث بآمال زائفة.

وصلنا للسطح فوجدت أخاه الصغير في انتظارنا، مراهق اسمه علي كان فرحًا بمجيئنا حقًا، بعدها استقبلتنا أخته في تحفظ وارتباك جاهدت أن تخفيه عن ناظري ثم أجلستنا على أريكة عجوز تئن من حملنا في الغرفة الخارجية، استأذنتني الأخت ودخلت إلى الغرفة الداخلية لتحضر الأم.

بقى علي أمامنا يعد بعض الشاي على بوتجاز المصانع الحربية ذي الشعلات الثلاث.

أمام ناظري كانت على الحائط المليء بالشروخات صورة زفاف لعروس تبدو مليحة برغم محاولات (الكوافير) طمس ملامحها تحت أطنان من مساحيق التجميل الرخيصة، بجوارها صورة أخرى لشاب مبتسم يرتدي حلة لا أتبين لونها الباهت.

لاريب أنه محمد حسن شخصيًا.

تأملت صورته فوجدته أسمر اللون مليح القسمات، ذا شارب منمق وجبهة غزتها التجاعيد مبكرًا، كانت شفتاه ترسمان ابتسامة دافئة تهب الطمأنينة لمن يراها، ولكن عينيه..

عيناه اللتان تلمعان بالذكاء في مواجهة الكاميرا كانتا تحملان نظرة غريبة الوصف برغم إنها شديدة الألفة في الوقت ذاته!

نظرته كانت مبتسمة تحمل إشراقا للحياة ولكنها تحجب حزنا دفينًا.

نظرة شخص متماسك، يبدو سعيدًا برغم ما يحمله في قلبه.

نظرة سبق أن رأيتها من قبل في عين طفل يركض بعلب المناديل الورقية بين السيارات في إشارة مرور محاولاً سباق أقرانه للزبائن.

بل لقد رأيتها أقرب من ذلك بكثير.

رأيتها اليوم، بل في الساعة المنصرمة، رأيتها في مرآة غرفة نومي وأنا أتأنق للخروج.

جاءت الأم على كرسي متحرك تدفعه الأخت التي أجهل اسمها حتى الآن، وقفت احترامًا لها وكذلك فعل زكريا.

أتت إليّ صامتة برغم عبارات الترحاب التي استقبلها بها زكريا، حتى واجهتني وأنا أبتسم لها تشجيعًا، تأملت وجهي هنيهة ثم نطقت بسؤال غريب: أمك ماتت يا ولا؟

تنحنحت الابنة في حرج وأنا دهشت لحظة ثم أجبت بالإيجاب، فاستأنفت في تشف مقيت:

- ماتت وأنت مرمي ف السجن.. من غير ما تشيل نعشها ولا تصلي عليها.. ماتت مكوية بنارك زي ما أنا هموت بناري على أبني.. انت اللى زيك كان لازم يشنقوه.. يا سُكري يا وسخ.

لم أقدر على النطق وأن كنت متوقعًا ذلك وأكثر، بينما الابنة راحت تنهرها على ما قالت متحججة أنني في منزلهم وجئت أودهم، قال زكريا كلامًا كثيرًا وكذلك قال الفتى الصغير عبارة لم أتبينها ولكن المرأة لم تسكت واسترسلت:

- كنا عملنا لكم ايه عشان تحرقوا قلبي على ضنايا.. كنا عايشين حامدين ربنا ومستورين.. مكناش عايزين منكم حاجة.. وأمك لما جت هى والبيه اللي معاك عشان تديني فلوس مأخدش منها حاجة.. مكنتش عايزة حاجة غير إنكوا تسيبوا ولادي ف حالهم.

  أمك اللى جابلتك العربية عشان تدهس بيها خلق الله.

  روح..

  ربنا يحرق قلبك طول عمرك زي ما حرقت قلبي.. أنت ما تستاهلش تقعد ف بيت الراجل اللى ضهره أتكسر على أخواته.. الراجل اللى أنضف منك ومن أهلك الحرامية.

  أطلع برة يا رمة يا ابن الكلب.

أعقبت كلامها ببصقة هائلة تناثرت على ثيابي التي قد تكون أغلى ثمنًا من محتويات منزلهم جمعاء.

كانت الدنيا تدور بي من فرط الإهانات وقلبي يحترق وجعًا على تلك الأم الثكلى في ذات الوقت، لم أحتمل أكثر فخرجت هرولة من المنزل والدموع تشوش عليّ الرؤية حتى كدت أسقط من على الدرج الذي نزلته عدوًا ناشدًا الشارع، متجاهلاً اللهيب المستعر في ساقي ومفصل ركبتي ذي الشرائح المعدنية.

******

ظل علي يعتذر عن فعلة أمه لنصف ساعة متواصلة بينما زكريا يتدخل في الحديث أحيانًا ملطفًا الموقف وأنا في مواجهتهما لا أسمع ما يقولان.

كنت أتأمل شكل سحب الدخان الخارج من طرف سيجارتي المشتعل محاولاً تبين الأشكال التي ترسمها، وأحيانا أنصرف عنها بمراقبة الطريق.

سحقًا، ألم يجد زكريا مكانا أسوأ من هذا؟!

كانا قد لحقا بي واقتادني زكريا إلى أول مقهى صادفه، مقهى (السلطان حسين) اللعين الذي يحتل الرصيف المقابل لواجهة مؤسسة (بغداد)، تلك التي أتحاشى النظر إليها فتخفق محاولاتي فأعود لأتأملها من جديد محاولا تذكر الحادث.

بعد لأي وجدت بقايا حركة في أحبالي الصوتية فتحرر صوتي لأسأله أخيراً:

- إنت ف سنة كام يا على؟

كان علي في الصف الثالث الثانوي الفني في مدرسة (الصنايع) ذات نظام الخمس سنوات، كان طامحًا للالتحاق بكلية الهندسة بعد إنهاء دراسته.

لم يكن في الأصل حلمه الشخصي بل كان حلم أخيه وقد ورثه عنه بعد وفاته، كان يتمنى أن يعوّض أمه عن فقدان بطلهم بكل السبل.

وحقًا كان محمد حسن بطلا بالفعل في كل مواقفه بالرغم من هزائمه المتكررة في معترك الحياة.

كان الابن الأكبر الذي اضطر لترك دراسته بعد موت أبيه ليبحث عن عمل حكومي يمثل أمانًا لأسرته، كان أبًا لأخته المراهقة التي لا زالت تدرس والتي ستصير يومًا ما عروسًا تحتاج لثقلها من الذهب لزوم الشوار كسابقتها، كان أبًا لأخيه الطفل الذي لم يدرك والده، كان سندًا لأمه المريضة التي كانت تحلم بالعمرة وزيارة قبر النبي قبل وفاتها.

كان محمد حسن يعشق كرة القدم وكان بارعًا فيها وهو بعد صغير حتى نهره أبوه عنها حتى لا يكون (صايع) ويصبح (حاجة) في المجتمع، برغم جهل الأب شخصيًا ماهية تلك (الحاجة).

كان يحب فتاة سرًا تعمل معه في ذات المصنع ولكنه لم يصارحها بحبه قط مكتفيًا بكتابة خطابات لها لا يرسلها أبدًا، وظل يكدسها تحت مرتبته حتى اكتشفتها أخته بعد وفاته.

كان يحلم بالسفر إلى العراق مع زملائه في نهاية الثمانينات ولكن منعته دموع أمه وهي ترجوه العدول عن الفكرة، كان يتأمل جواز سفره كل ليلة حالما بركوب الطائرة والعودة بمهر (فاتن) التي يكنيها في خطاباته بأم يوسف، كان يحلم بإنجاب طفل يسميه يوسف لسبب ما لا يعلمه أحد، يدخله مدرسة لغات مثل (أولاد الناس) جيرانهم من سكان العمارة الأثرياء.

كان محمد حسن يمثل النخلة الوارفة التي تظلل هؤلاء في قيظ حياة طاحنة لا تعترف بالأحلام، ومات هكذا ببساطة في لحظة رعونة من شاب مدلل كان يقود سيارته بسرعة جنونية تحت تأثير الخمر.

سامحني يا محمد حسن، يعلم الله أني دفعت الثمن غاليًا جدًا، لقد تطهرت من كل ذنوبي السابقة خلال سنوات التهذيب والإصلاح السوداء، سأستمر في رعاية أسرتك بعدك كما كانت تفعل أمي حتى وفاتها، عسى أن يسد هذا جزءًا من ديني نحوك.

١١

كانت الموجات الحارة تضرب البلاد في منتصف يونيه وكثرت حالات الإعياء ونوبات المرض.

جو من السقم يجثم على الشوارع وكأن الهواء ذاته معبأ بشذرات الهلاك، كنت أنزوي تحت مروحة السقف العملاقة التي تلهب وجهي بفحيح هوائها الساخن أكثر مما ترحمه بنسمات باردة.

أجلس لاهثًا كالكلاب البلدي أمام المجهر لتنساب قطرات عرقي على معدنه الأسود كالغيث.

الشهر الثاني لي في ذات المعمل وهو وقت أطول بكثير مما كنت أتوقع.

طبعا هو معمل مملوك لأحد عملاء الأستاذ زكريا الذي صار صديقه بمرور الزمن، أستاذ أمراض الباثولوجي الكهل الذي كان زميلاً لأبي في هيئة التدريس بالجامعة وزميلاً له باللجنة الصحية للحزب.

كان واحدًا من عشرات المهن التي رشحها لى زكريا حتى لا تقتلني الوحدة وتسحقني الذكريات.

قد كنت وحيدًا من قبل في زنزانة مساحتها ثلاثة أمتار، أما اليوم فأنا وحيد جدًا، ضئيل في مواجهة ثماني غرف واسعة.

قبلت أخيرًا لأنني لا أملك شيئًا آخر أفعله، كل يوم أحاول أن أخطط لمستقبلي كطبيب تحاليل، سأعد دراسات عليا في التحاليل الطبية وأقترض بعدها من إخوتي ثمن شقة صغيرة أجعلها معملاً. سأكون الأكثر دقة والأقل سعرًا حتى أمتاز بالمنافسة.

كل يوم أرغم نفسي على التفكير وأجبر نفسي على تعلم المهنة. ولكن.. رائحة المطهرات تلك حين تخالطها رائحة الكيماويات وجو التعقيم، كل هذا يشعرني بالغثيان.

أحاول جاهدًا مقاومة تأففي، أصارح نفسي بأنني لم أعد مدللاً وصرت خشناً بل فظاً من سنوات السجن، وإن لكل مهنة متاعبها. أبتعد أيامًا عن التحاليل لأتحول فقط إلى (سرنجة)، أقضي ساعاتي في سحب عينات الدم من المرضى، أتدرب فيهم على السرعة والدقة وأحاول اكتساب خفة اليد.
أعود لمنزلي كي ألعن الدماء والمرضى والطبيب وزكريا البهنساوي.

أقضى باقي ساعات اليوم على المقهى الذي ألفته منذ خروجى للحرية، أشرب كل صنف في قائمة المشروبات الممهورة بخاتم وزارة السياحة.

أدخن وأتامل سحب الدخان، أنفث حلقاته من بين شفتيّ وأتعلم صناعة أشكال جديدة، أعود منهكًا من الفراغ لأقضي ساعات الليل على سريري متحايلاً على النوم أن يزور جفوني.

أستيقظ مشوشًا في الصباح لأذهب إلى المعمل بذات الخطوة الوئيدة التي كنت أجوب بها (حوش) السجن.

النشاط الوحيد الذي لم أستطع الانقطاع عنه هو ارتياد دور العرض السينمائي ومشاهدة كل فيلم جديد، كان الإنتاج شحيحًا وعدد الأفلام قليلاً جدًا طوال العام فبدأت ارتياد السينمات الفقيرة التي تعرض فيلمين وأحيانًا ثلاثة في الحفلة الواحدة.
هي عبارة عن جراجات كبيرة بها كراسي خشبية مثل المقاهي وتدعي بالبهتان إنها سينمات، أشاهد كل الأفلام المعروضة، وأستأجر فيلم فيديو كل ليلة من النادي المجاور لمنزلي بحثًا عن جرعات زائدة من سحر السينما.

لم أملك الشفاء من إدماني لصناعة السينما برغم الندبة التي تشوة وجهي وبرغم ساقي التي تلهبني آلامها كلما حاولت الهرولة بها.

*****

فى يوم كئيب من أيام زحام الصيف الغارقة في العرق والضوضاء، كنت في طريقي إلى منزل محمد حسن، بالقطع ما كنت أقوى على مواجهة أمه مرة أخرى، فقط كنت أصعد للسطح وأنادي على علي الذي يأتيني متسللاً ليستلم مني المظروف ذاته الذي كانت تسلمه له أمي. أطمئن منه على حاله هو وأخته وأرحل.

هذا اليوم أبلغني أنه نجح بتفوق وقد أصبح في السنة الرابعة، عامان آخران من الدراسة المجدة يفصلانه عن تحقيق حلم أمه وأبيه وأخيه الأكبر، عامان ويصير طالبًا بكلية الهندسة كما كان يتمنى محمد حسن.

أتركه مشبعًا بالرضا وابتسامتي تلازمني طوال رحلة النزول في المصعد العتيق، أخرج إلى الشارع، أرنو لأفيش سينما (مترو) الجديد بغير اكتراث.

فيلم جديد بدأ عرضه منذ أيام قليلة ولم ألحظه لأنني لا أدخل السينما سوى يوم الجمعة، ولكن هذا الأفيش..

ينغرز في عينيّ كدبوس أوديب، ينزع ابتسامتي ليحفر محلها انفراجة ذعر بين شفتين مرتعشتين.

أتأمل الأفيش في جزع وأكذّب نفسي وأنا أقرأه حرفًا حرفًا.

هذه الصورة هي ذاتها، الموضوع لا يحتمل لبسًا، والاسم..

الاسم المكتوب بنفس حجم الخط بعد اسميّ (محمد فؤاد) و(حنان ترك) مباشرة، الاسم الثالث في الأفيش.

النجم المشارك بنفس المقدار أقرأه مرات ومرات، هو ذاته بلا زيادة أو نقصان، (م ح م د هـ ن ي د ي)، اسمه يتصدر أفيش فيلم يبدو رائجًا من مظهر الزحام والتدافع أمام دار العرض، (محمد هنيدي) الذي استدعاه (شريف عرفة) يوم التصوير صباحًا ليكون بديلاً عني في (المنسي).

لقد صار اليوم يحتل جزءًا من الأفيش، والجمهور الخارج من دار العرض يردد المزحات التي وردت على لسانه، هذا الأفيش الذي كان المفترض له أن يحمل اسمي أنا لو عدت لمنزلي سالمًا يوم الحادث.

انتابت الحسرة قلبي وأصابني بعض الدوار.

فجأة تذكرت نبيل ولا أدري لماذا تذكرته في هذا الموقف بالذات واجتاحني شعور ما بالاشتياق نحوه!

بل راودتني رغبة في البكاء، بل العويل أمامه.

نبيل الأكثر بؤسًا وبعثًا للملل فيمن صادفت، أشتاق إليه وأفتقد آراءه الحانقة على كل شيء في الحياة؟!.

يبدو أن حياتي الفارغة من كل شيء قد أثرت عليّ حتى صرت أطلب الصحبة البشرية في هذا الكائن الصموت الملول الذي لا يبهجه شيء سوى أيام الإجازات.

استأنفت المسير هائمًا في الشارع الخلفي عائدًا لمنزلي، كنت دومًا أفضل السير لأنه يستهلك وقتًا أطول وأنا لا أملك سوى الوقت الذي لم تصلح كل الكتب وشرائط الفيديو على إهداره.

إلا أن دار العرض فعليًا تبعد عن بيتي بخطوات لم تكن كافية لأتمالك رباط جأشي.

وصلت منزلي وهرعت إلى الهاتف كي أطلب زكريا، لحظات من الرنين حتى جاءني صوت سكرتيرته معتذرًا بسبب انشغال الأستاذ.

وضعت السماعة وجلست أمام الهاتف أحملق في الفراغ، تعصف بقلبي أعاصير الغضب، كان جليًا أن هذا الفيلم ناجح جدًا من سيل الجماهير المتزاحمة أمام دار العرض، ويبدو أن (محمد هنيدي) قد خلب لبهم في هذا الفيلم، أراهن أن المنتجين سيهرعون نحوه ليجعلوه بطلاً منفردًا لفيلم قادم سريعًا في محاولة منهم لاستثمار نجاحه.

لقد أجاد الاستفادة من الفرصة حين واتته.

حينما أتاه (أوردر تصوير) ليوم واحد فقط، لم يتخلف عنه بسبب أنه كان ملقى مهشما يتلقى العلاج في حجرة مستشفى يقف على بابها جندي حراسة.

حاولت أن أقنع نفسي بأن كل شيء (نصيب) وأن هذا رزقه ورحت أردد كلمات جابر في ذهني (قدرًا مقدورًا).

بحثت حولي عن شيء يشغلني وينفض تلك الخواطر الكئيبة عن ذهني، فتحت موسوعة لوصفات الطهي كنت اشتريتها منذ شهرين وبدأت أجرب منها وصفة جديدة كل مرة.

حينما يقضي المرء ساعات طويلة وحيدًا فإنه يحاول تعلم المهارات اليدوية، وتربية أسماك الزينة وطباعة السيلك سكرين وإجادة الطهي.

كنت أتعلم كل شيء حتى أتقنه تمامًا، أقرأ كل كتاب أصادفه عنه، أشاهد برامج التلفاز، أفعل كل ما من شأنه أن يشغل وقتي.

وبرغم ذلك أظل وحيدًا جدًا جدًا.

لم تسر عني كل أسماك الزينة المتزاحمة في الحوض الكبير الذي استحدثته، ولا كل الكتب المكدسة على أرفف مكتبتي التي صنعتها بيديّ، ولا كل الوجبات التي طهوتها وأكلتها وحيدًا وأنا أشاهد فيلمًا ما على شريط فيديو.

دفنت خواطري تلك في السفرجل الذي أحاول تقطيعه قطعًا هندسية متساوية.

إن ميزة كتب الوصف أنها تقدم مكونات طعام مستحيل أن يجدها أحد في أي مكان، هذا طبعًا إذا عرفت عن ماذا تتحدث.

إن أغلب هذه الكتب العالمية يترجمها مترجمون شوام مستخدمين أسماء للأشياء نجهلها في مصر، وهكذا أقضي الساعات في البحث والتقصي ومحاولات تخمين معنى الإجاص حتى أفهم أنها الكمثرى، فقط لأعرف أن السفرجل هو ثمرة شبيهة بالكمثرى، وهكذا أبدأ في مغامرة طويلة بحثًا عن هذا السفرجل حتى أعثر عليه.

وهكذا أجد يوميًا مهامًا جديدة يلزم لإنجازها الكثير من الوقت والجهد الذي يمنحني بعدها ساعات من النوم المريح.

رن هاتفي وأنا أشق القرع العسلي أو اليقطين كما يصر الكتاب على تسميته، فغسلت يدي تحت صنبور حوض المطبخ وجففتها في مريلة المطبخ التي أرتديها وأنا أهرول نحو الهاتف مثل أي (ست بيت) محترفة. كان زكريا على الطرف الآخر يسألني عن مرادي، طلبت منه هاتف أو عنوان نبيل الأخصائي الاجتماعي بالسجن، لم يسأل كثيرًا، هو غالبًا يتفهم حالة الوحدة التي أحياها ومحاولة البحث عن أي صديق. وعدني أن يحضر لي أية وسيلة للاتصال به عبر معارفه العديدة واطمأن على أدائي في عملي الحالي.

هذا الرجل يفهمنى جيدًا، على ما يبدو هو يعلم أنني سأترك هذا العمل في أى لحظة، فأنا كل يوم أستيقظ صباحًا متأملاً شقتي العامرة بالسكون أكثر من مقابر(العامود) فأقرر الذهاب إلى المعمل لهذا اليوم وتأجيل قرار الاستقالة إلى الغد، أفعل ذلك كل يوم منذ ثمانين يومًا حتى الآن.

١٢

ترتج السيارة كأنها أرجوحة صدئة في مولد (أبي العباس)، تترنح بخشونة على هذا الطريق الطويل، القاسي، المهمل منذ عقود.
رأسى تصطدم كل خمس دقائق بزجاج النافذة المجاور ويصاحبها مرفق جاري البدين وهو ينخر أحشائى في تزامن دقيق.

سيارة متهالكة بدون ترخيص يقودها سائق أرعن تحت تأثير المخدرات، أدعو الله في سري أن نصل سالمين لوجهتنا وأكتشف أنني الوحيد القلق المتذمر بينما باقي الركاب غير مبالين، بل قد يكون بعضهم مستمتعًا بالرحلة!

رحلة طويلة ومرهقة في قيظ الصيف الخانق اللزج بفعل الرطوبة، رائحة عرق الركاب المقززة، رائحة روث البهائم تصاحبنا طوال الطريق، رائحة احتراق الوقود من محرك سيارة أعدمت من السجلات منذ سنين عدة.

*****

بدأت مغامرتي العظيمة من الإسكندرية وحتى مركز (إيتاي البارود) في سيارة (بيجو) تحمل لوحات معدنية ومقاعد مريحة مكسوة بالجلد، ثم في سيارة (فولكس فاجن) عتيقة الطراز بلا مقاعد تقريبا من المركز إلى قرية ما اسمها (الطود) أول مرة أسمع بها، وبعدها في علبة الصفيح المنبعجة تلك على هذا الطريق الفرعي اللعين إلى بقعة ما في الصحراء يستقر بها مركز لرعاية الأحداث.

بعد تقصي زكريا عن نبيل عرف أنه انتقل من سجن (الحضرة) إلى مركز رعاية الأحداث المنفي في مجاهل الأرياف هذا، يبدو أن حذره وقلة حديثه لم يمنعانه من الخوض في حديث ما استحق عليه النقل بصورة عقابية أو (تكدير) بالميري.

وهكذا استغللت أحد أيام العطلات لديّ في نصف الأسبوع وانطلقت باكرًا قاصدًا زيارته.

حقًا قد كان نبيل محقًا في شأن مركزية الدولة، فما إن وصلنا حتى هالني مظهر المبنى البائس المتداعي الذي تبدو مساكن العشوائيات أرقى منه.

هذا المركز القصيّ هو منفى للعاملين به قبل أن يكون كذلك لنزلائه، يبدو معتقلا وليس مركزا لرعاية الأحداث. لم تر عيناي به نافذة إلا وقد تحطم زجاجها منذ دهور، لم أجد به بلاطة في الأرضية سليمة، لا يوجد به رشفة ماء باردة في ذلك القيظ.

إنه ليس عقابًا للأحداث بل تنكيلاً بهم، بل هو تنكيل بكل فرد أمن يخدم هاهنا، فكل العاملين جاءوا مكدرين ليقضوا فترات عقوباتهم هم أيضًا، كل منهم جاء من المدنية الحديثة حاملاً جعبة من المشكلات النفسية إثر هذا المنفى غير الصالح للاستخدام الآدمي.

أخيرًا التقيت به، نبيل رمضان الأخصائي الاجتماعي الذي يبدو دائما سجينًا أكثر من المساجين حوله، بائسًا أكثر من ضابط حديث التخرج جاء تكليفه هنا لأنه بدون واسطة تنقله.

كان نبيل قد اكتسب مزيدًا من الصلع، مزيدًا من سُمك عدستى نظارته، مزيدًا من نفاد الصبر ونظرات الحسرة الزائغة.
لم يرحب بي أبدًا وبدا كارها للقائي كأنني أحد دائنيه، بات يسألني عشرات المرات عن سر زيارتي المفاجئة غير مقتنع بأنني فقط أوده.
يبدو أن وجهي كان يذكره بأيام طالما لعنها دون أن يدري أنها نعمة كان لابد له أن يتضرع إلى الله أن يبقيها، إلا أنه أخبرني في إنهاك عن شيءٍ أثار قنوطي أكثر منه.

قال لي إنه بعد خروجي من (الحضرة) بشهر واحد، شهر واحد فقط. أتى إليهم نزيل غير متوقع، فائق الشهرة، الأستاذ (سعيد صالح) شخصيًا.

كان يقضي فترة عقوبة لمدة ستة أشهر، قضاها في ذات زنزانتي المنفردة بعيدًا عن صعاليك السجن.

كانت فترة إقامته بمثابة نزهة جميلة لكل النزلاء والحراس، فقد كان بشوشًا متواضعًا يمازح الجميع ولا يبخل على أحد بأى شيء، كانوا قد حدثوه عن (الفنان) نزيل الزنزانة السابق وعن التجربة الهزلية للمسرحية البائسة التي حاول تقديمها، فما كان منه إلا أنه تحمس لهم وكوّن من المساجين فريقًا مسرحيًا حقيقيًا هذه المرة، نفذ بهم مسرحية من أدب بريخت لا يذكر نبيل اسمها ولكنه يذكر اسم مؤلفها الغريب على مسامعه.

(سعيد صالح) أتى شخصيًا في ثياب السجن إلى ذات الزنزانة بعدما خرجت، لو كان جمعنا القدر كنت خرجت من السجن على طريق النجومية، فهو أستاذ يدعم دومًا أي موهبة يراها تستحق.

يقول نبيل إن (الأستاذ) جاء في قضية مخدرات ولكنه يظنها ملفقة، يرى نبيل أنها مجرد ستار لصدام سياسى مع الحكومة، يبدو أن هذا ما تحدث به نبيل مع من لا يجب الحديث معه، هذا القول تحديدًا هو ما أتى به إلى هذه الإصلاحية كي يشفى من هلاوسه.

بعدما فرغت من شرب أسوأ كوب شاي في تاريخ مصر المعاصر، بدا نبيل كأنه يطردني، كان بالفعل كارها لكل شيء في حياته، دائمًا هو مرغم على فعل أشياء لا يقبلها، على التواجد في أماكن يمقتها، على صحبة أناس يبغضهم، كان يتمنى لو استقال من وظيفته وسعى في الأرض يتسول لقمة تقيم أوده، يظن أن التسول يحافظ على كرامته أكثر مما تفعل تلك الوظيفة اللعينة.

اقتادني إلى البوابة دفعًا ليتركني أمامها وينصرف في عجالة، لم يصبر حتى أجد سبيلا للخروج من هنا.

تركته وأنا أتنهد، وبدأت السير وسط الرمال الملهبة، تحت شمس الظهيرة النزاعة للشوى، حتى وجدت بعد دقائق من العذاب سيارة كتلك التي جئت بها على الطريق تقلني إلى (الطود).

طوال طريق العودة أتأمل ما حدث، إنها تكرار لذات التجربة، (سعيد صالح) النجم ذائع الصيت كاد أن يكون رفيق الزنزانة.

ماذا لو رآني على (الخشبة)؟ ماذا لو تحدثت معه عن المسرح العبثي؟ إن السجناء لديهم الكثير من وقت الفراغ يشغلونه بأحاديث تافهة، كانت فرصتي أن أستولي على عينيه وأذنيه لشهور.

لو قابلته لاستقام المنطق وصار دخولي لهذا السجن مبررًا، ولكنه حقا توقيت غريب لخروجي ودخوله.

كل خطوة في حياتي تكاد تؤدي إلى نقطة واضحة ومفهومة، ولكنها ما تلبث أن تضيع في الفراغ العبثي مرة أخرى.

١٣

عام كامل يمر عليّ وأنا لازلت منتظمًا في عملى الجديد، منتظمًا في هواياتي الجديدة.

أحاول أن أستأنس سلالات جديدة من الأسماك في الحوض الذي يزداد حجمه مع الوقت، أحاول تعلم الجديد من وصفات الطعام، أتعلم أساسيات الحرف اليدوية، أقرأ مزيدًا من الكتب.

وفى النهاية يقتلني الفراغ وتلتهمني الوحدة.

أراقب عقارب الساعات آملاً في انقضاء الوقت دون أمل في فعل شيءٍ ما مختلف.

في بداية هذا الصيف أتت سمية بزوجها وابنيهما إلى مصر، وجاءوا جميعًا ليقيموا معي في شقة أبينا مما أدخل الحبور على نفسي.

أختي التي أرى في وجهها ملامح أمي، التي تبتسم بذات طريقتها، وهشام ابنها الشاب الذي صار في المدرسة العليا المولع بالتكنولوجيا الحديثة والأفلام التسجيلية، ومروة التي صارت أنثى رائعة الجمال تدرس الفن التشكيلي في جامعة بروكسيل.

كان محسن قد استقر منذ بضع سنين في بلجيكا وهو الآن على وشك أن يكون سفيرًا.

جاءوا جميعًا من أقصى بلاد الغربة ليشيعوا في المنزل الصامت بارد الغرف الصخب والدفء الحميم، جاءوا كي يجعلوني أشعر أنني مازلت حيا وأن هناك من يهتم بأمري ويحبني.
كان محسن قد حضر إلى مصر خصيصًا ليتم إجراءات شراء فيلا عريقة فى(زيزنيا) ويبدأ في تأثيثها وكانت سمية طامعة في بعض أواني أمي الأنيقة والثريات الأثرية وقطع أخرى من الأنتيكات التي تناسب ذوقها.

لم يضايقنى ذلك بل فرحت أنها ستنقذهم من وحدتهم بصحبتي وتضعهم في بيتها الجديد برفقة أثاث حديث الطراز لتمنحهم المزيد من الحياة.
سمية التي تحمل ذات تشريح كف أمي هي الوحيدة التي تستحق أن تعنى بهم وتزيل عنهم الأتربة وتلمعهم لتزيد رونقهم.
قالت إنه باق أسبوع لانتهاء أعمال الديكور في الفيلا وهذا الأسبوع قرروا تمضيته في شاليه عائلة زوجها بمراقيا وأصرت على اصطحابي معهم.
كنت أفضل شاليه أسرتنا في (أبي تلات) لقضاء عطلة الصيف كالأيام الخوالي، ولكن ماعاد شيئا على سابق عهده، فهذا الشاليه قد بعناه بعد وفاة أبي. وحتى إن كان موجودا فما عادت العجمي تصلح مصيفًا هادئًا أنيقًا للعائلات كالماضي.

وهكذا توجهنا جميعا إلى مراقيا - مصيف الأثرياء المستحدث -، كنت أقضى الوقت مستمتعًا بين البحر والجو الصحو، وبين النقاش مع مروة حول (التأثيريين) و(أخوة ما بعد رافايل).
أحيانا يحدثنى هشام عن الكمبيوتر وعن شبكة (الإنترنت) وأهميتها، لم أكن أفهمه كثيرا ولكننى أحاول.
وأظل أنا أحادثهم عن أمى – جدتهم- التي لا يعرفونها حتى يملون أحاديث العجائز تلك كعادة المراهقين في كل زمان.

كانت رحلة ممتعة استفدت بها كثيرا، أعادت لروحي لذة الاستمتاع بالحياة وصحبة الأهل التي كنت نسيت كيف تكون، كان محسن راضيًا عني بشكل كبير، يشجعني على إعداد دراسات عليا في مجال التحاليل الطبية وينصحني بافتتاح معمل خاص بي.

كانت سمية فخورة بأخيها الذي يمتهن الآن مهنة (محترمة) بعدما شفته قضبان السجن من حمى التمثيل وحياة الصعاليك حسبما تعتقد.

مع نهاية الأسبوع عدنا إلى الإسكندرية وأعنت محسن على نقل احتياجات سمية من شقتنا إلى فيلته الجديدة كلاسيكية الطراز التي غبطته عليها ما إن رأيتها.

لم تنس سمية أن تهديني هاتفًا محمولاً، تلك الأجهزة التي بدأت أراها قليلاً في الفترة الأخيرة وبدأت أشاهد إعلانتها في وسائل الإعلام المختلفة، لم أكن أفهم كنهها تحديدا، ولكني صرت الآن أمتلك أحدها ولقد سعدت به برغم أنني لا أعرف أحدًا يمكنني الاتصال به عبره سوى زكريا.

فى الحقيقة أنا لا أعرف أي شخص يمكن أن أتصل به بأي وسيلة أخرى سوى زكريا.

فى نهاية إجازتهم وأنا أودعهم في المطار أخبرتنى سمية أنها تركت لى مبلغ عشرة آلاف جنيه في صندوق مجوهرات أمي، أخبرتنى بذلك وهي تضمني إلى صدرها بحنان فيه نذر يسير من حضن أمي وكان هذا كفيلا بتطهير قلبي من مشاعر اليتم ولو إلى حين.
شكرتها وأنا أغالب الدمع في مقلتاي، ثم عانقت محسن والأبناء وتركتهم يلحقون بطائرتهم وعدت إلى ذات السيارة (الليموزين) كي تنطلق بي نحو منزلى.
في الطريق فكرت في استعمال المحمول لأول مرة، طلبت رقم زكريا فأجابنى على الفور.
وهذة ميزة مهمة جدا لهذا الجهاز، لا اضطر للحديث مع سكرتيرة ولا علي ان اعاود الاتصال في وقت محدد.

كان زكريا في منزله في فترة الراحة بين جلسات المحكمة وموعد ذهابه لمكتبه، دعاني إلى الغداء معه فوافقت على الفور، أقترح على أن اسبقه إلى (بسترودس) ريثما يستعد للنزول، سعدت بذلك فهو مطعم في شارع (فؤاد) قريب من منزلي إلى حد كبير.

*****

على طاولة المطعم جلسنا متقابلين في انتظار وجبتنا التي اصريت ان انبه النادل على ان تأتيني بدون بهارات حارة، إن زكريا زبون دائم في هذا المطعم وأكيد يحضرون له طعاما حريفا مما يشتهيه.

لفت أنتباهى على الطاولة شكل منديل المائدة (napkin).

كل المطاعم التي ارتادها كانت تطوى منديل المائدة على هيئة الهرم أو هيئة ظرف الخطابات، كانت المرة الأولى التي أرى فيها منديل مائدة على هيئة زهرة متفتحة، كان شكله باعثا للبهجة فاتحا للشهية بشدة.

لاحظ زكريا انبهاري فأنفك يحكي لي عن أشكال مناديل المائدة واحترافية النوادل في طيها في كل المطاعم التي زارها داخل مصر وخارجها.

كان زكريا زبون مطاعم ومقاهي محترف، يعرف من يقدم الأفضل في كل صنف، يرتاد مقاهي في أزقة تحتاج إلى خريطة للوصول إليها، يعرف محلات ألبان تقدم شطائر غريبة حيث كل شيء فيها غارقا في الزبد أو الكريمة.

كان زكريا موسوعة في الأطعمة والمشروبات، غالباً بحكم أنه وحيدا لم يتزوج حتى بلغ السادسة والخمسون على ما أذكر سنه، ولهذا كان يحيا على مأكل العزاب طوال العمر إلا أنه كان شغوفا بالمطاعم، حتى عربات الكبدة يعرف في كل منطقة أين يجد أفضلها وأنظفها.

كنت أراقبه وهو يتحدث معي بلهجة ملؤها الحب الذي – غالبا- بدأت أفهم محتواه الآن.
إن زكريا أفنى عمره في أروقة المحاكم يترافع ويعقد الصفقات ويكدس الأموال من موكليه، لم يجد وقتا ليحب ويتزوج ويأسس أسره، حتى فطن إلى انه قد أصبح كهلا فجأة لا يملك شجاعة اتخاذ خطوة كهذه، لهذا يشعر نحوي بعاطفة الأبوة.
إنها السن التي تمنى فيها أن يكن له إبنا يشرح له اشكال طيّ مناديل المائدة.

حقاً إن زكريا هو الأخر عضوا في نادى البائسين أمثالي.
المحام الثرى ذائع الصيت الذي لا يجد من يجادله في اختيار ربطة عنقه وهو ذاهب للمحكمة صباح كل يوم، يجلس أمامى يثرثر في حماس وهو يتناول المقبلات في انتظار الطبق الرئيس.

١٤

استيقظت صباحا على صوت رنين طويل متصل للهاتف يشي بمكالمة دولية، نهضت ملهوفا وجريت إلى غرفة الصالون كي أرد، لابد أنه رأفت.

بالفعل كان توقعي صحيحًا ووجدت رأفت على الطرف الآخر يزف إليّ بشارة أنه شرع في إنهاء أعماله في كندا ليعود قريبًا كي يستقر في مصر بأسرته، رباه كم أثلج صدرى بما قاله.
صحيح أنه صارم، بارد الأعصاب، متحفظ إلى درجة السماجة كحال كل الغربيين، إلا أنه أخي الأكبر الذي سيكون عونًا لى في اجتياز تلك الأيام الممتدة الخاوية التي أحياها بغير هدف.

فرحت جدًا بالخبر وشرعت في الاستعداد للذهاب إلى المعمل في نشوة.

عام وأكثر من الانتظام في عمل أكرهه قد مضى وأنا لازلت مستمرا، يبدو أنني تغيرت فعلا وأنني قد وجدت سبيلا لقضاء الباقي من سنوات عمرى.

أجلس في الظهيرة أمام جهاز الطرد المركزي (Centrifuge) أحتسي القهوة وأنتظر فصل العينة وأمامي مفكرة صغيرة أدون فيها محتويات المعمل وأحاول حساب تكاليف معملي الخاص وعدد الأجهزة المطلوبة وكيفية تدبر نفقاتها.

حتى سمعت صوته الأجش شديد التميز يأتيني من غرفة الاستقبال وهو يجادل موظفة الاستقبال، خرجت لألقي نظرة فاحصة فتأكدت فعلا أنه محمود كامل، رفيق ليالى الصعلكة وشريك أحلام النجومية البائدة.

عدت إلى الجهاز لأغلقه وخرجت مسرعًا لأجد أحد زملائي قد انتهى من سحب عينة الدم منه.

ما إن رآني حتى تذكرني على الفور وقفز من كرسيه إلى صدري ليحتضنني بقوة وهو يصرخ ويقهقه بصوت جهوري مما أثار حفيظة كل الموجودين.

ولكن هذا هو محمود، مهرج كبير وطفل شقي في كل أفعاله.

اقتدته معي إلى الشرفة بعدما أوصيت له بقدح من القهوة وطفقنا ندخن ونثرثر سويًا ونسترجع ذكرياتنا المشتركة في السعى لدخول عالم السينما.

عرفت منه أنه مرض قليلا في أيامه السابقة وزار طبيبا طلب منه أنه يجرى تحليل وظائف الكلى وأوصى له بمعملنا.

استأذنت ساعة من عملي واصطحبته للخارج كي أدعوه إلى الغداء في مطعم شعبي قريب من المعمل وجلست أتبادل معه ذكريات أثيرة لديّ، خالية من المسامير الطبية وجروح الجبهات وسنوات الذل في السجن.

كان محمود كامل سكندريًا مثلي إلا أنني تعرفت عليه في القاهرة أثناء مشاركتنا معًا في إحدى مسرحيات الفرق المستقلة.

كان شابًا مندفعًا، مفعمًا بالأحلام شديد الإيمان بذاته، يرى في نفسه (آل باتشينو) الجديد برغم موهبته المحدودة، كان نموذجا لكثيرين قابلتهم خلال رحلتي تلك وما كنت أجادل أحدًا منهم في شيء، فقط كنت أسمع وأبتسم، واليوم وهو يحكي لي عن مشروعاته المستقبلية لم أفعل جديدا مازلت أسمع وأبتسم.

أخبرني أنه يسعى للحصول على دور في فيلم (شريف عرفة) الجديد، يقول إنه ينتوي خوض تجربة جديدة كل أبطالها من الوجوه الجديدة. كان محمود يحلم بالحصول على دور مهم في هذا الفيلم، راح يحكي عن آماله العريضة التي كالعادة تفوق إمكاناته كثيرا. بعد انصرافه عدت إلى عملي مشوش الذهن، حائرًا، أفكر في ذلك الذي سمعته وأطرد من ذهني فكرة السعى مرة أخرى خلف مهنة التمثيل. يبدو مستقبلي حاليًا مفهومًا مرسوم الخطوات وهكذا أغرقت نفسي بين السحاحات وأنابيب الاختبار وأطباق بتري حتى أتى المساء.

عدت لمنزلي منهكًا بعدما عرجت على (سوبر ماركت) كبير اشتريت منه بعض لوازم الطهو فقد كنت أنتوي تجربة طبق جديد من أصناف الأسماك هذه الليلة.
لقد أجدت طهو أصناف اللحوم جميعها وكذلك الدجاج والدواجن المختلفة وبدأت الآن في محاولة إجادة أصناف الأسماك والمأكولات البحرية، بعدها سأشرع في إتقان صناعة الحلوى بشقيها الشرقي والغربي.
لقد وضعت لنفسي منهجا للتعلم والتزمت به وبدأت أجني ثماره بالفعل، إن قائمة الوجبات التي أجيد طهوها تطول كل يوم عن سابقه.

إن هواية الطهو هذه من أفضل الهوايات التي مارستها وقد استمرت معي وقتاً طويلاً، أنني أستمتع بمذاق كل وجبة تصنعها يداي حتى بت أتفوق على طهاة المطاعم الكبرى في بعض الأصناف، إن الطهو في الواقع هو عملية إبداعية خالصة تحتاج إلى موهبة وذائقة فنية وبعض الحدس.

يبدو أن هذا ما جعلني أتمتع بها أكثر من كل الهوايات التي حاولت أن أستنفد فيها وقتي فيما مضى.
غدا سأدعو زكريا على العشاء كي يقيّم هذا الطبق الجديد.

فى اليوم التالي كنت أستعد لاستقبال زكريا مساءً، بدا لى بما أنني قد أنجزت جميع مهام الطهو بالأمس فيكون اليوم مناسبًا للذهاب للحلاقة.

أشرف - الحلاق - هو أول من لاحظ ظهور شعرات بيضاء في رأسى ونبهني لذلك وهو منهمك في حلاقة ذقني.

بعدما انتهى وأنا واقف لأعدل هندامي أمام المرآة العملاقة تفحصت ملامحي بدقة أكثر فتبينت تجاعيد دقيقة تتقاطع مع الندبة الغائرة في جبهتى وتحاول أن تزداد غورا.

تجاعيد شبيه بالتى سكنت جبين محمد حسن في صورته المعلقة على حائط دارهم المتصدع.

خرجت من عند الحلاق مثقل القدمين، فاقد الشهية للطعام، فكرت أن أتصل بزكريا وأعتذر له عن موعد اليوم متحججا بأي سبب واهٍ، لكني تمالكت نفسي وحاولت أن أفكر جديا في مستقبلي المهني وأنا أسير الهوينى في شوارع المدينة متناسيًا سنوات عمري التي سرقتها جدران الزنازين.

١٥

تتوقف سيارة الأجرة التي أستقلها أكثر مما تسير، أستمر في تدخين السجائر الواحدة تلو الأخرى من شدة الملل، أشعر وكأن كل سيارات مصر قد جمعت لتتكدس الآن على كوبرى (أكتوبر).
أتأمل السماء الصافية من الغيوم فلا أتبين قرص الشمس برغم ذلك الجو الصحو.

طالما شعرت أن القاهرة تمتاز عن كل مدن العالم بأن لها سقفًا شاسعًا يعزلها عن السماء، مدينة عجوز أنهكها القبح والزحام وعشوائية التخطيط، لا يتبين في سمائها شمس بالنهار ولا قمر بالليل، فقط سحابة سميكة شاسعة من التلوث كأنها غلاف جوي مفصل قدر مساحتها.

قد صدق توقعي السابق وأنا في طريقي إلى علي منذ يومين، شاهدت على واجهة سينما (مترو) أفيشًا لفيلم جديد ساحق النجاح.
فيلم البطولة المطلقة الأولى لـ(محمد هنيدى)، بمشاركة ممثلين لا أعرف أغلبهم يبدون جميعًا حديثي العهد بالسينما.

لم أحتمل مزيدًا من الحسرات الصامتة ولا أعرف ماذا دهاني فعليًا وكيف اتخذت قرارى فجأة، فقط أعرف أنني استيقظت صباحا لأجدني أتوجه إلى (محطة مصر) وأحجز تذكرة في أول قطار متجه للقاهرة بدلا من الذهاب إلى عملي.

يبدو أن قوة احتمالي قد انهارت تحت ضغط رائحة الصبغيات الكيماوية بعد الشهر السابع عشر.
لم أطق ساعة أخرى أرتدي فيها المعطف الأبيض وأسحب الدماء من عروق المرضى كأنني (دراكيولا) معاصر في أحد أفلام هوليوود الرديئة.
لم أبلغ مدير المعمل بغيابي، فليذهب إلى الجحيم هو ومعمله ووساطة زكريا ورضا سمية، إن روحي تنفد مني قبل أن أستعملها وأحيا بها يوما واحدًا كما أريد.
لقد واجهت في السابق أبشع كوابيسي كي أحقق مأربي وأصير ممثلا سينمائيا، والآن لم يعد لديّ ما أخشى فقدانه.

"لا أملك شيئاً سواك" قالتها (ويتني هيوستن) قبل أن أتلقى خبر وفاة أمي، الآن وقد رحلت أمي صرت لا أملك أى شيئاً على الإطلاق، فلأستمر إذن في طريقي رغما عن كل شيء محاولا امتلاك ما أتمناه.

ما إن وصلت إلى (رمسيس) حتى استوقفت سيارة أجرة وطلبت من سائقها التوجه إلى حي (المهندسين) حيث مكتب (شريف عرفة).
لقد كنت اكتشافه منذ بداية مشواري الفني ومشواره كذلك، قد راهن عليّ من قبل مرتين، مرة خذله القدر فيها، ومرة خذلته فيها أنا، سأحاول استجداء عطفه ليمنحني فرصة أخيرة معه، (التالتة تابتة) كما يقولون، من حقي أن أنال فرصة في فيلمه الجديد.

سمعت أنه سيستعين بممثلين ربما يقفون أمام الكاميرات للمرة الأولى، وأنا لديّ بعض الخبرة التي تزكيني عنهم، لا أجد ما يمنع أن يمنحني دورًا محوريًا في الأحداث أيًّا كان حجمه.

لقد صار (شريف عرفة) خلال الأعوام الفائتة اسما له ثقل شديد في المجال السينمائي، وذاع صيته حتى أن رجل الشارع بدا يألف اسمه وهو شيء نادر الحدوث في مصر ومكانة ربما لم تتأتى سوى لـ (صلاح أبو سيف) و (يوسف شاهين).
حتما فيلمه الجديد سينجح نجاحًا مبهرا، ويجعل الجمهور يحفظ ملامحي بل ربما اسمي كذلك للمرة الأولى في حياتي البائسة.
كانت تتصارع أفكاري وأنا حبيس فى المقعد الخلفي لسيارة الأجرة العالقة على كوبري (أكتوبر) منذ نصف ساعة بدت كأنها نصف عقد من الزمن.

وصلت إلى مكتبه أخيرًا لأجد ساعي المكتب يقوم بأعمال التنظيف وهو يتمايل مع أنغام موسيقى (فريد الأطرش) المنبعثة من راديو صغير يعلقه على مسمار محوي في حائط المطبخ.

استقبلني في تهذيب يشوبه التحفظ وأبلغني أن الأستاذ لن يأتى اليوم لانشغاله بالتصوير، هززت رأسي متفهما وشكرته وانصرفت وأنا أعلم أنه يكذب بدافع صرف المتطفلين ليس أكثر.
وقفت على باب العمارة الخارجي أمسح الشارع بنظري بحثا عن نقطة تصلح للمراقبة حتى وجدت في نفس الشارع مقهى صغيرًا يبعد عن مدخل العمارة بضعة أمتار ويكشف مدخل العمارة الفاخرة للجالسين عليه.

وهكذا جلست وطلبت قدحًا من القهوة وأخرجت علبة سجائري لأضعها أمامي على الطاولة بعدما سحبت منها سيجارة وبدأت أدخن وعيناي معلقتان على المدخل في صبر، سأبقى في مكاني ولو مكثت حتى مطلع الفجر، لن أبرح مكاني حتى أراه وأحادثه وأحصل على فرصة في فيلمه الجديد.
يمر الوقت رتيبا مملا أثناء الانتظار ولكننى صرت مخضرما في هذا المجال، لقد قضيت الستة أعوام المنصرمة أدخن وأنتظر، لن يضيرني بضع ساعات أخرى.

بعد ثلاث ساعات وسبعة أقداح من القهوة وعلبة تبغ كاملة، رأيته يترجل من سيارته متوجها إلى مدخل العمارة.
برغم المسافة وانقضاء الزمن تعرفته على الفور، ناديت النادل ومنحته حسابه وأنا أنهض، أستنشق شهيقا طويلا يساعدني على الاسترخاء وأتحرك ببطء تجاه مدخل اعمارة.

فى البدء حاول الساعي أن يصرفني مجددًا، إلا أنني كنت لحوحًا سمجا أكرر عليه اسمي ليبلغه للأستاذ، أخيرًا ناداه الأستاذ من الداخل كي يسمح لي بمقابلته.

دلفت إلى مكتبه فاستقبلني بابتسامة عملية لا تحمل أى نوع من المشاعر وأشار لي بالجلوس وهو يستقر على كرسي مكتبه الوثير، لم يتذكرني بالطبع ولكني ذكرته بنفسي جيدًا فبدت ابتسامته أكثر ترحابا وطلب لي قهوة إلا أنني رجوته أن يعفيني من قرحة المعدة التي باتت وشيكة بعد كميات القهوة التي جرعتها طوال هذا اليوم.

كنت أعرف طبعه العملي الذي لا يحب إضاعة الوقت في المقدمات، دائما كان يفضل الدخول إلى لب الموضوع دون تفاصيل تمهيدية، وقد كان.

في جملتين فقط حكيت له ما حدث سابقا ثم طلبت بعدهما مباشرة أن يمنحني فرصة للتقدم في اختبارات الأداء التي يجريها لاختيار طاقم العمل، لم أطلب تزكية مباشرة منه فقط طلبت فرصة عادلة مثل الجميع.

نظر لي مليا وهو يتراجع بكرسيه إلى الخلف ويعدل من وضع ساقيه ثم شرع في الحديث، كان مجاملا في حديثه إلا أنه قاطعا يصدمني بالكثير من الحقائق في صيغة شديدة التهذيب.

ولكن الصيغة لم تهمني بعدما أحبطني المضمون.
صارحني بأن الأدوار لمجموعة شباب في بدايات العشرينات من العمر، وأنني في (مرحلة عمرية) لا تناسب الدور، ألمح في حرج إلى ندبة جبهتي التي أفسدت صفاء وجهي.

حمدت الله في سري أنه لم يعلق على لياقتي وحركة مفاصلي كذلك، بعدما اعتذر لى بشدة منحني وعدًا بفرصة أخرى في أعمال قادمة إن شاء الله، كان سيهم بالأشارة لى بالانصراف وبالفعل كنت أستعد لذلك لكنه وقف قليلا وهو يتطلع إلى عينيّ مليًا، غالبا رأى في نظرتي الطويلة شيئا لا اتبينه.

تحرك من مكانه وجلس على الكرسي المقابل لي أمام مكتبه، مال بجسده نحوى وهو مازال محدقا في عينيّ حتى ارتبكت، ثم فتح فاه بلهجة هادئة، حذرة تختلف عن سابقتها ليسألنى:

- إنت ليه لسه عايز تمثل يا نادر؟

فاجأني السؤال وأنا أنظر لعينيه المتقدتين ذكاءً، محاولا استنباط الجواب الذي يريده مني، إلا أنه لم يمهلني وقتا للتفكير واستطرد على الفور:

- أنت طول عمرك بتكافح عشان تمثل.. بعت كل حاجة ووقفت قصاد كل الناس عشان كان ده حلمك.. بس عمرك سألت نفسك إن كان حلمك ده هو سكتك الحقيقية ولا لأ؟!

شدهت هنينة وتلعثمت في النطق حتى قلت بوضوح :

- مش فاهم حضرتك تقصد إيه بالظبط ؟!

قال:

- انت اشتغلت معايا قبل كده ف تجربة صحيح بحبها لكنها للأسف كانت مؤذية لكل الناس اللى فيها.. بس المهم اننا كلنا عديناها وحققنا نجاحات بعدها.. إلا أنت.
أنت دخلت بعديها في تجارب اسوء منها صح؟

"صح". قلتها والقلق ينهش أعماقي، ترى ماذا يحاول أن يقول؟

- شوف اعتبر الدنيا دي زى الفيلم بالظبط.

سحقا إنه يطرح نفس قناعاتي، فلأنصت جيدا إذن لأنني أظن أن الكلمات التالية ستكون باهظة الثمن.

وهو يكمل: مفيش حاجة في الفن بتتقدم مجانا.. لازم كل مشهد في الفيلم.. لأ كل (راكور) في المشهد لازم يكون بيدي للمشاهد معلومة.. بيوصل رسالة صغيرة.. بيرسم خط في الصورة يتحط جنب أخوه عشان في النهاية تظهر الصورة الكبيرة واضحة لعين المشاهد.. فى الدنيا بقى مفيش حاجة اسمها صدفة.. كل حاجة قدر وليها سبب مهم.. ممكن نكون أحنا منعرفش السبب وممكن نعرفه.. بس حكمة ربنا بتسبب الأسباب وترسم أقدار البشر.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ إن (شريف عرفة) يجلس أمامي ليكشف لي حقائق مستغلقة عني تماما وإن شعرت بها من قبل، يردد ذات المعنى للآية التي تلاحقني منذ سنوات.

وشريف يكمل:

- إنت كنت ماشي في سكة التمثيل ومعاند فيها.. مغمي عينيك ومش عايز تشوف غيرها.. عشان كده ربنا قدرلك الحادثة اللي عملتها دي.. عشان يطلعك من (التِراك) ده لأنه مش بتاعك.. ربنا بيمنعك من الأستمرار في طريق مش هتوصل فيه لحاجة. انسى التمثيل يا نادر.. مش سكتك.. وروح دور على طريقك الحقيقي.. دور على نفسك في مجال تاني.

تصطرع الأفكار في رأسي وأنا أحاول جاهدا استيعاب كل ما قيل وربطه بما حدث.

ربت على كتفي مشجعا، وخرج من مكتبه ليعود إليّ حاملا بنفسه كوبا من عصير الليمون البارد، تناولته في صمت وقد ألجمتني الصدمة عن شكره.

جرعت جرعتين ووضعت الكوب أمامي وأنا استجمع شتات فكرى وأسأله:

- تفتكر محمد حسن مات كده ليه طيب؟

ضحك في سخرية وهو يسألني:

- محمد حسن مين؟

اعتذرت له وقد تذكرت أنه لا يعلم شيئا عن ملابسات الحادث، فقط يعلم مثل الجميع أنني انقلبت بسيارتي ليس أكثر.

أجابني في لطف قبل أن أشرح شيئاً:

- عموما.. مهما كان هو مين.. فهو مات لأن عمره انتهى. ولو كان موته دراماتيكي حسب ما فهمت من سؤالك.. فأكيد مات لحكمة ربنا وحده اللى يعرفها.. ما تنساش يا نادر.. مفيش حاجة في الكون صدفة أو عبثية.. مفيش حاجة اسمها هي كده.. كل حاجة ليها سبب عند ربنا بيشكل صورة أكبر من ادراكنا.

قلت في سخرية:

- زى المخرج ما بيصور كادرات بطريقة هو لوحده اللى فاهم ايه لزمتها ومحدش من الممثلين فاهم هو عايز ايه.

أشار بيده موافقا وقال:

- يعني.. هى حاجة زى كده.

ثم مال نحوي وهو ينظر لي نظرة عتاب ولم ينطق لكنني فهمت، استأذنت ونهضت منصرفًا وأنا أشكره كثيرًا على ما فعله من أجلي.
استشعر الصدق في كلماتي وأنا أصافحه على الباب منصرفا، بدت الدهشة على وجهه ولسان حاله يقول "ولكنني أعيدك خالي الوفاض"، إلا أن كلماته كانت مفصلية وعلامة فارقة في حياتي لأبعد مدى، لقد قال في ربع الساعة ما لم أستوعبه طوال ست سنوات.

(قدَرًا مقدورا)..

حقا لو لم يهلك محمد حسن تحت عجلات سيارتي أنا تحديدًا لكان مصير أخيه مثل مصيره هو، وكانت أخته المتزوجة حاليا لازالت تدخر ثمن شوارها البسيط.
لقد كان بلاء موته سبب عطاء لأسرته متمثلا في أمي التي كانت تمنحهم شهرية تفوق راتبه ثلاثة أضعاف على الأقل، بخلاف المساعدات الأخرى.

جاء موته بيدى أنا بالذات حتى أمكث في السجن فترة تكفي أن تحد رعونتي وتقتل طموحي في النجومية الزائفة.
فترة تمنحني وقتًا أتأمل نفسي وأحاول فهمها وتقويمها.
أنني نسخة أخرى من محمود كامل ولم أكن أشعر بذلك، حتى جرح جبهتي المقيت جاء لنفس السبب، لكي أصرف النظر نهائيا عن هذا الطريق.
بالفعل كما قال العبقري (شريف عرفة)، أنا أسير في مسار غير الذي خلقت من أجله، وكان تدخل القدر حاسمًا ليقطع عليّ الطريق بعدما فشلت في ترجمة إشارات الله لي من قبل.

أنا لا أعرف ما هو مساري الصحيح ولكنى سأكتشفه بالتأكيد، سأخرج في رحلة البحث عن الذات كما عنون (السادات) الكتاب الذي يحوى مذكراته.

اليوم لأول مرة يكون لديّ شبه يقين بأنني فعلا لم أخلَق للتمثيل، وأن موهبتي كانت أقل كثيرا من تطلعاتي.
حمدًا لله أنني أدركت ذلك حتى وإن أدركته بعد فوات الأوان.
هل سيدرك محمود كامل نفس الحقيقة في وقت ما هو الآخر؟
وأنا.. إن لم أخلق للتمثيل ولم أخلق للكيماويات كذلك، فلماذا خلقت؟ ما هو طريقى الذي لا بد أن أمشيه وصولا لحقيقتي؟

كانت تنتابنى ذات حيرة (جعفر الراوي) بطل فيلم (قلب الليل)[1]، ما كان ينقصني سوى التأثير الضبابي للرؤية حتى تكتمل صورة الشتات كما صنعها (عاطف الطيب).

هل أستمر في الضياع لآخر أيام عمري كما فعل (جعفر) حتى ينتهي بي المطاف بالجنون مثله؟!

[1] بطولة (نور الشريف) إنتاج عام ١٩٨٩عن رواية (نجيب محفوظ) التي تحمل نفس الاسم.

١٦

لم أعرف كيف قادتني قدماي إلى (رمسيس) وكيف قطعت يدي التذكرة وكيف استقرت مؤخرتي على مقعد القطار.

عم جابر، نبيل، شريف عرفة.. كلهم قالوا نفس الشيء، أكثر من مرة.

حقًا هو ليس اتجاهي وقد أيقنت ذلك ولكن..

ماذا أملك أن أفعل؟ أين يمكنني البحث عن ذاتي؟ كيف سأقضي أوقات العدم القادمة والتي ستتضاعف حتما بعدما تركت المعمل؟ سأدخن ألف علبة سجائر وأجرع ألف قدح قهوة وأجرب ألف صنف جديد من الأطعمة، وفي النهاية لن أفعل شيئًا سوى البقاء حيًا بدافع الغريزة كما تفعل الحيوانات في البرية.

كل يوم سيمر عليّ كسابقه، لن يختلف الغد عن الأمس، مجرد حاضر طويل ممتد بلا نهاية يمضي بدون هدف.

"إلى النهائية وما بعدها"

جملة وردت على لسان (باز يطير) في فيلم الرسوم المتحركة الأشهر (قصة لعبة).

ابتسمت في سخرية من تذكري لهذا الخاطر المضحك.

كان القطار قد تحرك ولا أدري أين وصلنا، لم يشغلني ذلك كثيرًا، فقط نهضت من مقعدي قاصدًا عربة (البوفيه) كي أدخن قليلاً، وربما أتناول كوبًا من الشاي كذلك، إنهم لا يقدمون القهوة في القطارات ولا أدرى لماذا.

وصلت إلى (البوفيه) مترنحًا بفعل حركة القطار، واستقررت بجوار النافذة لأنني لم أجد مقعدًا خاويًا فيها، طلبت الشاي وطفقت أدخن وأتأمل سحب الدخان الخارجة من فمي وأنا أعيد التفكير مرات ومرات في حياتي.

منذ المدرسة الإعدادية وأنا لا أرى نفسي سوى ممثل، أرسم في كراساتي أفيشات أفلامي المستقبلية، أشاهد أداء الممثلين على الشاشات وأفكر كيف كنت سأفعلها لو كنت مكانهم.

اليوم وقد جاوزت الثلاثين بعامين وأكثر كيف لي أن أرى ذاتي في شيء آخر، كيف أبدأ حياة جديدة في سن كهذا.

قد صرت كهلا بدأت الشعيرات البيضاء تعرف طريقها إلى رأسه، ثم إنني لا أملك أي مهارة من أى نوع وسني لن يسمح لي بتعلم مهنة جديدة، تبًا أنني لفي مأزق يستحق الرثاء.

نقدت نادل (البوفيه) ثمن الشاي وعدت أدراجي إلى مقعدي، يبدو أننا تجاوزنا (طنطا)، لقد انتصفت المسافة إلى الإسكندرية واقترب موعد عودتي إلى منزلى العامر بالصمت والوحدة وصور الموتى المعلقة على الجدران.

فى البدء لم أتعرف على مكاني جيدا لأنني لم أجد مقعدي فارغا كما تركته، ظننت أنني ضللت العربة ولكني تأكدت منها عندما رأيت تلك المرأة البدينة المتشحة بالسواد لازالت تعنف ابنها المذعور على فعل شيء ما.

مذ كنا في (رمسيس) وهى تعنفه وتنهره بلا انقطاع، غالبا هى تنهره آناء الليل وأطراف النهار كذلك، تظن أنها تقوّمه بهذا وهي لا تدرى أنها تنفث فيه سخطها وإحباطاتها في الحياة.

رأيت تلك المرأة المعقدة وابنها الذي سيشب حتما مشوها نفسيًا فتأكدت أنها عربتي، ثم فطنت إلى أن هناك من احتل مكاني ريثما أنا في البوفيه.

كان جاري في المقعد هو الآخر غير موجود، غالبا نزل في (طنطا) وترك مقعدين فارغين فاحتلهما راكبان آخران.

كان أحدهما كهلاً وقورًا يرتدى بدلة كاملة وربطة عنق أنيقة ويقرأ جريدة مطوية بين يديه، وعلى المقعد الآخر كانت هناك فتاة متكورة على نفسها تغط في النوم وقد تلحفت بوشاح عملاق غريب التصميم والحجم، لا يصلح ليكون أي شيء آخر سوى ما هو عليه بالفعل، مجرد غطاء مخصص للمسافرين.

لم أر شيئا مثله من قبل سوى في الطائرات، هل تظن أنها في طائرة أم تظن أن هذا من مظاهر العصرية و(الروشنة) كما يقولون هذه الأيام.

لم أتبين ملامحها المدفونة تحت الغطاء، اقتربت من المقعد وأبرزت تذكرتي للرجل موضحا رقم المقعد المسجل عليها وأنا أستأذنه أن يترك لى مقعدي، اعتذر في أدب ثم نهض وقد ارتسم على ملامحه الضيق وانطلق بين العربات بحثا عن مقعد خاوٍ آخر.

جلست على مقعدي الذي أجليت عنه الاحتلال محاولا الاسترخاء قليلا، لن يمكنني النوم أبدا بفعل جالونات الكافيين التي تناولتها على مدار اليوم.

بعد لحظات حانت مني التفاتة جانبية نحو المقعد المجاور فلفت نظري قدما جارة المقعد البارزتين في نهاية سروال ضيق من الجينز. كانت قد تحررت من نعليها طلبا للراحة ومدت ساقيها أمامها، استوقف نظرى شكل جوربها الذي لم أر شبيهه من قبل.

كان جوربها يبدو قطنيا لا يشبه جوارب النساء ولا حتى الرجال، بل يشبه جوارب الرياضيين أكثر لكن مظهره هو الغريب بحق، كان يتكون من مربعات مشابكة بشكل زخرفي يحمل كل واحد منها لون مختلف، مربعات تحتوي ألوان الطيف جميعاً في تداخل جذاب.
كانت قدماها انسيابيتا المظهر، دقيقتا الحجم تبدوان رقيقتان يغلفهما في أناقة جورب مبهج الشكل كأنه جورب طفلة في الثالثة.

ابتسمت وانا ارفع بصري لوجهها فلم اتبين شيئا منها بسبب الغطاء المتسترة به، عدت استرخي في مقعدي منصرفا عنها.
بدأ القطار يتوقف فتطلعت عبر النافذة لأتبين لوحة محطة (دمنهور) بالخارج، لقد اقتربنا كثيرا من الديار، إن الإسكندرية هي محطتنا القادمة والمسافة الباقية غالبا يقطعها القطار في نصف الساعة أو اكثر بقليل.

بعدما استانف القطار تحركه نهضت من مكاني لأدخن في المسافة بين العربتين المسموح فيها بالتدخين، انني استهلك وقتا في التحرك داخل القطار حتى أصل لبيتي فقد امتلكني الملل وإرهاق اليوم.
بعدما فرغت من سجارتي نظرت لساعتي فوجدت الوقت لازال مبكرا للعودة لمقعدي فاشعلت أخرى تزجية للوقت.
عدت بعدها لأقضي الدقائق الباقية في مقعدي.
فور ما اقتربت شدهت لمرأى هذا الجمال القابع في المقعد المجاور.
لقد تيقظت الفتاة واستبعدت غطاها بل واستردت حذاءها الذي ووجدته أنيقاً رياضي التصميم إلا أن لونه وردي!!
كانت قد وضعت إحدى ساقيها على الأخرى وبدا وجهها الأشقر وضاء يتلألأ كالبدر وسط إضاءة العربة الخافتة.
فاتنة راقية النظرات واللفتات كأنها أميرة ترقب رعيتها من شرفة قصرها.

جلست جوارها منبهرا بهذا الحسن الذي يفصلني عنه سنتيمترات قليلة.

كنت اظنها طالبة جامعية بسبب قوامها الرشيق وملابسها طفولية النزعة إلى حد ما، ولكن يبدو وجهها أكبر من ذلك بقليل.

ألتفت لها وقلت أول ما خطر بذهني:

- حضرتك كنتي نايمة وانا محبتش ازعجك.. بس ده كان مكاني.

قلتها وابتسمت فابتسمت بدورها وقالت:

- شكراً.

هكذا فقط، هل هذا أخر مدى للحوار بيننا؟!

بحثت في ذهني عن شيءٍ يقال فلم أجد شيئا جديدا مع لهجتها المقتضبه الزاهدة في الحديث.

تنهدت واستقريت صامتا محاولاً تجاهلها حتى وصلنا إلى محطة (سيدي جابر) وبدأت العربات تخلو من ركابها، قليلون من يبقون في القطار إلى (محطة مصر).

وجدتها بالفعل لم تتحرك وبقيت مكانها ووجدت أن العربة تقريبا لا يوجد بها سوى ثلاثة ركاب غيرنا متناثرين بين المقاعد المختلفة، التفتّ إليها مبتسما فنظرت لى بانتباه وترقب.

"تسمحي لي أعزمك على العشا"

هكذا قلتها دون تمهيد.

نظرت إلى عينيّ مباشرة نظرة طويلة، صامتة، خاوية من التعبيرات، ثم نهضت على الفور لتتناول حقيبتها الصغيرة من على الرف، وتتحرك لتجلس في مقعد آخر بعيدًا في آخر العربة دون أن تنطق بحرف واحد.

قمت أنا الآخر في الاتجاه المعاكس لأعود إلى مكاني بين العربتين وأشعلت سيجارة جديدة نفثت مع دخانها شعوري بالخيبة.

يبدو أن اليوم ليس مقدرًا لي الحصول على أي شيء، ابتسمت في سخرية من حالي ووقفت أدخن حتى توقف القطار في وجهته الأخيرة.

ترجلت منه وسرت مجداً على رصيف المحطة حتى بوابة الخروج متوجها إلى بيتي وأنا أفكر في عشائي لهذه الليلة.

١٧

الغيث ينهمر من جديد.

كان مصراعا النافذة يرتجان بقوة تحت وطأة الأعصاير ومفصلات النافذة تئن من الضغط، مصدرة صريرًا معدنيًا جديرًا بأفلام الرعب.

نقرات الندف الثلجية تصطدم بالزجاج في عنف مدوٍ ينذر بتناثره فتاتًا في وجهي، إلا أنه بقى صامدًا يجاهد للبقاء في موضعه ويحجب عني الهول المثلج بالخارج.

لكن السقف لم يكن يملك ذات الإرادة وبدأ يتقهقر أمام كل هذا الفيض من المياه، بقعة داكنة اللون في ركن الحجرة شرعت في الظهور والتمدد تشي برشح وشيك لأطنان المياه الغامرة لسطح المنزل.

وهكذ أتلفع بمعطف الأمطار وأدفن رأسي في القلنسوة الصوفية حتى تغطي أذنيّ، أحمل مظلتي بأنامل يسراي المتجمدة ومسّاحة المياه في يمناي، أستنشق شهيقًا عميقًا باردًا يلهب جهازي التنفسي وأجهز نفسي للمواجهة و..

أخرج للسطح.

أحاول التماسك أمام الرياح الهوجاء التي تسعى لإلقائي من فوق السطح منخفض السور، البرد القارس يجمد أطرافي ويعيقني عن الحركة وأنا أزيح المياه المتجمعة على السطح ناحية فتحة (الميزراب)، مهمة عسيرة أمارسها كل ساعة تقريبًا في محاولة لتقليل الأضرار.

أحيانًا أفعلها بالمناوبة مع (خالد) جاري الجديد ساكن الشقة المقابلة، بالأمس قال لى إنها نوة (المكنسة)، وبرغم كونها في بداية موسم الشتاء إلا أنها تكون الأقوى والأشد فتكًا برغم استمرارها ليومين أو ثلاثة على أقصى تقدير.

كانت من المرات النادرة التي نرى فيها ثلجًا يتساقط من السماء وتقارب فيها درجات الحرارة الصفر، نوة شديدة الأعاصير، أوروبية الطقس تعاند دومًا كل مدرسي الجغرافيا الذين بحت أصواتهم أعوامًا مرددين أن مناخ مصر (دافيء ممطر شتاءً).

هذه النوة الزاخرة بمياه الأمطار لا يمر عام بها من دون انهيار منازل وشلل في الشوارع بفعل غزارة المياه، كثيرًا ما تقتلع أعمدة الإنارة الراسخة من الطرقات لتلقي بها في منتصف الطريق مسببة المزيد من الحوادث، أحيانًا من شدتها في بعض الأعوام كانت تتسبب في كوارث جمة تخرب مدنًا كاملة بفعل السيول كما حدث منذ بضع سنين.

لم أكن أشعر بخطورتها تلك طوال سنوات عمري وأنا في بيت أبي الذي يحتل الطابق الأول من عمارة شديدة العراقة في وسط الإسكندرية تقع في شارع واسع ممهد زاخر بمصاريف المياه.
أما الآن فأنا أقضى ليالي النوة أنضح المياه من على السطح وأدعو الله أن يصمد هذا البيت ولا يتهدم فوق رؤوس جميع سكانه.

كانت شقتي ضيقة المساحة في الطابق الرابع والأخير، وبرغم أنني عملت بنصيحة زكريا وعزلت السطح بالقطران إلا أنه لم يصمد كثيرًا، بدأ الرشح في السقف وأعلى الجدران يفسد الطلاء الجديد، هذا الطلاء الذي يحمل لمسات علي بمشاركة أحد أصدقاء أخيه.
كان زكريا الأجدر أن يجد لي نقاشا محترفا ليدهن الشقة كما فعل مع كل حرفي عمل بعض الإصلاحات والترميم لتناسب سكني فيها، ولكنى اخترت علي كي يحضر لي أحد زملاء محمد حسن القدامى.

لم أناقشه في أتعابه التي طلبها ولم أختبر دقة عمله، فقط اشترطت عليه أن يكون عمله تحت إشراف علي الذي اهتم بالفعل كأنها شقته هو.
كان دائمًا يتطوع لقضاء أي خدمة لي وبأية صورة ممكنة، كان يحبني ويتعاطف معي معتبرًا دوما أن ما حدث هو قضاء وقدر وأنني ووالدتي (ولاد حلال نستحق كل خير) كما يصر على التعبير.

زكريا هو من وجد لي هذه الشقة بما يناسب إمكاناتي المادية، في الواقع كان قد وجد لي أفضل منها كثيراً وبنفس السعر، ولكن في مناطق بعيدة عني وأنا لا أحتمل فكرة العيش بعيداً عن وسط المدينة.

وهكذا بعد الكثير من الاتصالات والبحث والتقصي وجد لى هذه الشقة في أحد شوارع (محرم بك) الفرعية، صحيح أنها في زقاق خلفي، ضيق، مستتر، يقبع داخل أحد الحارات منقطعة الخدمات، المنسية من موظفى الحي، وصحيح أنني أمشي كثيرًا حتى أصل إلى الترام وشارع (محرم بك) الرئيسي، إلا أنني لازلت في وسط البلد بشكل ما ولازلت أذهب سيرًا على الأقدام إلى (محطة الرمل) حيث منزل علي ودور العرض السينمائي وحيث بيتي القديم.

أو مركز (نصار) للأشعة حالياً.

******

شهور طوال قضيتها أنتظر عودة رأفت من الخارج.

أنتظر عناية الأخ الأكبر، أطمع في عطف الأب الذي لم يغنني عنه زكريا برغم محاولاته المستمرة، أحلم بيد الصحبة التي تنتشلني من مستنقعات الوحدة والفراغ والركود.

إلا أن صدمتني بعودة رأفت كادت أن تقتلني من الحسرة، كنت أبدو متماسكًا للجميع إلا أنني كنت أشعر بأعراض الذبحة الصدرية كاملة برغم إصرار الأطباء على أنني بخير.

في بدايات الخريف أتى رأفت إلى مصر محملاً بشهادات الدكتوراه وبرودة الشمال وعملية الغربيين.
جاء باحثاً عن مزيد من الأموال.

لقد قرر رأفت افتتاح أكبر مركز متكامل للأشعة الطبية في الإسكندرية بل ربما في مصر كلها، كان قد اشترى من الخارج أحدث المعدات والأجهزة التي تعينه في عمله الذي لا أفقه فيه شيئًا، أتى كي يستولي على بيت أبي ويبدد كل ذكرى لنا فيه.
كان نصيب سمية القليل وما كانت تحتاج لمنزلنا في شيء وقد صار لها فيلا فاخرة تغلقها لتقضي جل عمرها بصحبة زوجها في بلجيكا، وكان ديني كبيرًا لدى رأفت، وقد أتى أوان الحساب بعد سنوات من الغفلة.

وهكذا..
بعدما استولى رأفت وحده على ملكية المنزل وجد أن لي لديه حوالى ثمانين ألفا من الجنيهات باقي نصيبي في بيت أبي، تطوعت سمية لتكملها المائة ووضعتها في حسابي البنكي.

اقترح عليّ رأفت أن أعمل لديه براتب مغرٍ، كما اقترح على سمية أن تشاركه و يصير هذا المركز هو (عمل العائلة).

إلا أنني رفضت بحزم، لن أقضي وقتي أراقب بيت أبي الذي أهيم بكل ركن فيه وهو يضج بالغرباء الذين ينتهكون جدرانه.
البيت الذي كان يشع برائحة عطر أمي سيشع برائحة المطهرات المقززة، سيتسلل اللون الأبيض المقيت إلى كل ركن مزركش فيه، حتى الجدران سينالها التشوه من كثرة الأنابيب التي ستجرى داخلها.
ستحتل الأجهزة المعقدة أماكن الأثاث الكلاسيكي الثمين، سيعلق على الجدران إرشادات الوقاية الصحية بدلاً من اللوحات الفنية الأصيلة.

وهكذا أنفقت أكثر من نصف ما أملك على شراء هذه الشقة وتأثيثها، فما كانت مساحتها تسع أي قطعة من أثاث أمي الضخم، لم أحمل معي من بيتى سوى حقيبة ملابسى وصورتي أبى وأمي، ومطفأة التبغ النحاسية ومرايا بلجيكية ازدان إطارها الذهبي بالنقوش الفنية التي تحاكي عصور النهضة.

كانت هذه المرايا ملكًا لأحد الأثرياء (الجريك) قبل أن يشتريها أبي ويضعها في ركن صالة الاستقبال، وتركت باقي الأثاث لسمية كي تتقاسمه مع زوجة أخي الكندية التي تتلعثم في نطق أسمائنا.

اقترح عليّ علي أن أشتري سيارة صغيرة أقضي بها تحركاتي ولكنني أبيت، لقد أقلعت عن الشراب والقيادة لحظة أن أفقت في المستشفى مهشماً.
وهكذا احتفظت بباقى أموالى في البنك، كانت فوائدها تتيح لى مبلغاً بسيطاً حاولت أن أحيا به حتى أجد شيئاً أفعله.

لازلت لا أملك أية رؤية لسنواتي القادمة، أقضي الليالي محبطًا مستغرقًا في البحث عن نقطة تصلح للبدء دون جدوى، أنهمك في هوايتى الوحيدة التي تسرّي عني هرباً من كثرة التفكير، أشتري أطعمة من الأسواق، أطبخ أكلات من مختلف الجنسيات، أشاهد كل برامج الطبخ التي تعرض على القنوات الأجنبية والعربية سواء.
أقرأ المزيد عن إعدادات المائدة وطرق طيّ المناديل وتنظيم أدوات تناول الطعام عليها.

أحياناً كنت أهرب إلى السينما لأجلس وحيدًا في الظلام أشاهد الأفلام الجديدة وأتأمل أداء الأبطال المفتعل ثم أعود لمنزلي محملاً بالحسرة والغيرة، كي أدفن أحزاني تحت مزيد من الأطعمة ودخان سجائر (البلمونت) التي تذكرني برائحة نشارة الأخشاب المحترقة وتترك في فمي مذاق الشياط.

١٨

من مزايا السكن على السطح أنه في الطقس الصحو يكون مساحة مثالية للجلوس والاستمتاع بالهواء الطلق ودفء الشمس الحنون، بل يسمح السطح كذلك بإقامة حفل شواء كامل إن أردت.

كنت قد اشتريت شواية تعمل بالفحم وأدوات شواء كاملة أنصبها أحيانًا على السطح وأقوم بشي اللحوم بطرق مبتكرة.

حاولت أكثر من مرة أن أرسل طبقًا شهيًا من صنع يديّ إلى خالد جارى المتحفظ دائما والذي حاولت التودد له كثيراً إلا أنه كان يرفض مخالطتي بتهذيب مغلقاً الباب على نفسه وأسرته التي حتى لا أعرف عددها.

كان يكتفي بتناول الطبق شاكرا مؤكداً كل مرة على أنه لا داعي للتعب، ثم يعيده بعدها مليئاً بالحلوى أو المعجنات منزلية الصنع التي تعدها زوجته، كنت دائماً آخذها في كيس بلاستيكي وأجوب الشوارع بحثاً عن أول متسول جائع أمنحه إياها.

إن زوجته لا تتقن صناعة الحلويات بأي شكل من الأشكال، حتى الكعكة الإسفنجية البسيطة كانت تصنعها متيبسة حادقة المذاق ولا أفهم كيف.

بعد انقضاء النوة بعدة أيام وتحت أشعة الشمس المبهجة قررت أن أصنع أحد أطباق المطبخ التشيللي وهو عبارة عن شريحة لحم (استيك) مأخوذة من منطقة الضلع أو (Rib eye steak) كما قال عنها مقدم البرنامج.

هو طبق غريب المكونات شاهدت طريقة إعداده بالأمس على قناة لبنانية، لم أفهم معنى (صوص دبس الرمان) أو إكليل الجبل الطازج لكنى اعرف أين أجدهما.

وهكذا ارتديت ملابسي وأحضرت مفكرتي التي أسجل فيها مقادير الاصناف الجديدة وتوجهت إلى ميدان (الرصافة) حيث أقرب فروع سوبر ماركت (فتح الله) وهي سلسلة متاجر متعددة أجد فيها كل مكونات الطبخ التي أشاهدها في التلفاز، دائماً أجدني أبحث عن أشياء غريبة الأسم وأكون أنا الزبون الوحيد الذي يشتريها.

وجدت زجاجة دبس الرمان هذا وكانت باهظة الثمن إلى حد ما، إلا أنني لم أجد أكليل الجبل الطازج ولكن البائع أخبرني أنه نوع من الخضراوات يشبه (الشبت) وليس من العطارة المجففة، فكرت أن أستعيض عنه ببعض البقدونس إلا أنني تراجعت عن الفكرة وأكتفيت بباقى المكونات.

سأعود لمنزلي كي أعد مكونات التتبيلة وانقع شريحة اللحم بها حتى الغد كما قال الطباخ الفرنسي النحيف في أحد البرامج سابقاً:
"أن أفضل نكهات الشواء نحصل عليها بعد مرور ثمان ساعات في التتبيلة، ليس أكثر من هذا".

كنت أتطلع إلى المعروضات محاولا البحث عن أية منتجات في عروض الخصومات تصلح لي حتى تسمرت في مكاني مشدوهًا وأنا أرى الفتنة تتجسد أمام ناظري من جديد.

أمام أحد الأرفف أراها تتطلع للمعروضات ويدها تحمل الصندوق البلاستيكي الصغير الخاص بالمشتريات الخفيفة.

كانت تمد نحو رف مرتفع كفاً شديد الرقة، تبرز عروقه الزرقاء الدقيقة من تحت بشرته الملساء وفي مقدمته أصابع انسيابية التكوين، بلورية المظهر، تتوجها أظفار براقة نظيفة من الأصباغ.
كانت قصيرة إلى حد ما والرف بعيد المنال، لم تجد حولها من يساعدها من عمال المتجر.
بلا وعي هرعت نحوها عدوًا حتى ألتقطت بيدي الزجاجة التي كانت تتلمسها أناملها وتعجز عن القبض عليها، ناولتها إياها وأنا أبتسم في لهفة ولم أنطق.

كانت أكثر جمالاً وإشراقاً من ذي قبل، يتلألأ وجهها البراق في الإضاءة الساطعة للمتجر أكثر مما كان في إضاءة عربة القطار الخافتة، تصفف شعرها الأشقر الداكن القصير حول وجنتيها ليحيطهما من الجانبين بأسلوب (كاريه ألا جارسون) الذي تظهر به (جيليان أندرسون) بطلة (The X Files).

تناولت مني الزجاجة التي لاحظت أنها (خل التفاح) ونظرت إليّ نظرة طويلة خاوية كما فعلت من قبل، دوما ما تكون نظراتها (معقمة) بلا أى تعبير، وكما توقعت بالظبط تركتني لتتحرك فوراً في اتجاه الخزينة كي تدفع حسابها وتنطلق للخارج.

لم أتراجع هذه المرة كسابقتها وأصررت أن ألحق بها، تبعتها ووقفت في صف الخزينة أنتظر دوري وكانت هي تسبقني بشخصين.

لم تلتفت إلى الخلف ولا مرة، أنهت حسابها وتناولت حاجياتها وخرجت من الباب في شموخ الملكات، بعدما انتهيت هرولت نحو المخرج كي ألحق بها، رأيتها أمامى تقفز في سيارة رياضية صغيرة وتنطلق قبل أن ألحقها، تبًا لم أجد الوقت كي أنطق بكلمة واحدة إلا أنني ميزت لوحة السيارة المعدنية والتقطت رقمها ودونته في مفكرتي بجوار مكونات طبق ما لا أذكره.

تحركت ناحية منزلي وأنا أطلب زكريا في الهاتف المحمول، لم يرد فورًا ولكن بعد دقائق وجدته يطلبني، سألته عن مواعيده اليوم فوجدته مشغولاً فدعوته على الغداء بالغد ووعدته بشريحة (استيك) حريفة لم يتذوق مثلها من قبل.

لم يتردد فى قبول الدعوة فقط أرجأها للجمعة بعد الغد وحدد لي ساعة قدومه وهكذا انطلقت إلى الحاج عبد الصمد - الجزار الذي يجاور منزل أبي ويوفر لي كل قطع اللحوم التي أطهوها –، حينما وصلت له طلبت منه إعداد قطعة أخرى من الاستيك من أجل زكريا وطفقت أنتظره.

رانت مني نظرة إلى اللافتة العملاقة التي تحمل اسم رأفت والمثبتة على شرفتنا القديمة، يبدو أن عمل رأفت مزدهراً وأن المرضى يتهافتون عليه من كل أنحاء البلاد، بل لقد وجدت كذلك عرباً يخرجون من باب العمارة ويحملون حافظات أوراق تحمل شعار المركز، تنهدت وانتبهت للحاج عبد الصمد وهو يناولني قطعة اللحم ويربت على كتفي قائلاً في لهجة مواسية:

– الله يرحم الدكتور والدك، كان أحسن زبون عندى وأنت اللي ورثته ف كل حاجة، ربنا يكتب لك الصالح ف الدنيا يا دكتور.

ابتسمت وحييته منصرفاً، كان يصر على أن يناديني بلقب (دكتور) رغم أنني حاولت إقناعه من قبل أنني كيميائي ولست طبيباً ولكنه كان مصراً على أن يعاملني دوماً كما كان يعامل أبي، حتى أنه كان يصر أن آخذ ما أريد وقتما أريد وأحاسبه بنهاية كل شهر كما كان يفعل أبي معه.

اجتررت ذكريات أبي وأنا أسير مبتعداً من أمام منزلنا، أصابني الضيق مما أصبحت عليه، وحيداً بلا أهل ولا حتى منزل مزدحم بتذكاراتهم، بلا هدف ولا مال ولا عمل أتقنه، حاولت أن أفكر في عمل يثير شغفى للمرة الألف ولم أجد، لازلت أكره كل ما يمت للكيمياء الحيوية بصلة وأعشق التمثيل بجنون، ولكنه حب من طرف واحد، رغم يقيني أنه ليس مكانى بالفعل إلا أنني لم أعرف لى مكاناً سواه بعد.

١٩

منهمكاً في تحريك المروحة لأزيد من اشتعال الفحم وأنا أراقب درجة نضج شريحتي اللحم السميكتين المفرودتين على الشواية بينما يرن هاتفي المحمول طويلاً ليربكني.
تناولته لأجيب الطالب وأنا لازلت مستمرًا في عملي، وجدت رأفت على الطرف الآخر يدعوني للغداء معه يوم الجمعة المقبل، حاولت التنصل إلا أنه أصر ولم يتركني حتى وعدته بالحضور.

أغلقت الخط في حنق ومددت يدي بالماسك كي أقلب اللحم، لم أعد أرغب في التعامل مع رأفت بعدما اغتصب مني بيت أمي وأبي، وساعدني طابعه الغربي البارد في ذلك كثيرًا مما قلل محاولات تودده وتدخله في حياتي، إلا أنه أول مرة يدعوني للغذاء في بيته، دومًا ما كان يدعوني لزيارته في عمله، يبدو لقاءً غريبًا لا أستبعد فيه محاولة جديدة منه لإصلاح شأني الذي يراه بائساً.

أتاني صوت زكريا وهو يناديني بصوت متهدج وأنفاس متقطعة إثر صعوده على السلم لينقذني من خواطري الباعثة على الاكتئاب، هرعت لاستقباله على السطح مباشرة، صببت له قدحًا من الماء فتناوله لاهثاً.

كنت قد أعددت الطاولة باحتراف جدير بمطاعم النجوم الخمس، طويت مناديل المائدة على شكل التاج الملكي هذه المرة فهو لم يره على طاولتي من قبل، ونشرت أطباق المقبلات وعلبتي الملح والفلفل الأسود الخزفيتين في منتصف الطاولة بجوار سلة الخبز، ماعاد ينقص المائدة سوى الطبق الرئيسي الذي شارفت على إنهائه.

جلس زكريا ليستأنف لهاثه وهو يمتدح أسلوبي في إعداد المائدة بينما أتيته بطبقه مزداناً بالخضروات التي تزين حوافه وتحيط بمكوناته كي تكتمل الصورة.

إن متعة الطعام ليست في تناوله والتمتع بمذاقه بقدر التمتع بطقوسه..

تفاصيل المائدة، نسبة تقارب شوكة المقبلات الصغيرة من شوكة (الروستو) الأساسية الكبيرة، كمية المياه التي يحتويها الكأس ومسافة بعد سطحها عن الحافة، كل ذلك ما يميز فخامة تقديم الطعام.

مشهد الطبق وهو مزدان بالزخارف وتقطيع ثمرة الطماطم على هيئة زهرة متفتحة هو ما يجعل من الطبق لوحة فنية جديرة بالتأمل.

"العين تأكل قبل المعدة" هكذا يقول اليابانيون.

جلسنا متواجهين نستمتع بمذاق اللحم الحريف، وهو ما خلب لب زكريا، إنها وصفة من بلاد الفلفل الأحمر، بلاد كل طعامها مشبع بالبهارات الحريفة.

كنا نثرثر أثناء الطعام وفى الخلفية موسيقى (ألف ليلة ولية) بدون صوت أم كلثوم تنبعث من جهاز الكاسيت الذي أضعه على سور السطح المنخفض.

يسألنى زكريا عن محاولاتي في البحث عن عمل مناسب وعن طرق تدبيري لنفقاتي بدخلي المحدود.

أجاوب باقتضاب وهو كذلك لا يسأل كثيراً فهو أكثر شخص دراية بشئوني وغالباً يسأل من باب الثرثرة فقط، إلا أنه لم يكن مجرد حديث مستهلك كما بدا ظاهريًا، لقد وجدته يسألني عن إمكانية استثمار أموالي بدلاً من تركها في البنك.

كانت لديه فكرة تناسبني إلى حد بعيد، كان زكريا يعرف الكثيرين من السائقين وملاك سيارات الأجرة كعادته في معرفة كل شيء بحكم عمله، يقول إن المبلغ المتبقي في البنك يكفي لشراء سيارة أجرة وتسليمها لسائقَين أحدهما يعمل صباحًا والآخر مساءً وكل منهما يعطيني مبلغاً محدداً من المال كل يوم بمثابة إيراد السيارة.

كان هذا هو النظام المتبع كما فهمت منه، وكما فهمت أيضًا أنه يعرف من أين يشتري ومن يعينه في هذا العمل بل لقد فوجئت أنه يملك بعض السيارات هو نفسه كما أنه يعمل في مجالات متعددة بخلاف المحاماة فهو يستمتع حقاً بجمع النقود كما يهوى البعض جمع الطوابع التذكارية.

وافقت على الفور فأنا في أمس الحاجة إلى المال خصوصاً أنني لن أفعل شيئًا تقريبًا، هو سيفعل كل شيء عن طريق أحد المحامين الذين يعملون عنده والذى يبدو أنه لا يعمل لديه كمحام قدر ما يعمل وكيلاً لأعماله.

فكرة جيدة ومناسبة تماماً برغم أنها لن تشغل أي مساحة من وقتي وستبقيني كما أنا عاطلاً عن أى نشاط في الحياة فيما عدا الأكل والتدخين إن كانت هذه تعد من الهوايات.

ولكن هذه الفكرة ستحقق لى دخلاً أكبر بكثير من عائد البنك، سأملك ما يكفى لشراء المزيد من اللحوم والأسماك والتوابل المستوردة النادرة وربما استطعت تدخين نوع أفضل من هذا التبغ الرخيص.

وهكذا اتفقت معه على مقابلته بعد يومين في البنك كي أسحب الرصد بأكمله وأضعه بين يديه كي يستكمل خطته، فقط قبل أن يرحل منحته ورقة مطوية فيها رقم سيارة (فاتنة القطار) التي لا أعرف عنها شيئاً وطلبت منه التقصي حول الرقم عسى أن يأتيني باسمها وعنوانها، زكريا يستطيع فعل ذلك بسهولة تامة.

سألني عن الرقم وأهميته فحكيت له بصراحة عن إعجابي بالفتاة التي صادفتها مرتين لم أعرف خلالهما شيئًا عنها سوى رقم سيارتها، حكيت له تفاصيل لقائي الأخير في السوبر ماركت وهو يجلس منصتًا في استمتاع وتناغم لا أدرى هل بسبب ما أقول أم بسبب مذاق القهوة بالحبهان الذي أعددتها له.
فى النهاية وعدني أنه سيأتينى بالخبر اليقين قريباً وانصرف ليلحق بمواعيده، وتركني أبدأ في إعادة كل شئ إلى منزلي.

جلست بعدها قليلا أقرأ عن منهج (الدياليكتيك) فلم أعِ شيئاً من المكتوب وأصابني سأم ثقيل على روحى.
ميزة الفراغ الدائم هى محاولة تزجية الوقت بالقراءة مما جعلني أحتمل إنهاء مئات الكتب السخيفة والمملة في كافة الموضوعات المختلفة، إلا إنني فشلت تماماً في كل ما يتعلق بالفلسفة ولم أجدر على أحتمال كتاب واحد يتحدث عنها حتى غلافه الأخير.

أعدت الكتاب إلى مكانه على رف مكتبتي الصغيرة - صنيعة يدي- المجاورة لحوض الأسماك الذي ازداد حجمه بفضل خبرتي في تنميته.
حاولت البحث عن كتاب آخر فلم أجد فيها جديد، فتحت التلفاز فلم أجد ما يجذبني للمتابعة، أعددت قدحًا من القهوة وجلست أشربه وأنا أدخن حتى فرغت وأنا لازلت أشعر بالسأم.

ارتدي ملابسي وأنزل إلى الشارع، أسير في الطرقات بلا هدف متأملاً واجهات المحال والمعروضات والمارة والسيارات، أتطلع لكل ما يحيط بي، أفكر كيف أن كل هؤلاء يلهثون في السعى.
دائماً هم مشغولون، منهمكون، لا يملكون وقتاً كافياً لقضاء كافة مهامهم الروتينية، بينما أنا لا أملك سوى الوقت والمزيد من الوقت الذي لا أعرف أين وكيف أبدده.
أجد نفسي على مقربة من شارع (النبى دانيال) فأدلف إليه بحثًا عن عنوان كتاب يشجعني على قراءته، أتنقل بين أكشاك الكتب واحداً تلو الآخر، مقلباً في كل كوم من بضاعتهم المرصوصة على الرصيف.
لم يثر حماسى أي شيء مما رأيت سوى كتب الطهي، وجدت لدى أحدهم مجلداً سميكاً باللغة الإنجليزية عن آداب أو (إتيكيت) إعداد الموائد منذ العصر الفيكتوري وحتى التاريخ المعاصر.

أعجبني الموضوع خاصة أن شرح الكتاب مصحوب بصور ورسومات توضيحية وبيانات وجداول حتى بدا وكأنه مجلد عن نظرية اقتصادية وليس عن طريقة رص ملعقة وشوكة وسكين حول طبق واحد!

اشتريت الكتاب وعلبتي تبغ من كشك صغير في طريقي وبدأت أسير في اتجاه العودة لمنزلي آملا أن أقضي باقي ساعات اليوم في الاطلاع على طرق تقديم الطعام عبر العصور.

٢٠

بعد صلاة الجمعة توجهت إلى مكتب زكريا في (كامب شيزار)، بالرغم من كونه يوم عطلة إلا أنه رتب لقائي بشفيع - مدير أعماله – الذي اشتري لى سيارة الأجرة وشرع في نقل ملكيتها وفى غضون أيام سينتهي من تسجيلها باسمي مع تسجيل عقد له يسمح بالإدارة كما يفعل مع أستاذه.

دلفت إلى المكتب واستقبلني زكريا بحفاوة بالغة وهو يعد بنفسه قدحين من القهوة لحين وصول شفيع، خلال تناولنا القهوة أعطانى ورقة مطوية وهو يغمز بعينيه مبتسماً ثم استأذنني ليقوم بإجراء بعض الاتصالات الهاتفية.
عبر سحب الدخان المنبعثة من أنفى شرعت أقرأ البيانات المدونة بخط زكريا النضيد على الورقة التي أحملها بين أصابعي.
"فوزية فؤاد فكري، ٣٩ شارع منشا، محرم بك، ربة منزل"
كانت تلك بيانات صاحبة السيارة التي أعطيت زكريا أرقامها وقد أحضرها لي من معارفه بإدارة المرور بمنتهى البساطة.
"شارع منشا"..
إنها تقطن على بعد دقائق من منزلي الحالي وكذلك على بعد دقائق من (فتح الله) ما كانت حاجتها للسيارة إذن.

غالبًا هى كانت قادمة من مكان ما وقررت شراء بعض البقالة قبل العودة لمنزلها، لا أجد سبباً آخر لذهابها بالسيارة إلى مكان تقطعه في عشر دقائق سيراً أو ربما هي كسولة أو مريضة لا تقوى على السير.

"فوزية فؤاد"ما هذا الاسم العتيق؟!

هل أبوها أسماها على اسم أمه كعادة رجال هذا الجيل؟

ثم ماذا أفعل كي ألقاها؟ حتما سأبحث عن أفضل وسيلة مثلى لاستغلال هذه المعلومات فيما بعد، أما الآن فلألتفت لزكريا الذي أتانى بصحبة شفيع.

قدم كلاً منا للآخر وجلس ينصت بينما شفيع يشرح لى وسيلة المحاسبة وأوقات التوريد وأسماء السائقين اللذين رشحهما للعمل.

لم آبه كثيرًا وتركت الأمر كله بيد زكريا الذي هز رأسه مطمئنًا إياي ودعاني للغداء معه ومع شفيع في مطعم قريب، اعتذرت له بسبب موعدي مع أخي رأفت الذي ينتظرني بصحبة أسرته، فحمّلني سلاماً لأخى ونصحني بالإنصات لصوت العقل الذي يمثله رأفت ثم أذن لي بالانصراف.

يقع منزل رأفت في (سبورتنج) على بعد محطتي ترام من مكتب زكريا، لم أشأ أن أستقل الترام فأخرجت سيجارة وأشعلتها ورحت أسير الهوينى في طريقي إلى بيت رأفت في حنق معدوم الحيلة.

يأتي استقبال رأفت لي من على الباب حارًا، وودًا، يحمل قدراً كبيرًا من احتواء الأخ الأكبر الذي أفتقده، إلا أنني لا أشعر به خالصاً، لازلت أنقبض منه ومن عمليته القاسية وحكمه على كل الأشياء بقيمتها المادية.

على مائدة عامرة بمختلف أصناف الأسماك والمأكولات البحرية نجلس أنا وهو وزجته وابنتاه اللتان صارتا مراهقتين، كانت البنتان تتحدثان الفرنسية ولا تفقهان شيئاً من العربية، كانتا غريبتين عني تماما بعكس هشام ومروة اللذين أشعر معهما أنني بالفعل خالهما وليست قرابتنا مجرد أسماء مدونة في الأوراق الرسمية.

تبدو زوجة أخي التي أنسى اسمها دوما جافة جدا كعهدي بها، غريبة للغاية، باردة الانفعالات بشكل ميكانيكي لا يمت للآدمية بصلة.

جلسنا نتناول طعامنا في صمت، وتأكدت من طعم تتبيلة الأسماك أنها صنعت بأيدٍ محترفة عكس ما كان رأفت يدعي أنها من إعداد زوجته، إن هذا طعام مطعم ما والجهد الوحيد الذي بذلته هي أنها أفرغته في أطباق تقديم ليس أكثر.

ظل رأفت يثرثر عن أحوال العمل وتطور المركز باستمرار، يسألني عن أحوالى في الشقة الجديدة، عن خططي للغد، فأردد دوما"الحمد لله"لا أزيد عنها حرفاً، بعد انتهاء الطعام شكرت زوجته بالفرنسية التي لا تفقه غيرها وتحركت مع رأفت ألبي دعوته لتناول عصير البرتقال في الشرفة.

ذكرته أن عادة المصريين تناول أقداح الشاي بعد الطعام وأنني برغم تأكدي من أنها عادة مضرة بالصحة إلا أنني أمارسها باستمتاع، وأنني أكره عصير البرتقال والرياضة الصباحية والامتناع عن الأكل بعد الثامنة مساءً.

أكره كل ما يفعله مهووسو الصحة وأعشق الشاي والقهوة والتدخين وكل ما من شأنه أن يسد الشريان التاجي ويسبب أمراض القولون.

هكذا على مضض سمح لى بكوب من الشاي إلا أنه منعني من التدخين في منزله (نظيف الهواء).

لم أعلق وجلست بين يديه أتلقى النصح والإرشاد وأنصت إلى (صوت العقل) كما قال زكريا.

لم يكن هناك جديد يقال، للمرة المائة يطلب مني أن أعمل لديه كيميائياً في مركز الأشعة أو في معمل التحاليل الملحق بالمركز أو في أى مهنة تناسبني لديه، يطلب منى أن أعود (نادر) قديم العهد، الكيميائي المحترم ابن (الناس) كما كنت في حياة أبي، يطلب مني أن أكون فرداً نافعاً في المجتمع أؤدي دوراً بناءً.

وأنا أستمع ولا أعلق، فقط أتأمل بعض أثاث أمي الذي استولت عليه زوجته الأجنبية فأجد روحها البليدة قد انعكست عليه، فقد الأثاث رونقه وهيبته التاريخية بسكناه هذا البيت (نظيف الهواء) المعقم من أية مشاعر إنسانية.

طلبت من رأفت أن يتركنى أفعل ما يحلو لى كما تركني من قبل، طلبت منه أن يتركني لحياتي التي اخترتها، أجابني بالموافقة والتشجيع الظاهري إلا أنه سألني عن كنه تلك الحياة، سألني عن مهنتي، عن أحلامي، عن خططي المستقبلة فلم أجب.

طلبت منه الإذن بالانصراف وتحججت بحاجتى للتدخين.
كان عقلانياً جدًا وفهم ما أرمي إليه فاقتادني إلى الباب وأنا أودع أهل بيته راحلاً، فقط عند الباب استوقفني وأخبرنى أنه أخى الأكبر ويحبني ويحاول مساعدتي بالوسيلة التي يفهمها.

دعا الله أن يهديني إلى طريقي الذي أبتغيه وللمرة الأولى منذ زمن لا أذكره ضمني إلى صدره بقوة وهو يربت على ظهري، ضمني بحرارة شرقية أصيلة وعاطفة حقيقية تحررت أخيراً من سنوات سجنها في بلاد الجليد.

انطلقت بعدما ودعته إلى منزلي سيراً، لم أرغب في استقلال أية وسيلة مواصلات برغم بعد المسافة، إن المشي في الشوارع يستهلك كثيراً من الوقت ويمنحني مساحات من التأمل، إلا أنني هذه المرة لم أكن أتأمل في حياتي انا بل كنت هائماً في تذكر (فاتنة القطار) التي صارت الآن فوزية.

أفكر في كيفية التقرب إليها بدون حرج مثل كل مرة، هل أسأل باسمها في دليل الهاتف عن رقم هاتفها وأكلمها خلاله، ماذا لو كانت لا تملك واحداً أو حتى كانت تملكه ولكنه باسم والدها مثلا، هل أذهب إلى منزلها لأقرع الباب طالباً الوصال، أى سخف أفكر فيه.

فجأة جال بذهني خاطر مرعب، ماذا لو كانت متزوجة.

حاولت تذكر شكل يدها التي كانت تحاول بها الوصول للرف العلوي، كانت أصابعها خاوية من أية خواتم، ولكنها كانت تمد يدها اليمنى، فهل استتر عن عيني خاتم زواج في بنصرها الأيسر؟

أفكر وأنا أسير بمحاذاة الترام في اتجاه محطة الرمل، أحاول إشعال سيجارة لأجدها الأخيرة بالعلبة، أشعلتها وتخلصت من العلبة الفارغة.
كنت قد وصلت للأزاريطة، فتلفت حولي حتى وجدت كشك بقالة خشبي يجاوره كشك صغير من الزجاج يبيع الأزهار.

راقتني الفكرة كثيراً فقررت أن أشتري لها باقة من الأزهار وأرسلها مع البائع إلى عنوانها وأنتظر منها إجابة لمرسالي.

في خطوات سريعة عرجت أولاً على بائع السجائر كي أشتري علبة جديدة، تناولتها منه ونقدته ثمنها في عجالة ثم دلفت إلى الكشك المجاور أنتقي باقة من الأزهار تصلح هدية لها.

وقفت برهة متحيراً وأنا أنقل بصري بين الأزهار المتباينة الأشكال والألوان، أنا لا أفقه كثيراً في أصناف الأزهار المختلفة فطلبت من البائع إعداد باقة على ذائقته تصلح أن تكون مرسلة من (معجب ولهان) كما يرددون دوماً في الأفلام الساذجة.
بينما هو يعد لي باقة أنيقة الشكل رحت أفكر في صيغة رسالة أضعها بصحبة هذه الأزهار.
لم أجد شيئاً أقول حتى أنهكني التفكير وانتهى البائع من التغليف.

فكرت لحظة أن أكتب لها من (معجب ولهان) بعدما يئست من إيجاد صيغة أكثر رقياً ولكني تراجعت حتى لا يأتيني ردها على هيئة سباب مشين!
أخيرًا تناولت من البائع بطاقة معايدة وقلماً من على مكتبه وكتبت "تقبلي أعزمك على العشا"
هكذا فقط.

أعطيت البائع اسمها وعنوانها وطلبت منه أن يتولى توصيلها، سألني عن رقم الطابق الذي تسكنه فلم أعرف وأخبرته بذلك، هز رأسه متفهماً وأخبرني أنه سيتصرف.
نادى على مساعد له وهو يطمئنني على سرعة التوصيل وأهداني وردة حمراء (بلدي) وهو يبتسم في سرور، كان يبدو سعيدًا راضيًا بموضوع (المعجب الولهان) من الواضح أنه ماعاد يصادفه كثيراً.
شكرته وانصرفت وأنا أتشمم الوردة وأبتسم في سعادة غريبة عن ذاتي، كنت أشعر بذات مشاعر مراهقتي حينما كنت أنتظر أمام باب مدرسة البنات الإعدادية المجاورة لمنزلي كي ألقي لفتاة لا أعرف اسمها ولم أتبادل معها كلمة واحدة من قبل برسالة تحتوى أبيات من الكلام الساذج الذي كنت أظنه شعراً يخالطه بعض كلمات الأغاني العاطفية والعبارات الركيكة التي تصف لوعتي وشوقي للقياها.

أتذكر سذاجة مشاعري البضة في تلك الفترة وأبتسم، ثم أتخيل وجه زوج فوزية الذي استلم الأزهار مكانها – إن كانت متزوجة – وهو يواجهها بشراسة.

"مين معجب ولهان ده يا هانم اللى بيبعت لك ورد" أتخيله دومًا بأداء (صلاح نظمي) وهو يرتدى لسبب مجهول (الروب دي شامبر) فوق قميص مكوي بالنشاء وربطة عنق حريرية.

أتخيل هذا وتتسع ابتسامتي أكثر وأنا لازلت أتشمم الوردة ونسيت تماماً علبة السجائر المغلقة القابعة في جيبي.

٢١

"إحنا لازم نبلطوا الشخشيخة.. هى دي أساس المشكلة كلها.. وياريت نلحقوا نعملوها اليومين دول قبل ما تدخل علينا نوة (عيد الميلاد)"
يقولها (خالد) بلهجة خطرة كأنه جنرال عسكري يناقش خطة حربية.

كان يقف بجوارى يدخن ويتأمل السور المنخفض وتشققات الجدران الواضحة في قلق، لم ينتبه إلى السماء المرصعة بالنجوم المستترة في خجل خلف السحب في هذه الليلة الجافة الدافئة من ليالي الشتاء.
كان خالد يعمل موظفاً في أحد مكاتب البريد وكان يهوى الصيد لذلك يحفظ كل مواعيد النوات ويعرف الكثير عن البحر ومواسم الصيد المختلفة وأنواع الأسماك المتوفرة في كل موسم.

كان أباً لثلاثة أطفال في مراحل التعليم المختلفة، شديد التحفظ، دائم العبوس، يأخذ كل الأمور بجدية وصرامة وكأن البشاشة تقلل من وقاره وتمنحه مظهر الرجل الرقيع المرفه، بينما هو يجتهد كي يظهر بصورة رب الأسرة المكافح المنسحق تحت إلتزامات بيته.

كان يبالغ كثيراً وما كان الأمر يستحق كل هذا الأدعاء، نادراً ما كان يخرج ليدخن على السطح ويمكث دقائق يتحدث خلالها عن خطورة وضع (شخشيخة السلم) التي لم أكن أعرف ما هي من قبل.

يخرج غالباً حال حدوث مشاحنة بينه وبين زوجته فيتركها على آثارها لدقائق ويعود بعدها ليهجرها في المضجع.

رجل تقليدي جدًا، ممل، ثقيل الظل، عبوس، ولكنه الصحبة الإنسانية الوحيدة المتاحة، ويا ليتها متاحة طوال الوقت.

لم أجد ما يمنع من البدء في تنفيذ المشروع على الفور ولا أدري لما لم يفعل ذلك طوال السنوات المنصرمة، هل كان يبحث عن شريك يشاطره التكاليف التي لا يقوى عليها وحده؟

بأية حال اتفقت معه على الشروع في البدء من الغد وأن يترك لى الموضوع نظراً لكوني متفرغًا بينما هو موظف ورجل ذو مسئولية خطرة كما يظن في نفسه.

فى الصباح اتفقت مع أحد العمال المهرة كي يقوم بالمهمة، بالطبع كان علي معي وهو من أحضره لى وتولى نيابة عني شراء المواد اللازمة لإعادة تركيب بلاط السطح بأكمله، وعزله بمزيد من القطران.

كانت التكاليف أكبر من طاقتي على توفيرها إلا أن (زكريا) أقرضني مبلغاً من المال واتفق معي على رده بالتدريج من إيراد سيارة الأجرة. وهكذا انهمكنا لمدة ثلاثة أيام متواصلة أنا وعلي والأسطى مصطفى ومساعده في هذه المهمة العظيمة، يا لها من أيام مجيدة، كنت منهمكاً طوال اليوم في مساعدة الرجال ونقل بعض معداتهم أحياناً وإعداد الشاي لهم أحياناً أخرى.

كان علي يلازمني كثيراً برغم نصحي له بالاهتمام بدروسه أكثر - فهو الآن في السنة النهائية بالمدرسة -، إلا أنه كان يطمئنني على جده في الاستذكار ويستشهد دوماً بنتائجه في الأعوام السابقة.
وهكذا بعد أيام كنا مستعدين لاستقبال النوة القادمة ونحن متدثرين بالأغطية في أسرّتنا الدافئة، غير مضطرين للخروج في هذا الزمهرير لنزح المياه.

انتهت مهمتنا مع غروب شمس يوم الخميس فتنبهت أنه قد مر أسبوع منذ إرسال الأزهار إلى (فوزية) ولم أتلق منها أية ردود بعد.

بدلت ملابسي ونزلت إلى الشارع قاصداً كشك الأزهار، كنت أجد السير برغم آلام ساقي، أحيانًا كانت فخذي تؤلمني من كثرة السير إلا أنني كنت أتحامل على نفسي وأكمل طريقي متجاهلاً الآلام.

لن أجعل إصابتي تعيقني عن السير أيضًا، إن الوقت بطيء في كل شيء ولابد لى من ممارسة أية نشاط أستهلك فيه ولو بضع دقائق إضافية.

وصلت إلى الكشك فاستقبلنى صاحبه مرحباً وقد تذكرنى على الفور، سألته إن كانت الفتاة قد استلمت الأزهار فأكد لي ذلك واستدعى مساعده كي يؤمن على كلامه، هى من استلمتها منه بالفعل، ذات مواصفاتها، شقراء، قصيرة الشعر، دقيقة الحجم.

اقترح عليّ صاحب الكشك أن أعيد الكرة مرة ثانية، فلم أجد ما يمنع ولكني طلبت منه تغيير أنواع الأزهار هذه المرة لعلها لم تحب النوع الذي وصلها سابقاً.

هز رأسه متفهما وبدأ في إعداد باقة أخرى أكثر أناقة في مظهرها، كان يمارس عمله بمتعة حقيقة، كأنه يظن نفسه ضمن أحداث فيلم رومانسي يقوم فيه بدور (رسول الغرام) برغم أن مساعده هو من يفعل ذلك في الواقع.

كنت في الأيام الماضية قد ألفت بعض عبارات أدبية منمقة، وانهمكت في صياغتها وإعرابها تحسباً مني أن أرسل لها خطاباً في يوم ما، إلا أنني نسيتها جميعًا ولم أتذكر سوى رجائي البائس فعدت أكرره بذات السماجة: "تسمحي أعزمك على العشا".

لإن لم أتلق منها ردًا فسيكون غالباً بدافع التكرار الممل الذي أبعثه إليها، ولكنى لا أرغب فعليا سوى في مشاركتها الطعام في ركن هادئ من مطعم خافت الإضاءة يشعل لزبائنة الشموع على الموائد وينشر في الجو رائحة (اللافندر).

كاد مساعده أن يحمل الباقة وينطلق بدراجته كما فعل سابقاً إلا أنني استوقفته وطلبت من صاحب الحانوت أن يؤجل إرساله إلى الغد، فغداً الجمعة وفى صباح الجمعة أغلب الظن أنها ستكون ملازمة بيتها، مما يضمن أن تستلم الأزهار بنفسها، في الواقع أنا لم أستقبل أزهارا من قبل إلا مرة واحدة حينما كنت أنازع الموت على فراش المستشفى عقب الحادث، ولكنني أعتقد أن استقبال الأزهار في الصباح مع بداية يوم جديد أفضل من استقبالها في المساء كما هو الحال الآن، كنت أشاهد ذلك في السينما ولا أرى ما يمنع من تجربته في الواقع.

بحت بخواطرى للرجل فوافقني وتحمس لفكرتي أكثر مني، وأعاد الباقة إلى مكتبه وهو يطمئنني أنه سيرسلها في تمام العاشرة من صباح الغد، إلا أنه نصحني أن أكتب في البطاقة المصاحبة أي شيء يدلها على هويتي ففطنت أنني بالفعل لم أفعل ذلك، ولعلها لا تعرف من صاحب الرسالة السابقة وهكذا أضفت إلى البطاقة سطراً قصيراً يسبق توقيعي كتبت فيه تعريفًا مقتضبًا:

"جار القطار المزعج.. (نادر نصار) وذيلتها برقم هاتفي المحمول".

تركت الرجل مودعاً واتجهت حالماً ناحية البحر، جال في ذهني أن أذهب إلى (فتح الله) من جديد كي أشتري بعض المستلزمات وأُمني نفسى بمقابلتها مجددًا، كانت المسافة بعيدة لن أقدر على قطعها سيراً وقد أجهدت نفسى كثيراً اليوم، حاولت أن ألوح إلى سيارة أجرة تقلني فلم أجد واحدة خاوية وإن وجدتها فإن سائقها يترفع عني بمجرد أن يعرف وجهتي، رحت ألعن السائقين وأصحاب السيارات الأجرة الذين يستكبرون على الزبائن.

ثم تذكرت فجأة أنني واحد منهم، أنا بالفعل أملك سيارة أجرة وبصفتي (المعلم) فيحق لى أن أطلب من سائقها أن يوصلني إلى أي مكان وقتما أريد.

أخرجت هاتفي مبتسماً من حماقتي وطلبت (زكريا).

بعد الترحاب سألته عن رقم هاتف السائق الذي أجهل اسمه أو حتى رقم شفيع لأنني أحتاج لتوصيلة حالاً، ضحك زكريا كثيراً من سذاجتي وهو يبلغني أن السائق وكذلك شفيع لا يملك أحدهما هاتفاً محمولاً، يقول لى إن هذا ترف للأثرياء فقط وهم أشخاص بسطاء الدخل لايملكون ثمن هذه التقنية الحديثة.

حقًا؟ لم أحسب نفسى ثرياً لهذه الدرجة ويبدو أنني لا أعرف قيمة هذا الجهاز الذي أهدتني إياه سمية، وهكذا وقفت في مكاني أحاول جاهداً التحايل على أحد سائقي سيارات الأجرة عله يتعطف عليّ ويقبل أن يقوم بعمله ويقلني إلى منزلي نظير أجر.

فقدت حماسي للتسوق وبدأت أستشعر أهمية السيارة وسنوات الرفاهية التي كنت أحياها من قبل، إلا أنني استعذت بالله من الشيطان الرجيم وصرفت تلك الخاطرة عن ذهني، لقد ارتبطت لدي القيادة بالخمر وصارا مترادفين في عقلى أكثر من ترادف الخمر والميسر.

وهكذا لم أجد حلا سوى أني تحاملت على نفسى دقائق قليلة إضافية، حتى وصلت إلى المقهى الذي اعتدت الجلوس عليه في (محطة الرمل) والذى لم أرتده منذ أن انتقلت إلى شقتي الجديدة.

جلست طالباً الراحة وعدت أستعيد ذكرياتي عليه بأن أطلب كافة المشروبات المسجلة على قائمة الأسعار بالترتيب وعلى التوالي، وظللت هكذا حتى انتصف الليل وشعرت بحاجتي للنوم من فرط الإجهاد فبدأت في الاستعداد للرحيل.

٢٢

برودة الجو القارسة والهواء المحمل برذاذ الماء بعد انقطاع الغيث أديا إلى خلو الطريق من المارة، ربما يقطع صمت الليل صوت محرك سيارة مسرعة تعبر الطريق في تلك الساعة المتأخرة من الليل لتتركه كما كان قبلها..

خاويًا، نظيفًا، مبتلاً.

الساعة قد تجاوزت الحادية عشر بقليل، ولا يبدو سوانا في الأفق. حسين يجلس منكمشاً في كرسيه الخشبي على بعد مترين من واجهة كشك الأزهار المزدحمة بأشجار (الكريسماس)، يضم مبسم النارجيلة إلى صدره ويسحب منه أنفاسًا متقطعة، مستمتعاً بدفء الدخان المتسلل لرئتيه في هذا الصقيع.

كان قد طلب لى واحدة أنا الآخر، فجلست أمامه أحاول أن أقلده ونحن نستمع سوياً إلى أغنية قديمة من أغانى (عبد الوهاب) تنبعث من المذياع الموضوع على طاولة صغيرة أمامنا بجوار كوبين من الشاي بالنعناع يتصاعد الدخان من فوهتهما لينشر الانتعاش في خلايانا العصبية المجهدة.

ينفث حسين سحابة دخان كثيفة في وجهي تحجب عنى رؤيته تماماً ثم يعقبها بسعال خفيف وبصقة على الأسفلت ويعقب:

- لازم تغير أسلوبك يا باشمهندس.

ألا إنها لعنة الكيميائي الأبدية تطاردني في بحث الناس عن ألقاب ينعتونه بها ما بين (الدكتور والباشمهندس والأستاذ) وتظل هويته ضائعة بينهم، بينما حسين يستأنف:

- اكتب لها جواب غرامي طويل بدل السطر اليتيم بتاع كل مرة.. الستات بيحبوا الرغى الكتير.

ثم يردف في حنكة الخبراء وهو يغمز بعينه اليسرى :

- اسمع مني انا شوفت كتير، الستات تيجي بالحنية.

أتفكر في حديثه وأنا أقبض على مبسم النرجيلة بأسناني أكثر مما أدخن.

قد بدأت أواصر الصداقة بيننا تنمو مع باقة الأزهار الثالثة التي أرسلها عن طريقه، عند الخامسة صرنًا أكثر قربًا وحين بلوغنا التاسعة أمسيت ضيف دائم لديه.

أجالسه ساعتين مساءً نتبادل الحديث أثناء التدخين بعيداً عن الأزهار حتى لا يفسدها الدخان، نستمع إلى المذياع، ونناقش أحوال النساء.

كنت بعد أسبوعين من بدء إرسالي للأزهار قد بدأت في إرسال باقتين أسبوعيًا ثم صارت بعدها ثلاثاً، اليوم بعد مرور شهر بأكمله صرت أرسل لها باقة يوميًا وأخشى ألا تضطرني لإرسال باقة صباحية وأخرى مسائية في ذات اليوم، إن دخلي لا يسمح بهذا الترف.

دائمًا ما كانت الرسالة المصاحبة للباقة واحدة لا تتغير وهي دعوتي لها على العشاء، كنت أحيانًا أرسل مع الأزهار بعض قطع الشيكولاتة حسب نصائح حسين، أحيانًا أخرى كنت أرسل زهرة واحدة أو اثنتين - حسب الميزانية - ولكني كنت مصرًا على إرسال الأزهار ومحاولة تذكر ملامحها وتفاصيل ملابسها، لقد وجدت أخيرًا ما يشغل بالي طوال النهار وكثيراً من الليل.

يقول حسين إنني الزبون الوحيد الذي يفعلها الآن، يقول إن أكثر ما يسعده إصراري على المحاولة برغم تجاهلها التام، يقول أنني رومانسي أملك الكثير من المشاعر.
هو لا يعرف أنني لا أملك سوى الفراغ والوحدة والوقت الذي لا أعرف سبيلاً آخر أفنيه فيه، وهكذا يستمر نشاطي اليومي في إرسال الأزهار ربما بدافع العادة حتى لقد نسيت الهدف الأساسي من إرسالها في البدء.

أبقى لديه إلى منتصف الليل ثم أنهض مودعاً إياه، مترنحًا في طريق العودة لمنزلي الدافئ الأثير – لقد اقتنيت دفاية كهربائية منذ أيام – مما يمنحني ليال رحيمة في هذه الأجواء الفتاكة.

******

في نهار صحو نادر الحدوث في نهايات ديسمبر المؤلمة، أسير في الشوارع بلا وجهة مستمتعًا بأشعة الشمس الدافئة، أتناول (الآيس كريم) متأملاً واجهات المحلات المزدانة باللون الأحمر ومجسمات (بابا نويل) متباينة الأحجام وأشجار (الكريسماس) وزينة أعياد الميلاد.

كنت أتمنى أن تكن لدي ثقة (عمرو دياب) في كوني "مش مألوف إمبارح لكن للجاي مألوف" إلا أنني كنت أدرى بحظي العثر.

كان العام يقترب من نهايته والجو العام يوحي بالعجلة المختلطة بلهفة الانتظار، الكل يرتقب نهاية العام في شغف لا أحد يفهمه، الجميع يبحث عن أي مظهر من مظاهر البهجة، المطاعم والمقاهي تزينت استعداداً لسهرات رأس السنة.

شعرت باهتزاز هاتفي المحمول في جيب سترتي الداخلي، احتجت وقتًا كي أخرجه من جيب هذه السترة الشتوية الثقيلة التي تعيق حركتي حتى وجدت شاشته تتألق برقم غير مألوف، أصابتني الدهشة هنيهة، أنا لا يتصل بي سوى زكريا أو رأفت.

ازداد خفقان قلبي وأنا أفكر واحتشد الدم في أذنيّ حتى شعرت بالحرارة، ترى هل تكون هى؟!

فى تردد أجبت وأنا أصغي جيدًا حتى أتاني صوتها شديد العذوبة عبر الهاتف.

"ألو"..

تقولها ممطوطة المقطع في رقة يشوبها نبرة إنهاك، كأن قلبها مثقلاً بكل هموم البشر وتحاول إخفاء ذلك عن المستمع.

لم أصدق ما سمعته فسألتها مستفسراً: فوزية؟

ردت بالإيجاب وأنا أتمايل طربًا مع رنين صوتها الخلاب، لقد أتت الثلاث وعشرون باقة أزهار أُكلها أخيراً.

تسألني عن مكاني فأصف لها موقعي بالتحديد، تقول إنها في (سبورتنج) وقد تلبي دعوتي على مشروب سريعًا إن كان وقتي يسمح.

هل تمزح؟ إن وقتي يسمح لاستصلاح عشرة فدادين زراعية وانتظار حصادها، صحيح إنني كنت أتمنى دعوة عشاء ونحن لانزال في العاشرة صباحاً ولكن ما يمنع، أي شيء منها هو عطاء جزيل بالنسبة لي.

طلبت مني أن أسبقها إلى (أتنيوس) وأنتظرها دقائق لحين وصولها، فلم أكذب خبراً وانطلقت في اتجاهه مهرولاً كالتلاميذ لحظة سماعهم قرع جرس الانصراف من المدرسة.

ارتميت على مقعد بجوار النافذة ألهث من فرط الحركة والانفعال برغم درجة الحرارة التي تقارب ٤ مئوية. لا أعرف حقيقة مشاعري تجاهها ولكنه شيءٌ أقرب ما يكون إلى الحب، إن كان ما أقرأه في الروايات هو الحب.

يبدو أن الفراغ الذي أعانيه أصابني بالخبال لأهيم حبًا بامرأة لا أعرف عنها أي شيء على الإطلاق ولم أصادفها سوى مرتين لدقائق معدودة.

جلست أتأمل هذا الواقع الغريب وأنا أراقب حركة موج البحر الثائر عبر النافذة وزخات المطر الخفيف التي بدأت في التساقط تشوش الرؤية قليلاً.

نسيت كم لبثت حتى دلفت من الباب ناشرة العطر والازهار والدفء حولها، كأنها (برسفونيه) في الأساطير اليونانية.

أخيرًا قدمت آلهة الربيع إلى المطعم شبه الخاوي في تلك الساعة وذلك الطقس.

كانت ترتدي معطف أمطار ثقيل وتدفن رأسها تحت (كبود) المعطف المبطن بالفراء، بينما يداها الدقيقتان مختبئتان داخل قفازين من الجلد.

نهضت لاستقبالها وابتسامتي تلتهم نصف وجهي السفلي كما هرعت النادلة نحوها لتلتقط معطفها بعدما شرعت في خلعه.

أجلستها وأنا أردد عبارات الترحاب وهي تردد عبارات الشكر في تهذيب متحفظ، ثم تنهدت في إنهاك – تبدو على الدوام منهكة - وخلعت قفازيها فعدت لأستقر في مقعدى بمواجهتها.

أتأمل ملامحها الأجمل فيما رأيت عبر سنوات عمرى غير القليلة، كانت الأكثر أناقة برغم بساطة ردائها، ترتدى قميصاً قطنياً طويل الأكمام من طراز (Lacoste) الرياضي الشهير، أرجواني اللون، وسروالاً من (الجينز) الأزرق وحذاء رياضيًا أنيق التصميم رمادي اللون، مبتلاً بفعل الأمطار، دقيق الحجم يناسب قدمها الصغير.

أجلس متلعثماً، أستمر في ترديد ذات الكلمات أكثر من مرة، أقبض على صوتي بصعوبة كي أسألها ماذا تشرب، أشرد في انفراجة شفتيها المكتنزتين اللتين تكشفان عن أسنان نضيدة بيضاء لم أر مثل بريقها سوى في إعلانات معجون الأسنان.

تتأملني في صمت ولا تجيب، تتنهد، تنظر إلى عينيّ بنظرتها الثاقبة التي أستشعرها تنفذ إلى أعماق روحي لتفتش عن كل ما أخفيه في خوالجي.

بعد لحظات طلبتْ من النادلة شراب الهوت سيدر (hot cider)، انتابني قليل من الاشمئزاز لا شعورياً جراء سماعي اسم هذا المشروب المثير للغثيان.

لم أفهم كيف يتحمل كائن بشرى مذاق عصير التفاح الساخن، تفاح ساخن!! والأدهى أنه مخلوط بعيدان القرفة كذلك، تفاح بالقرفة يقدم ساخنًا، لقد بدأت أمعائي تتقلص ويبدو أن هذا انعكس على وجهي إلا انها لم تعلق واكتفت بالابتسام.

كنت قد فرغت من قدح القهوة وأشعلت سيجارتي الثالثة منذ جاءت وهى بدأت في ارتشاف ذلك المزيج المقزز في استمتاع غريب، ترى هل تأكل أوراك الضفادع كما يفعل الفرنسيون؟!

إن من يشرب هذا الشيء بالتأكيد يأكل المزيد من الأصناف المقززة الأكثر غرابة.

أشرد في خواطري وأعود لتصدمني ابتسامتها الساخرة قليلاً المرسومة على جانب فمها الأيسر.

"عايز مني إيه يا نادر؟".. باغتني سؤالها فارتبكت.

حقاً لا أدري ماذا أريد منها ولا ماذا يجب أن أقول، أجلس أمامها متلعثماً، متعرقاً، كما كنت أجلس في مواجهة لجنة الاختبار الشفوي، أبحث عن طرف خيط أبدأ به الحديث فلا أجد.

"بقالك شهر بحاله بتبعت لي ورد.. كل يوم ورد.. بتتحايل عليا عشان أكلمك.. ولما أشوفك تقعد ساكت كده؟.. خد بالك أنا مسألتكش جبت عنواني منين.. ومش مهتمة أعرف قد ما يهمني أفهم".

"عايز مني إيه يا نادر؟"

"هو انتي كنتي فين بدري كده؟"

كانت تلك الجملة الوحيدة التي تحررت من أحبالي الصوتية لتخرج في صيغة سؤال فضولي أحمق أستر به خيبتي في إجابة سؤالها برد مقنع.

اتسعت ابتسامتها وتراجعت في مقعدها للخلف كي تواجهني أكثر، يا لعينيها الواسعتين فيروزيتي القرنية، تسلطهما على وجهي كجهاز أشعة (رينتوجن) فتكشف لها أغوار نفسي.

تجيب متقبلة محاولتي تغيير الحديث:

- كنت في النادي.. كل يوم باجري شوية.

سحقاً، إنها من محبي الرياضة الصباحية، والمشروبات كريهة المذاق المفيدة للصحة، لعلها كذلك نباتية أو تمتنع عن الطعام مساءً حفاظاً على رشاقتها.

إلا أنني وجدت ما يصلح لاستئناف الحديث فسألت:

- نادي إيه؟

- سبورتنج.

قالتها بعدم اكتراث وهى تهز كتفيها لأعلى.

- سبورتنج.. أنا كنت عضو فيه زمان.

- وسيبته ليه؟

- بابا الله يرحمه كان من الأعضاء القدام قوي فيه.. بعد لما مات بفترة انا مجددتش العضوية. وبعدين بقالي سنين بعيد.. لكن أخويا لسه عضو.. واختي وجوزها كمان.
- وانت كنت فين في السنين البعيد دي.. كنت مسافر برة؟
- كنت في السجن.

قلتها في هدوء وبساطة كأنني أخبرها أنني كنت في بعثة علمية.

لقد أنهكتني سنوات السجن بحق، ولّت حاملة معها كل مهارات التواصل الاجتماعى، ما عاد لديّ بال رائق للمراوغات ولا المقدمات، أظن أنني لهذا السبب وحده، حينما رأيتها أول مرة دعوتها للعشاء مباشرة دون أى تمهيد.

إن حكمة السجن علمتني أن الحياة أقصر من أن تضيع في ترهات، العمر يمضي أسرع من قدرتنا على ملاحظته، اليوم قد جاوزت الثالثة والثلاثين من العمر ولا أذكر فيم انصرفت تلك الأعوام كلها.

قلت لها ذلك وقد أسعدني كثيراً رد فعلها عند تلقي الخبر، لم تبد ذعراً أو تعلق أو حتى تتبدل ملامحها.

رابطة الجأش، واثقة من ذاتها، تنظر إلي أكثر مما تتكلم كعهدي بها. دوماً هى ثابتة الجنان لا يفزعها شيء ولا يثيرها شيء، هادئة جدًا، بطيئة في كل حركاتها وسكناتها، تحمل شيئاً من الإنهاك العذب، كأنها عجوز في السبعين من العمر أتته حكمة الدنيا يجلس صامتاً يراقب الحمقى يصطرعون على حياة زائلة.

"احكي"..

قالتها باهتمام وهى تعتدل في جلستها وتحتضن كوبها بكفيها طلباً للدفء، تميل برأسها ناحية كتفها الأيسر.

جذابة، واثقة، حنون، تشبه (هيدى لامار) في أفلام الخمسينيات إلا أنها تصفف شعرها القصير بأسلوب (فاتن حمامة).

شرعت أحكي لها كل ما أذكره عن سنواتي الفائتة، بدءًا بليلة احتفالي مخموراً في (كازينو رشدي)، وصولاً إلي لحظة إجابتي على اتصالها الهاتفي منذ ساعتين.

لحظات من الصمت سادت بيننا، تنقل خلالها نظرها بين عيني وبين الكورنيش بهيج المظهر في ظهيرة يوم شتوي دافئ، أظنها تتفكر في كلامى وأنا أدقق في ملامحها المذهلة.

النثرة الغائرة كأخدود عميق يفصل بين شفتها العليا الغليظة بلون الكرز وأنفها القاني في شموخ يليق بملكات العهد البطلمي.

حاجباها الداكنان كقوسين يحتويان في حنو عينيها الواسعتين، لا أدرى ما السر في جاذبية هذين الحاجبين ولكنهما يثيران الشجن في نفسي لسبب أجهله، ربما لأنهما طبيعيان السمك فهي لا تتبع موضة التنمص التي جعلت كل حواجب النساء خطًا رفيعًا مصطنعًا يمنحهن مظهرًا شيطاني الطابع.

أخيراً انبعث صوتها من جديد ينشر الأنغام الساحرة في مسامعى وسألت:

- أنت مثلت إيه قبل كده؟

ابتسمت في سخرية وأنا أتذكر أحداثاً مشوشة ضبابية تبدو كأنها من القرن الماضي، هل حقاً مر عقد من الزمن على هذه الأحداث؟

- أشتغلت قدام سعاد حسني في (الدرجة التالتة)[1]..

قلتها في حسرة لازالت تنتابني كلما تذكرت.

سألت في تعجب: - هو في فيلم اسمه كده؟!

ابتسمت في سخرية مريرة وأجبت:

- اه كان في فيلم اسمه كده.. تخيلي فيلم بطولة أحمد زكي وسعاد حسني بذات نفسها.. تصدقي إن فيلم زي ده يسقط ومحدش يسمع عنه أبداً بعد كده.
طيب تعرفي إنى اشتغلت بعده في فيلم مجهول أكتر منه كمان.. تقريباً محدش يفتكره غيري.. حتى أبطاله نسوه.

سألتنى بفضول ساخر:

- فيلم ايه ده كمان؟

- "قانون إيكا"

"نعم؟.. أنت بتكذب صح" تقولها في ريبة غير واثقة فيما أنطق.

---

[1] إنتاج عام ١٩٨٨ ، إخراج شريف عرفة .

- لا والله، ده كان تقريبا في ٩١.. بطولة محمود عبد العزيز.. كان نجم شباك درجة أولى وقتها لحد ما الفيلم الأسود ده جابه الأرض.. الصراحة أنا كنت نحس قوي على كل نجم اشتغلت معاه.

وضعت أناملها مستديرة الحواف، النظيفة من أى طلاء على فمها وهى تضحك في محاولة لستر بريق ثغرها المتبسم كما قالها عنترة من قبل، ولكن فشلت محاولتها لتشع ضحكتها بالفتنة الطاغية تستولى على كل حواسي.

تمالكت نفسها بعد قليل ثم سألتني وهى تدعي الجدية:

- طيب وعملت إيه غير الأفلام العجيبة دي.. عملت مسلسلات؟

- لا اشتغلت شوية إعلانات وكنت بطل كليب مع حنان.

قالت بلهجة انتصار بعدما سمعت اسم تألفه وكأنها أخيرًا وجدت ضالتها:

- آه حنان.. مش دي البنت الكلبوظة اللى كانت بتغنى وهي راكبة الترام.. دي كانت جميلة قوي.

ضحكتُ من قولها حتى سعلت، تناولت قدح الماء لأرشف رشفة منه، لم أتمالك نفسى من الاستمرار في الضحك وهي تنظر لي في ضيق وشفتها السفلية مقلوبة، طفولية الطابع في الكثير، ساذجة، لا تستوعب مقدار النحس الذي صادفني.

قلت موضحاً بعدما استعدت أنفاسي:

– لا حضرتك دي اسمها حنان ماضي.. أنا قصدي حنان.. هي كان اسمها كده حنان بس. بتاعت "الشمس اترسمت شفافة"... عموماً هي اعتزلت أصلاً من كام سنة.

– مش معقول أنت اشتغلت ف حاجات عمري ما سمعت عنها.

– ولا حد سمع عنها وحياتك.. أنا تخصص مجهولين.. أنا كنت شبح الوسط الفنى.

ضحكتْ كثيراً وضحكتُ كذلك، وبدأت لأول مرة منذ سنوات عدة أشعر براحة عميقة تتسلل إلى روحي بعد تجردي من أسراري أمامها، أشعر بنشوة الاعتراف وكأنني أتبرأ من كل ذنوبي وأقف أمامها حرًا، نقياً، كما كنت منذ ثلاثين عامًا ونيف.

أخرجتْ من حقيبتها الصغيرة قلمًا، ومفكرة صغيرة وردية اللون، على غلافها رسم أنيق لجرو دقيق، طلبتْ مني عنوان منزلي.

لم أعرف لماذا ولكني آثرت ألا أسألها وأطيعها على الفور، ذكرتُ لها عنوان بيتي القديم لتدونه، ثم فطنت إلى ذلك الخطأ وحاولت تعديله فقط لاكتشف أنني لا أعرف بدقة عنواني الحالي.

دست مفكرتها في حقيبتها مع قفازيها ثم نهضت مصافحة إياي في عجالة لتودعني، سألتها راجيًا لقاء آخر قريبًا فلم تجب.

اكتفت بشكري على دعوتي الكريمة وانطلقت في رشاقة تخطف معطفها من على المشجب قبل أن تأتيها به النادلة، ثم هرولت إلى الخارج لتختفي عن ناظري وأنا لازلت متأملاً الباب حيث اختفت، وابتسامتي لا تفارق وجهي، أستنشق شذى عبير أناملها العالق في أناملي فتزيد ابتسامتي اتساعًا ويحتل قلبي الحبور.

٢٣

"يارب.. تفضل حلاوة سلام أول لقا.. ف إيدينا"

تقولها (أم كلثوم) في رجاء حار يخرج زفيره من قلبي، هى سفيرة الحب التي تتحدث بلساني وقتما يعجزني الوصف، وتعاندنى الكلمات.

صحيح أنني أقلعت عن الشراب والقيادة، ولكنني لم أطق بعداً عن أغاني أم كلثوم، حتى (أغدًا ألقاك) أسمعها هائمًا برغم أنها تعيد إليّ ذكريات الحادث كاملة، جلية، كشريط سينما يعاد مرة تلو الآخرى دون انقطاع.

كنت أجلس على طاولتي أجرع أقداح القهوة وأمامي مطفأة التبغ التي ورثتها عن أبي مكدسة بأعقاب السجائر، بينما أنغام (بليغ حمدى) تهدهد قلبي، وكلمات (مرسى جميل عزيز) تسرد حالتي تفصيليًا وأنا أضع أمامي بعض الأوراق أحاول عليها تسجيل كل ما أذكره عن لقاء (فوزية).

أدوّن شكل ملامحها، طراز ملبسها، انطباعي المتولد جراء كل لفتة عفوية منها.

أسجل كيف تقطب جبينها، كيف تنفرج شفتاها ضاحكتين.

كيف تجرع ذلك المشروب الكريه مقزز المكونات الذي صرت أعشقه فقط لأنها تحبه.

أتذكر قميصها ذكوري التصميم، رياضي الطراز، الذي يعج بالأنوثة الزاعقة فقط لأنه يحتوي جسدها البض بين نسيجه القطني.

كنا في اليوم الخامس من لقائنا وقد صرت أؤرخ حياتي بدءًا من عهد مصافحتنا، صار لدي تقويم خاص فيما قبل المصافحة وما بعدها، كما فعلت كل الحضارات العريقة مع الحدث الجلل في تاريخها.

كل يوم كنت أحاول الاتصال بها عشرات المرات، ودائماً ما كنت أجد رقم هاتفها الذي طلبتني منه قبل ذلك غير متاح.

وهكذا لم أجد بُدًا من أن أستمر على عهدي كالسابق، كل يوم أرسل لها ما تيسر من باقة أزهار تذكرها بلقائى، لازلت مصرًا عنيدًا أكرر في كل مرة طلبي بموعد على العشاء، وككل مرة لا يأتيني رد بأي شكل لا سلباً ولا إيجاباً.
فى تلك الأثناء قاطعني رنين هاتفي المحمول الذي تتألق شاشته باسم (رأفت)، أجبته وأنا أخفض صوت (الكاسيت) حتى أجيد الإصغاء لما يقوله.

بعد كلمات الترحاب المألوفة أبلغني بأنه أستلم خطاباً موجهاً لي، جاءه طبعاً على عنوان مركزه الطبي الذي كان منزلي فيما سبق، هذا هو العنوان المدون في بطاقتي الشخصية حتى اليوم.

جاءه خطاب يحمل توقيع (فوزية فؤاد)، وخاتم بريد الإسكندرية وهو ما أثار دهشته ودهشتي أكثر منه.

إن كانت تبغي التواصل معي ونحن في ذات المدينة بل كذلك نقطن ذات الحي، فلم لم تهاتفني، هل في عهد المحمول والفاكس والبريد الإلكتروني لازال هناك أحد يتداول الخطابات الورقية؟
إلا أن خبراً كهذا جعل قلبي يزداد وجيباً في لحظة واحدة حتى صارت سرعة نبضاته تشكل خطورة عليّ، سألته عن الخطاب فطلب مني الحضور غداً لاستلامه في المركز.

غداً! وماذا عن اليوم؟ ماذا عن الآن؟ قال إنه في منزله فأخبرته أنني سأحضر على الفور لاستلامه، إنها لازالت التاسعة مساءً وخلال ساعة أو أقل أكون قد وصلت عنده، حاول التملص مني ولكنني كنت لحوحًا لدرجة أنه وافق على مضض فقط كي يريح باله.
فى غضون دقائق أبدلت ملابسي وانطلقت إلى الشارع لأقفز في أول سيارة أجرة تقلني إلى منزل أخي.

برغم إصراره لم أدلف إلى المنزل وأصررت على تسلم الخطاب سريعاً وأنا على الباب، كنت متلهفاً لقراءته منفرداً، لا أطيق صبراً، وقد كان.

استلمت الخطاب ودسست نفسي في المصعد سريعاً لأهبط إلى الشارع، لم أجد سيارة أجرة أمامي فتلفت حولي حتى وجدت مقهى صغيرًا على بعد خطوات.

هرولت إليه وألقيت نفسي على مقعد خشبي صغير، وسط زبائن المقهى الذين يصطكون من البرد ويلهثون من التدخين، وطلبت قدحًا من القهوة وفضضت الخطاب.

ورقة واحدة ملونة مطوية، تحمل عطرًا أنيقًا جذابًا يفوح من حوافها، فردت الورقة لأجدها تحمل في خلفيتها علامة مائية على هيئة فراشات محلقة، يفوح منها عبير يخلب عقلى برغم أنه يختلف عن عطرها المميز الذي اشتممته من قبل في (أتنيوس).

هذا هو فعلاً (الجواب الغرامي) مطابقاً لكل المواصفات القياسية العالمية.

شرعت أقرأ خطها النضيد المتماسك، الذي ينقلني من عالمي الموحش البارد، إلي كون مواز آخر يملؤه الدفء والألفة.

"نادر..

تحياتي الخالصة، شكراً على لقائك الممتع صباح اليوم، شكراً على الأزهار الجميلة التي كانت تصنع يومي وتمنحني راحة عظمى كل يوم، شكراً لإصرارك غير المسبوق على دعوتي إلى العشاء التي لن أستطيع تلبيتها أبدًا، شكراً على صراحتك المطلقة في حديثك معي، شكرًا على كل شيء.

نادر.. صدقني

أنا آخر شخص تريد معرفته، وأنا لا أملك أي سعة نفسية لأى علاقة مع أي مخلوق أياً كان، تقبل اعتذاري واتركني لشأني وانشغل بشئونك الخاصة. أنا لا أصلح للتعارف ولا للصداقة ولا لأي شيء آخر قد يدور بمخيلتك، أنا لا أريد من العالم شيئًا سوى أن يتركني وشأني.

رجاء كف عن إرسال أزهارك، كف عن محاولة الاتصال بي واترك لي ذكرى طيبة للقائك.

مع خالص محبتي..

فوزية"

هكذا فقط، عدة سطور مقتضبة ترجوني خلالها أن أنصرف عنها، ثم تختم رسالتها القصيرة بجملة"مع خالص محبتي" أية محبة تلك وقد بدأت رسالتها باسمي مباشرة، دون أية نداءات تسبقه.

صحيح لا أنتظر منها أن تستهلها بحبيبي نادر مثلاً ولكن ماذا عن صديقي أو عزيزي أو حتى السيد الفاضل كما يفعلون في المراسلات الرسمية، ولكن بدايتها تلك جافة جدًا تصر من خلالها على زيادة الفجوة بيننا.

انتبهت لعبارة "صباح اليوم" تلك فانتبهت لتاريخ الخطاب، إنه يوم لقائنا ومعنى هذا أن خدمة البريد احتاجت إلى خمسة أيام كاملة كي يصلني خطاب وأنا في ذات المدينة على بعد شارعين من نفس مكتب البريد!

رحت أتشمم الخطاب وأفكر في حل لتلك المعضلة، ترى ماذا عساي أن أفعل؟ هل أذعن لها وأنصرف عنها كما طلبت؟ أم أتجاهلها وأستمر في رحلة سعيي إليها؟
ولِمَ أبتعد؟! هي لم تلمح لأي شيء، فقط هكذا كحكم بائن غير قابل للنقض.

أجرع المزيد من القهوة، وأفكر.
أتشمم عطرها المنشور على الخطاب، وأفكر.
أتذكر كل شيء فيها رأيته خلال لقاءاتنا الثلاثة، وأفكر.

أنا حقاً لا أعرف ماذا أريد منها حتى الآن، أبدو كطفل في أول يوم له بالمدرسة، يستشعر الغربة في كل ما حوله، وقد وجد أخيراً شخصاً ما يشعره بالألفة.

لا أبغي شيئاً سوى البقاء بقربها، الاستئناس بوجودها، اقتباس الأمان من قوامها الضئيل.

نظرت إلى ساعة يدي ذات التقويم فوجدتنا في التاسع والعشرين من ديسمبر.

إن ليلة عيد الميلاد تحل بعد غد، سأحاول خلالها فعل شيء ما يجعلها تأخذني على محمل الجد.

٢٤

أقرع جرس الباب عدة مرات دون جواب حتى أتاني صوتها المنهك الذي أعشقه من الداخل أخيرًا، واثقًا آمرًا:

- استنى يا حماده، ثواني.

صوتها منهك أكثر من نبرته المعتادة، ومن هذا (الحماده) الذي تتوقع حضوره في الثامنة صباحًا؟!

انتابتني الغيرة ولا أعرف لماذا تحديدًا، ترى هل أحبها بحق؟ وكيف أحبها وأنا لا أعرفها؟ ثم ما هو الحب في الأصل كي أقر بأنني أحب أم لا؟

تجوب عقلي خواطر غريبة وأنا بانتظار انفتاح الباب، حتى سمعت صوت يدها تعبث بالمزلاج من الداخل، وأخيرا انفتح الباب.

لم يظهر القمر وضاءً هذه المرة.

لقد انفتح الباب لأجدها أمامي ترتدي (روباً) صوفيًا ثقيلاً، وعلى رأسها قلنوسة صوفية خشنة، وتتلفح بوشاح من الصوف هو الآخر، تدس قدميها الفاتنتين في جورب ثقيل قاتم اللون، ويدها تحمل منديلاً ورقيًا تتمخط فيه وتغطي به فمها وأنفها.

ما إن رأتني حتى تحشرجت وازداد سعالها بشدة. ازدادت عيناها الحمراوان اتساعاً حتى بدت كضحايا السفاحين في أفلام الرعب.
كنت أحمل في يدى باقة الأزهار وأبتسم، إلا أن ابتسامتي تبددت لرؤيتها بتلك الهيئة، لابد أنه برد الشتاء اللعين يفتك بجسدها الفتّان.

بعدما تحرر صوتها أخيرًا سألتني بإنهاك شديد يشوبه الفزع - مما يجعلها أشد جاذبية ولا أدرى كيف-:

- أنت بتعمل إيه هنا؟!
- جيت أوصل الورد وأكلمك.

أتطلع إليها فأتأكد أنها مريضة للغاية، وأستطرد:

- بس مش دلوقتي.. المهم أطمن على صحتك ألف سلامة عليكي.

أشارت بيدها في إنهاك وطالبتنى بالرحيل وهى تستمر في السعال، كانت في حالة مزرية، شاحبة البشرة بشدة، وهناك عرق نافر في منتصف جبهتها أتبين نبضه بعيني المجردة.

- مش هاتحرك من هنا يا فوزية.. مش هسيبك غير لما تكوني كويسة.

أقولها بحسم قاطع وأنا أخطو نحو الداخل، وأستقر على مقعد في غرفة الاستقبال برغم اعتراضها.

تبعتني للداخل وقد حرصتْ على أن تبقي الباب مفتوحًا، ألقت بنفسها على الأريكة المواجهة لي وقالت:

- والنبي يا نادر أنا مش مستحملة.. خاف على سمعتي يا أخي.. أن عايشة لوحدي.

سحقًا، تبدو حرارتها مرتفعة جدًا من أحمرار وجنتيها الشديد، برغم الشحوب المسيطر على باقي ملامحها أتبينها.

ابتسمت لها وأنا أقول بلهجة مطمئنة:

- متقلقيش.. أنا هتصرف صح.. بس انتي ارتاحي.. المهم تكوني كويسة.

قلتها ونهضتُ في اتجاه الباب، ثم التفت لها قبل أن أنصرف لأقول:

- انا ساعة وهرجع.. خدي بالك من نفسك.

ودعتها وانصرفت وأنا أحاول ترتيب أفكاري كي أطمئن عليها، طلبت (زكريا) على الهاتف المحمول، فوجدته في طريقه إلى المحكمة في هذه الساعة المبكرة.

طلبت منه أن يرسل لى أحد الأطباء كي يفحصها في المنزل، طمأنني وقال إنه سيرسل لى شفيع خلال ساعة أو أكثر.

فقط طلب مني أن أنتظره في مكان معروف، وجدت حولي مقهىً بارزًا في منتصف الشارع، على بعد خطوات من منزلها، أعطيته وصف المكان وأبلغته أنني سأنتظره عليه.

لازال الوقت مبكراً على وصول شفيع مما يتيح لى بعض الحركة، تحركت ناحية شارع (محرم بك) الرئيس، على الترام مباشرة حيث العديد من المحال الكبرى.

سأجد كل ما أريده لديهم في هذه الساعة من الصباح، هناك (سوبر ماركت) أعرفه جيداً مفتوح طوال الأربع والعشرين ساعة.

اشتريت لها بعض الطعام، والعصائر، والتوابل التي وجدتها متاحة، بالتأكيد هى لا تقوى على الطهو ولا أعرف ماذا كانت تأكل.

شعرت نحوها بالكثير من الشفقة.

وحيدة تمامًا، لا تجد من يساعدها، بل لا تجد حتى من يفتقدها، لو اختفتْ من الوجود فلن يلاحظ أحد غيابها سواى.

مثلى تمامًا، لو متُ أنا في أى وقت فلن يكتشف أحد ذلك سوى بعد أيام.

رثيت لحالها وحالي وأنا أتوجه نحو المقهى لأستقر عليه في انتظار شفيع.

ربما هذا هو ما أريده منها فعلاً، أن يعنى أحدنا بالآخر، أن يجد من يعد له طعامه حين يمرض، أن يجد من يتشاجر معه حين عودته متاخرًا إلى المنزل، أن يجد من يشاطره الإخفاقات المتوالية وليالي الأرق وساعات اليوم الرتيبة.

بعد وقت وجدت شفيع أمامي بصحبة رجل نحيل وامرأة ممتلئة، يترجلون جميعاً من سيارة أجرة.

فهمت من شفيع أنها سيارتى التي لا أذكر شكلها بالتحديد، حتى لا أذكر اسم سائقها، إنني ألعن صاحب رأس مال في الحياة، كان من الطبيعي أن أبدد ثروة أبي وأمي ونصف أموال أخي، إنني شديد الحمق فيما يتعلق بالأموال والحسابات وهذه العوالم المعقدة.

أخبرني شفيع أن هذا هو الطبيب، وهذه السيدة هى أم رضا، المرأة التي تعتني بمنزل الأستاذ زكريا ومكتبه أحيانًا، هى مدبرة منزل غير متفرغة، ستعتني بفوزية حتى شفائها.

امرأة أمينة وماهرة ويمكن الاعتماد عليها في الظروف المشابهة، كذا أخبرني وأنا أقتادهم إلى منزلها.

بعدما فتحت لنا فوزية الباب بعد معاناة طويلة، اقتحمنا الشقة جميعاً لننتشر فيها كالاحتلال البريطانى. الطبيب وأم رضا اصطحباها قسرًا إلى غرفتها كي يفحصها الطبيب، وتوجهت أنا للمطبخ وبدأت أستكشفه توطئة لإعداد بعض الطعام، بينما شفيع توجه إلى الشرفة والنوافذ كي يفتحها كلها على مصراعيها لتتسلل إلى البيت بعض أشعة الشمس الخابية في هذا اليوم الغائم.

بعدما انتهى الطبيب من الفحص أخبرني أنه أعطاها حقنة خافضة للحرارة، وأمر أم رضا بأن تصنع لها كمادات باردة، ونصحنا بإعطائها الكثير من السوائل.

كان لديها بعض أدوية نزلات البرد ولم يجد الطبيب داع لاستعمال المزيد واكتفى بها، تقدمه شفيع إلى الباب كي يوصله إلى وجهته في ذات سيارتى التي أتوا بها، أخبرني همسًا قبل أن يخرج أن زكريا تدبر كافة النفقات وألا أشغل بالي سوى بالمريضة و.. "ربنا يتمم بخير" قالها بخبث وهو ينصرف مبتسماً بصحبة الطبيب.

هززت رأسي ولم أعلق وعدت إلى المطبخ، رحت أفتش عن آنية طعام تصلح لسلق الدجاجة فيها وإعداد الحساء، لم يفتني أن أرى بقايا الأزهار القديمة متكومة في ركن صغير من المطبخ، ابتسمت وبدأت في إعداد الدجاجة مسلوقة وطبقاً من حساء الخضر.
وجدت في الثلاجة زجاجة كبيرة من عصير البرتقال كما توقعت، برغم نفوري منه إلا أنه سيفيد كثيراً في حالتنا تلك، بعدما انتهيت من تفريغ الطعام في الأطباق، صببت كوباً من عصير البرتقال وخرجت من المطبخ.
وجدت أم رضا منهمكة في ترتيب المنزل وتنظيفه سريعًا، حقاً إنها نشيطة جدًا وماهرة كذلك.
أمرتها أن تصحبني إلى غرفة فوزية ففعلت، دلفت حاملاً صحفة الطعام لأجدها متدثرة بالأغطية الثقيلة تجاهد للتنفس، ساعدتها المرأة حتى اعتدلت ووضعت الوسائد خلف ظهرها لتجلس متكأة وتستطيع ابتلاع الطعام.

جلست بجوارها ووضعت صفحة الطعام على ساقي، ابتسمت وأنا أناولها كوب العصير أولاً لتتبلغ به.

- أنت إيه اللي عملته ده بس.. حرام عليك بجد.. أنا تعبانة ومش حمل مناهدة.

تقولها في غضب حقيقي وهى تنظر لى بلوم.

قلت لها:

- متقلقيش من حاجة وأحنا مش لوحدنا في الشقة.. أهو معانا أم رضا تاخد بالها منك وتعملك كل اللي انتي عايزاه.. وأنا لما تاكلي هقوم أنزل.. وهطمن عليكي في التليفون.. كويس كده؟ ارتاحي شوية بقى.. أرجوكي.

ابتسمت قليلاً ثم قالت:

- طيب عشان خاطري أنزل دلوقتي.. متقلقش عليا وأنا هكلمك في التليفون ماشي؟!

تقولها برجاء وهى تهز رأسها مشجعة كأنها تحثني على الانصياع لطلبها.

نهضت مبتسما وربتت على كفها الرقيق مرتفع الحرارة وقلت لها:

- هستنى تليفونك.

نهضت لأغادر منزلها ولم أغفل جهاز كمبيوتر نقال ملقى بإهمال على طرف الأريكة، إنها تفهم في هذه التكنولوجيا المعقدة كما يبدو وتجيد استخدامه.

إلا أن ما أشاع البهجة في أعماقي بعض البطاقات الصغيرة المحشورة تحته، بطاقات غير واضحة المعالم إلا أنني أحفظها عن ظهر قلب، بطاقاتي التي أرفقها مع كل باقة أزهار تأتيها.

غادرت منزلها مزهواً برغم قلقي بعدما أوصيت أم رضا عليها، ولم تكن تحتاج وصايتي، يكفى جدًا وصاية زكريا.
هكذا عدت للشارع ثانية وبدأت أتحرك في اتجاه منزلي وأنا أفكر في هذا الذي يحدث.
تلك الفتاة تحتاجني بقدر ما أحتاجها، هل لهذا تقابلنا مرة ثانية مصادفة.
كلا لقد تعلمت أن لكل شيء سببًا وأننا مثل الأحجار على رقعة الشطرنج الكوني، كل خطوة هى تمهيد لسلسلة خطوات أخرى.

لا أدري بالظبط كيف ستقبلني وكيف أقبلها، ربما هى تعرف عنى الكثير مما حكيت لها، ولكنى لازلت لا أعرف عنها شيئًا، كل ما أعرفه في هذه اللحظة أنني قد وجدت أخيراً شيئاً يستحق أن أفعله في حياتى عديمة الفائدة بأسرها.

"ربنا يتمم بخير" قالها شفيع بخبث ولكنها راقت لي، وجدت نفسي أردد راجياً: "يارب".

٢٥

أحاول جاهداً القراءة، ولكن عقلي يرفض أن يستوعب ما أقرأه، أترك الكتاب من يدي، أعد القهوة وأجلس لأشربها.
لا أذكر كم فنجان قهوة شربته في الساعة الماضية، أشاهد التلفاز قليلاً، لا أركز مع شيء بعينه.

هاتفني زكريا بعد وقت يتساءل عن فوزية، أجبته بأنني تركتها في رعاية أم رضا ولا أعرف عنها شيئًا، طمئنني على كفاءة هذه المرأة وتمنى لي عامًا سعيدًا وأغلق الخط.
كلمتني سمية كذلك بعده وتمنت لي عامًا سعيدًا هى الأخرى، وطمأنتني على أولادها وأحوالهم، مجرد دقائق معدودة لكنها باهظة التكاليف بالتأكيد.

إنها ليلة رأس السنة والكل يتبادل التهنئة ويتذكر أحباءه، بعدها هاتفني رأفت أيضًا.
قد أوغل الليل ولازالت هي الوحيدة التي لم تهاتفني بعد.
أظل أفكر فيها وفي أحوالها وفي مشاعري تجاهها، أدخن وأجرع القهوة، أتأمل عقارب الساعة وأتنهد، أقلب الهاتف بين يدي، أتناوله وأتركه مئات المرات بانتظار مكالمتها كما وعدت.

أخيرًا - بعدما أحترق جهازي العصبي بأكمله - رن هاتفي، وتألقت شاشته باسمها وقد قاربت الساعة على منتصف الليل.

"ألو"..

أقولها بصوتي الخشن فتأتيني مثيلتها منهكة، ممطوطة، عذبة، تسكرني من جمالها.

يبدو صوتها أفضل حالاً من الصباح.

- كل سنة وانت طيب.
- وانتي بألف صحة وسلامة.. ربنا يشفيكي يا فوزية.. ويارب تكون السنة الجديدة خير علينا.

ثم أكمل بلهجة ذات مغزى:

- مع بعض.

تنحنح في حرج قليلاً ثم تقول في امتنان:

- شكرًا يا نادر.
- على إيه؟!
- على كل حاجة جميلة عملتها.
- أنا معملتش حاجة.. نفسي بجد اعمل حاجات كتير يا فوزية.. بس انتي مش بتديني فرصة.

تتنهد تنهيدة حارة تكاد تلهب أذنيّ، تصمت قليلاً ثم تقول:

- أنا نفسي تفهمني.. أحنا مينفعش يكون بينا أى حاجة.

أسألها في تردد يخالطه الخزي:

- بسبب ظروفي يعني؟
- لأ بسبب ظروفي أنا.
- مالها ظروفك.. طيب احكي لي.. أنا معرفش عنك حاجة.
- أنا بقالي ٣ سنين في مصر محدش يعرفني.. ومش عايزة أتكلم مع حد.. ومش حمل حد ف حياتي ياريت تقدر ده.
- بقالك ٣ سنين في مصر.. وكنتي عايشة فين قبل كدة؟

تتنهد وتصمت ثانية، وأنا أنتظر ردها. لا أريد أن أضغط عليها في شيء، أحاول في صبر استخلاص أى معلومة منها، أحاول التسلل إلى عالمها الذي تقصيني عنه.

أخيرًا أتى صوتها هادئًا:

- كنت عايشة برة.. بقالي ٢٠ سنة في إنجلترا.
- حمد لله على السلامة.. أنا أختي برضه بقالها تقريبا ٢٠ سنة عايشة ف أوروبا.

ثم أضفتُ في حذر:

- مع جوزها.

تنهدت وقالت:

- أنا كمان كنت مع جوزي يا نادر.

ألجمتني الصدمة وابتلعت لعابي بصعوبة، هى متزوجة إذًا ولهذا تقطع الطريق أمامي كلما حاولت التودد لها، ولكن أين زوجها من كل ذلك؟ بالتأكيد هو في الخارج وهي وحدها هنا.

ولكن لماذا هي وحدها هنا؟ ثم هى متزوجة منذ أكثر من عشرين عامًا، كيف؟! هل تزوجت طفلة في العاشرة، إنها لا تتجاوز الثلاثين بأى حال، لا أفهم شيئاً فألتزم الصمت.

بعد برهة سألتنى في حذر:

- أنت هتبعت لي ورد تاني؟

أجبت بصدق:

- كل يوم في نفس الميعاد.

ثم استدركت: ده طبعاً لو مش هيسبب مشاكل.

تسربت البهجة إلى حديثها وقالت في سرور:

- لا أبداً.. لما تبعت لي ورد بكرة هبعت لك جواب مع حماده.. هحكي لك فيه كل حاجة.

(حماده)؟! لقد تذكرت الآن فسألتها في حنق:

- حماده مين اللى كنتي مستنياه الصبح؟!

أطلقت ضحكة رنانة خلابة.. أصابتني بقشعريرة من فرط اللذة وقالت في دلال:

- حماده.. الولد بتاع الورد اللى بتبعتهولى كل يوم.

ضحكتُ أنا الآخر واعتذرتُ أنني لا أعرفه. أنا أعرف فقط حسين صاحب المتجر الذي صار صديقي.

ثم سألتها وقد انتابني الفخر:

- إنتي كل يوم بتستنيه في نفس الميعاد؟!

ضحكتْ ولم تجب بل قالت:

- كل سنة وانت طيب يا نادر.. فاضل خمس دقايق وتبدأ سنة جديدة.. أتمنى أمنية حلوة تحققها في السنة الجديدة.

كدت أنزلق في الكلام وأقول إنني أتمناها هى ولكني تمالكت نفسي، فقط تمنيت لها عامًا سعيدًا ودعوت لها بالشفاء.

وعدتني أن أول خطاب سأستلمه في العام الجديد سيكون منها. قالتها وتمنت لى ليلة طيبة وودعتني.

٢٦

الصباح الأول من العام الجديد، التاسعة صباحًا، أجلس وحيدًا في كشك الأزهار الذي نفد مخزونه من أشجار (الكريسماس).

لقد صرت (صاحب مكان)، يتركني حسين ليقضى حاجة ما ويعود بعدها، كان يترك المكان برعاية حماده ولكن هذا الأخير في رحلته اليومية الآن لتسليم أزهار فوزية، وأنا أنتظر عودته محملاً بخطابها الذي يفسر كل شيء كما قالت هي.

بعد دقائق عاد حماده على دراجته ليسلمني الخطاب لاهثًا، سألته عنها فأجاب أن (الشغالة) هي من تسلمت الأزهار وسلمته المظروف المغلق، هو يقصد أم رضا حتمًا، لابد أن فوزية لازالت تستريح في فراشها من إرهاق المرض.

لم أطق صبراً حتى أعود لمنزلي، استلقيت على مقعد خشبي أمام مدخل الكشك وتركته وحيداً بالداخل يرتب الأزهار ويتنظر الزبائن.

المظروف الوردى المعطر، أفضه لأطالع كلماتها بشوق يتجاوز شوق كل المغتربين.

"نادر..

ها هو خطابي الذي وعدتك به، وأنا امرأة تفي بعهودها حتى ولو كانت طريحة الفراش ودرجة حرارتها قاربت الأربعين مئوية.

قبل أي شيء أود أن أشكرك مرة أخرى على كل ما فعلته من أجلي، لقد أخبرتني أم رضا بكل شيء، أخبرتنى كذلك أنك من طهوت لى وجبتي الشهية، سلمت يداك، حقًا كان أفضل طبق حساء تناولته في حياتى كلها وألذ لحم دجاج تذوقته.

إني أشفق عليك من الكثير الذي لا تعلمه، ولكنى سأحاول توضيح الأمور لعلك تعي مقصدي.

سامحني لا أعرف كيف أبدأ حديثي، إن لي سنوات لم أحادث بشرًا، حتى لقد نسيت فن الحكي. لذلك دعني أحكي كما أحكي لنفسي في مذكراتي.

منذ خمسة أعوام كنت في الخارج كما أخبرتك.

لا، دعني في البدء أقص عليك قصة تعود لخمسينيات القرن الماضي، حينما كان كل شيئاً جميلاً، منمقاً، راقيًا، حينما كانت الإسكندرية أجمل بقاع العالم أجمع.

كان أبي (فؤاد بك) شريكًا في سلسلة متاجر كبرى للأقمشة مع (خواجة) مجري الأصل، كان المحل الرئيس في (المنشية) وكان الخواجة جوزميتش قد استقر في مصر كعادة الكثير من المجريين في ذلك الوقت لارتباطهم بالبريطانيين.

كان لدى أبي بنت وحيدة هى أختي (ميرفت) ابنة العامين في ذلك الوقت الذي تبدلت فيه جميع الأحوال، وضاع فيه كل شيء جميل إلى الأبد.

فى هذا العام المشئوم استولى العسكر على الحكم بمؤامرة دنيئة، وطردوا الملك من المحروسة كراهية، وتحولت مصر إلى دولة متوترة، تناصب العداء لكل كيان أجنبي، بعدما كانت قِبلة العالم بأسره.

كان (جوزميتش) مرعوبًا من هذه التغيرات، وكان يسعى للهجرة خارج البلاد والعودة إلى المجر. كانت البلاد تغلي طوال سنتين والعسكر يتآمرون على بعضهم البعض ويتنازعون على المناصب فيما بينهم، وقد استولت حكومتهم على كل مليم استطاعوا الوصول إليه.

فى هذا الوقت كان (الخواجة) قد هاجر سرًا بأسرته، ترك البلاد متسللاً ليلاً كأي لص هارب بعدما كان هو وأمثاله من أعمدة الاقتصاد في تلك الدولة، ترك أبي وحده يتحسر على متاجره التي نهبتها منه حكومته الجديدة باسم الشعب!

لم يتركوا لنا من أملاك أبي سوى بيت العائلة في طنطا وعشرة فدادين من أصل ثلاثمائة كانت ملكًا لأبي، وتورط العسكر بعدها في حرب ٥٦ بلا سبب منطقى. تلك الحرب المخزية التي دمرت (بورسعيد) الجميلة، الأنيقة، التي كانت أجمل من كل مدن أوروبا جمعاء.

فى هذا العام الكئيب جاءت بي أمي إلى ذلك العالم الموحش.

أسمانى أبي (فوزية) تيمنًا باسم الأميرة (فوزية فؤاد)، حبيبة المصريين كما كانوا يلقبونها.

كانت أجمل امرأة خطت على أرض المحروسة في زمانها، كائن شديد الرقة ونقاء القلب وصفاء الروح، أميرة للقلوب جميعها، كانت أكثر أفراد الأسرة العلوية شعبية وحبًا في قلوب المصريين. كانت بالفعل تمثل للمصريين ما تمثله الأميرة (ديانا) للبريطانيين، أو ربما كانت أكثر من ذلك.

هل تعلم أنه عندما رآها (تشرشل) لأول مرة قال عنها:

"لقد رأيت إحدى حوريات ألف ليلة وليلة... تسكن قصرًا أشبه بقصور الجنة".

وهكذا حصلت على اسمها، ولا أدعي تواضعًا، لقد كان لي نصيب من جمالها أيضًا بل ربما بعض من حظها العاثر.

كان أبي قد استقر بنا في طنطا بجوار إخوته ونسي كل شيء عن الإسكندرية. كان يقضي الليالي في التدخين وقراءة الصحف القديمة التي تحكي أمجاد الماضي، يسترجع أيام العزة ويتحسر على حال البلاد ويلعن العسكر.

حتى فاضت روحه ذات ليلة بسبب ذبحة صدرية.

بعد سنوات كئيبة من المعاناة، تزوجت أختي من ابن عم لي. بدت حياتها مستقرة هانئة، وكان لها نعم الزوج ولي نعم الأخ. ساندني كثيرًا حتى التحقت بالجامعة، كنا في سنوات ما بعد الحرب مباشرة وقد أنهكت البلد كثرة الحروب، وتقلصت أطرافها كثيرًا وضاق الحال بكل أهلها، إلا أن أحدًا لم يكن يملك حق التذمر.

فى تلك الأثناء وبعد العديد من القضايا، أعادت لنا الحكومة نذرًا يسيرًا من أملاكنا. أحد المتاجر الصغيرة في المنشية وشقة في (شارع فرنسا) كان يستغلها أبي كمخزن.

كنت شغوفة طوال عمري بكل ما هو بريطاني نبيل، منمق، كما كان يحكي لي أبي. أعشق شعر (كيتس) و(مليتون)، وأرى نفسي (أوفيليا) و(جولييت) في مسرحيات شكسبير.

هكذا درست الأدب الإنجليزي في جامعة الإسكندرية، كنت أكثر تفوقًا من أقراني بفعل قراءاتي السابقة، وكانت سنوات الجامعة من أزهى سنوات عمري بالفعل.

معذرة لقد أرهقتني الكتابة، ولا أستطيع الاستمرار. فقط تذكر أنني أكبرك بعشرة أعوام كاملة يا (نادر). تقبل اعتذارى مرة أخرى.

مع خالص محبتى..

فوزية"

انتهيت من قراءة الخطاب مرتين، وجلست أفكر.

هذه الفتاة التي تبدو في أواخر العشرينات أو بأكثر التقديرات قسوة في الثلاثين من العمر، هى في الواقع في الثالثة والأربعين من عمرها!! كيف هذا؟ وبأية معجزة فعلتها؟

إن أمي التي ماتت في الخمسين من عمرها كانت لتبدو بمثابة أمها.

عجبًا إنني شخصيًا أبدو أكثر منها شيخوخة واعتلالاً.

ثم هي ابنة (بك) حقيقي، حقًا هى تنتمي لهذا العصر بشدة، تبدو (ليدي) أو (أميرة مقاطعة) شديدة الشبه بالأميرة فوزية كما أذكرها من الصور القديمة التي كان يقتنيها أبي على سبيل التذكارات.
ربما لهذا أراها تشبه (هيدي لامار)، كنت دائمًا أخلط بين الأميرة فوزية و (هيدي لامار)، أراهما متشابهتين حد التطابق!

كانت فوزية متحاملة جدًا على ثورة يوليو. ملكية أكثر من الملك كما يقولون.
تتندم على أيام الفساد والإقطاعيين، والدمار الاقتصادي ونكبة الاحتلال.

الحقيقة أنني برغم عزوفي عن السياسة والاهتمام بأمورها إلا أنني ابن الحزب بشكل ما، قد كان أبي أحد أعضائه البارزين، ومحفوظ غالي أبو محسن كذلك بل إن محسن كادر شديدة الأهمية وقد يصير وزيرًا في الحكومة الجديدة.

زكريا كذلك عضو بارز بالحزب، حتى زملاء السجن كانوا ينتمون إلى الحزب (حاتم) و(فوزي) و(عزت)، حتى المجرمون الوضيعون كانوا يتعاونون مع رجال الحزب بشكل أو بآخر.

أنا لم أصادف في حياتي شخصًا لا ينتمي للحزب بصورة أو بأخرى، ربما باستثناء بعض المساجين الذين ينتمون إلى جماعات إسلامية متشددة، (الإرهابيين) أعداء الشعب كله كما تصورهم السينما.
فوزية هى الوحيدة التي ترى أن حكومة العسكر أفسدت البلاد ونهبت خيراتها، تقول عكس ما تعلمته على مدار عمرى كله. هل تتوقع مني أن أصدق ذلك لمجرد أنني أحبها.

ولكنها قد تكون على صواب في بعض الأشياء. أليست المناهج التعليمية توضع لخدمة الحكومة، أليست أجهزة الإعلام هى أبواق دعاية موقوفة على إنجازات وروعة الحكومات المتعاقبة؟

"إن من يملك الحاضر يملك الماضى، ومن يملك الماضى يملك المستقبل" قالها (جورج أوريل) في (١٩٨٤)
ولقد اعتدت من قراءاتي أن التاريخ كله ما هو إلا أكذوبة كبيرة يؤلفها أصحاب السلطة لتمنحهم المزيد من الهيمنة.

استغرقني التفكير حتى عاد حسين هاشًا يسألني عن أخبار (حبيبة القلب)، كان متحمسًا لقصتي أكثر مني فيما يبدو، جاوبته بكلمات مقتضبة متعددة المعاني لم يستخرج منها معلومة مفيدة واستأذنته في الرحيل وانصرفت.

فور ابتعادي بمسافة قليلة أخرجت هاتفي وطلبت (فوزية)، لم تجب فعاودت الاتصال أكثر من مرة حتى أتاني صوتها أخيرًا في لهجة يشوبها الضيق تستفسر عن مرادي.

"على فكرة هما مش عشر سنين.. انتي أكبر مني بتسعة بس".. قلتها مازحاً فلم ترد.

"فوزية..إنتي عقلك أكبر من التفاهات دي بكتير.. وأكيد مش فرق السن بينا هو اللى هيسبب لك مشكلة"

لا ترد.

"بلاش تردي طيب وطمنيني عليكي النهاردة"

"الحمد لله"

هكذا فقط ولم تزد حرفاً.

"أم رضا عاملة ايه معاكي"..

أقولها متسولاً أي كلمات تخرج من حنجرتها الملتهبة، بعد هنيهة قالت بلهجة قاطعة:

- متتصلش بيا تانى خالص.. بكرة هبعت لك جواب تانى.. وانت رد عليا بجواب لو حبيت.. بس بلاش تكلمني في التليفون.. باي.

ألجمتنى المفاجأة بعدما أغلقت الخط بهذه الصورة السمجة، لم أعرف ماذا أفعل سوى العودة إلى منزلي بحثاً عن الصحبة لدى أسماكي العزيزة.

٢٧

رنين هاتف طويل يتسرب إلى وعيي، أفتح عينيّ بصعوبة لأتناول الهاتف من الشاحن المجاور لوسادتى، أجيب فيخرج صوتي متحشرجاً من أثر النوم.

زكريا يطمئن عليّ، ويخبرني بأن فوزية صارت أفضل، وأنها طلبت من أم رضا بكل تهذيب أن تنصرف لشئونها، يقول إن (أم رضا) تؤكد على كلامها، وتظنها تخفي حزنًا دفينًا داخلها يسيطر، يؤلمها أكثر من وعكتها الصحية. يسألنى عن خطوتي المقبلة فلا أملك جواباً. أنظر لساعتي فأجدها تقارب الظهيرة، أحاول إنهاء الحديث معه، لكنه يلح على لقائي، بعدما وافقت على مضض، أعطانى موعداً في السابعة مساءً في المقهى المعتاد. أنهي حديثي، أنهض مترنحًا، أحاول استيعاب الموجودات حولى.

بعد ساعة كنت في الشارع أحث الخطى نحو كشك الأزهار، لا أدري لماذا نمت كثيراً هكذا وفوّت على نفسي استقبال خطاب اليوم. أدلف إلى الكشك فيسألني حسين إن كنت قد تناولت إفطاري بعد، أجبته بالنفي، فتحرك من خلف مكتبه وتركني أجلس مكانه، ناولني الخطاب في يدي وأخبرني أنه سيتركني قليلاً كي أقرأه ريثما يحضر لنا إفطارًا من عربة فول قريبة. أوصانى بالانتباه للكشك لحين عودة حماده من توصيله في الخارج، وتركنى وانصرف.

"نادر..

لازلت مصرًا على معرفة باقي قصتي إذن. دعني أعترف لك بأن أكثر ما يجذبني إليك هو إصرارك لبلوغ النهاية. رجل مثلك يستحق الاحترام بالتأكيد. أرى في عينيك نظرة مشابهة لعينيّ. فرحة شبه مكتملة، يقتنص منها الحزن المستتر جزءًا كبيرًا، فلا يظهر وضاحًا للعيان ولا يتركها تتكامل.

نظرة (الوصيف) التي أعرفها جيدًا..

هل أخبرتك أنني كنت ملكة متوجة في سنوات دراستي. كنت مثارًا لحسد كل طالبة في الكلية بل ربما في الجامعة بأكلمها، هل تعرف لماذا؟

السنة الثانية من الدراسة عاد إلى القسم د. أحمد بدران أخيرًا. أستاذ الأدب الإنجليزي الذي أوفدته الدولة ليحصل على الدكتوراه من جامعة (برمنجهام)، كان شاباً مُجدًا في دراسته، في بداية العقد الرابع، شديد الوسامة كنجوم السينما، قوى البنية، يفيض مظهره بالرجولة الأنيقة.

(جنتلمان) حقيقى كما يبدو (جيمس بوند) في أفلامه، كان منصبه العلمي مرموقاً، سليل عائلة ثرية، وقد أكسبته سنوات التعامل مع الإنجليز الكثير من طباعهم في تقديس العمل، واحترام الوقت وقواعد (الإيتيكيت) المهذب.

كان باختصار شديد فارس أحلام كل فتاة تراه، وبالطبع يمكنك الاستنتاج، لم يلتفت إلا إليّ.

كنت من ذات عالمه إلى حد كبير، ولم تنقض السنة الدراسية حتى كان يحيط بنصري الأيمن خاتم رقيق بماسة تخطف الأبصار من على بعد كليومتر، لم تكن (دبلة) ذهبية كعادتنا، بل خاتم زواج على الطراز الغربي، ولك أن تتخيل كم كنت أرفل في السعادة حينها.

بعد عام واحد فقط، بدا غير قادر على التكيف مع المجتمع في شيء، أخلاق الانفتاح كانت تصدمه دوماً، تشعره بالاغتراب.

يغرق في مستنقع من الكلمات التي لا يفهمها، القناعات التي يلفظها ولايقبلها، الوجوه القاسية الكئيبة التي لا يألفها.

تهالك شبكات الكهرباء يثير جنونه، انهيار شبكات الهاتف يشعره بالعزلة. الطرقات المتهالكة والخدمات الحكومية المنعدمة توحي له بأنه في الكونغو.

لم تكن هذه مصر التي عرفها في الماضي.

دائماً ما كان يردد أننا ربحنا الحرب لنخسر أنفسنا.

وهكذا كما توقع الجميع كانت مراسلاته مستمرة بجامعة (برمنجهام)، احتمل في صبر وجلد لعام آخر حتى أنهيت دراستي الجامعية، ثم تزوجني ورحلنا معاً.

رباه، كنت وقتها أشعر أنني قد متُ وبعثت في الجنة. كان حلماً طويلاً، مجسدًا، بمشاركة أعظم رجال الأرض.

كان يحبني بحق، ولم يخف حبه عني في أية لحظة. لا أظن أن هناك رجلاً دلل امرأته كما فعل معي. كان يعاملني معاملة الملكات، يخلق لي كل يوم عالمًا جديدًا من المتعة التي لا تنقطع.

كنت أحيا في أنظف بقاع الأرض. تحيط بي الطبيعة الساحرة من كل جانب، بمصاحبة أشخاص كل شيء لديهم واضح، لا يمارسون الخداع طيلة الوقت. كنت هانئة بالمدينة، وبزوجي، وبأصدقائي الجدد. كل شيء كان مثاليًا تمامًا، كأن العالم كله يحمل على عاتقه مهمة إسعادي.

تلك كانت حياتي يا نادر قبل أن أعود إلى مصر. صدقتني لقد عدت لأجدها أسوأ ألف مرة مما فررت منه في السبعينيات.
لا يوجد هنا أي شيء سهل، حتى ركوب سيارة أجرة هو مغامرة تقتضي بعض الحيلة والكثير من الشجار أو الاستسلام للسرقة، لهذا السبب تحديدًا اقتنيت سيارة برغم كراهيتي للقيادة التي لا أجيدها كثيرًا.
نادر..
يكفي هذا الحد، أرجوك التفت لنفسك قليلاً، ابحث عن ذاتك المفقودة التي تسعى وراءها كما أخبرتني من قبل، حاول أن تحيا كما تريد أنت، وليس كما تجبرك الظروف.
مع محبتي..
فوزية"

طويت خطابها وقد استشاط غضبي، هي إذن متزوجة بالفعل وجل ما فعلته أن تغنت بزوجها الأسطوري، لم يفدني شيئًا أن أعرف كم هو رائع عظيم الشأن، يعشقها بجنون.

تباً للنساء، لا يفعلن سوى إثارة السخط، تارة ترسل لي خطابًا (سياسيًا) وأخرى ترسل لي خطاب غزل في زوجها، وتتركني بدون معلومة واحدة أكيدة.

كان حسين قد عاد، وأعد لنا مائدة إفطار عامرة بالمقليات التي تفتك بالقولون.
فلافل، باذنجان، بطاطس، بيض مقليّ، حتى الفول يأتيني به غارقاً في الزيت الحار، لِمَ كلما شاركت أحدًا الطعام أصر على مقتلي، زكريا يحاصرني بالطعام الحار، وحسين يغرقني في الزيت.

كنت ساخطًا، ربما أشعر بالغيرة كذلك، وقد تحملنى حسين بنفس راضية، راح يواسيني وهو يلتهم هذه المتفجرات في نهم.
كان حسين طيب القلب، عاطفيًا بشدة، يبدو أنه يتاجر في الأزهار من باب الهواية وليس طلبًا للربح.

بعد الأفطار والكثير من أكواب الشاي السوداء التي تزيد من عذابات المعدة، أخبرته أنني سأعود إليه في المساء، كنت أزمع أن أختلي بنفسي وأفكر جيدًا، سأرسل لها خطاباً أنا الآخر، أبلغته بذلك وانصرفت عائدًا لمنزلي.

٢٨

بعدما قرأت رسالتها للمرة الثالثة استوقفتنى عبارة لم أعها جيدًا.

"في عينيك نظرة (الوصيف) التي أعرفها جيدًا"

ماذا تقصد بذلك؟ وأى وصيف هذا؟

الوصيف كما أعرف هو خادم الملك الأول بل أحيانًا هو مربيه كذلك، ينصت الملك لنصائحه، ويلازم مولاه في كل مكان، يعرف كل أسرار المُلْك.

هل هذا ما تقصده؟ وما هى نظرته التي أمتلكها أنا؟

امرأة سخيفة، تفتعل الغموض، وتنفر مني دون أسباب وجيهة، والأدهى إصرارها العجيب على تبادل الخطابات وكراهية الحديث في الهاتف، هل هاتفها مراقباً؟ لا أظن ذلك، من سيراقبها ولم؟ امرأة تحمل هاتفًا محمولا وتمتلك كمبيوتر حديث تصر على تبادل الخطابات كأنها لازالت في العصور الوسطى.

كنت متحاملاً عليها بالفعل، ربما لم أصارح نفسي أنني متحامل عليها لأنني فعلا أحببتها.

سحقًا، هل يستحق قلبي الذي لم أستعمله من قبل حباً مبتوراً من طرف واحد، يبدو أن كل مصائري تتشابه، سأنال من الحب ما نلته سابقاً من التمثيل.

حزيناً، بائساً، لا أدرى ماذا أفعل.

أخيراً أبدلت ملابسى وخرجت أسير في اتجاه المقهى، قد صار الآن بعيدًا عني ولكني فضلت السير حتى أخفف من حدة توتري.

لاتزال الساعة الخامسة، وموعدي مع زكريا في السابعة، وهكذا أجلس وحيداً أفعل الشيء الوحيد الذي أجيد فعله.

أطلب من الساقي كل المشروبات المدونة في قائمة الأسعار بالترتيب وأنتظر.

جاء زكريا بعد انتهاء (الحلبة باللبن) حمداً لله أنه أنقذني من (العِناب) الساخن، فهم يقدمونه هنا رديئاً جدًا.

يسألني زكريا عن فوزية فأخبره بما عرفت، يندهش أكثر مني حينما يعرف سنها، ولكنه يبتسم ويهز رأسه في فهم ويسألني:

- وطبعاً سنها ده أكبر مشكلة بالنسبة لك؟

أبتسم في سخرية مريرة وأجيب:

- لا طبعا عمر السن ما كان مشكلة في الحب يا زكريا.
- لا طبعاً مشكلة كبيرة.

بس مش في الحب.. في الجواز.. دى عدت الأربعين سنة يا بني.. مش هتعرف تخلف وهتعجز وتكرمش وانت لسه بصحتك.

عند هذا الحد لم أتمالك نفسي من الضحك عاليًا، مما لفت نظر الجالسين حولي، وهو ينظر لي بغل من أفعالي الصبيانية. لماذا لا يكون أكثر منطقية ويستوعب الأمر الواقع جيداً.

قلت له بعدما تمالكت نفسي واعتدلت في مجلسي:

- أولاً أنت شايف شكلها.. أنا شكلى أكبر منها بكتير.. ثانياً بقى.. الست مش بشكلها يا زكريا.. الست بروحها..الأنوثة في العقل مش في الجسم والملامح.

لم يتمالك وقاره وغالبته نوبة من الضحك أعلى مما فعلت. حتماً يظن رواد المقهى أننا معتوهان أو على الأقل مسطولان.

كان يسخر من الهرطقة التي يسمعها كأنني أقصص عليه أضحوكة، حاولت تهدئته وطلبت منه الاستماع إليّ بجدية، كان مستمراً في الضحك وأنا أتأمله في صمت بانتظار فراغه حتى استعاد أنفاسه والتفتَ إليّ بملامح جادة، وسألني:

- ماشي أنت حر ف نفسك.. بس الخِلفة يا نادر.. هتموت كده لوحدك يعني.. من غير ما تشيل عيل تفرح بيه.. عيل يسندك ف شِيبتك؟

حاولت أن أستجمع كل لباقتي في الحديث كي أرد عليه، لم أجد ما أقوله دون أن أجرح مشاعره، إن زكريا يسقط مخاوفه الشخصية عليّ.

هو من كان يتمنى أن يتزوج وينجب ولداً يصادقه، لهذا أفهم جيداً لماذا يحبني، لقد اتخذنى ولده برغم أنني لم أشرفه في أى عمل سبق أن قمت به.

ولكن أنا أختلف عنه في الكثير، أنا بالفعل وحيد تماماً، لا يهمني الإنجاب من عدمه، ماذا أقدم لطفل لا أقوى على تربيته وأنا لا أعرف كيف أكون مسئولاً عن نفسي، أنا أبحث عمن يعنى بي وليس من أعنى به أنا.

لذلك قلت في اقتضاب:

- مش فارقة معايا يا زكريا صدقني..أنا عندي مشكلة أكبر من كده.
- مشكلة إيه تانى؟ خير؟

"فوزية متجوزة"..

أقولها في يأس، في حرقه، في حزن يرسم الإشفاق على ملامح زكريا.

لحظات مرت وهو صامت يفكر.

ثم عاد يسأل:

- وفين جوزها ده؟! البنت عايشة لوحدها خالص.. مفيش جنس راجل دخل بيتها.

سألته مندهشاً:

- وانت عرفت منين؟

أجاب مبتسماً:

- أم رضا قالت لي..

أم رضا مش سهلة وفاهمة كل حاجة.. دى مخبر يا بني.. وكانت بتهرس في البيت وهى اللى غسلت لها وروقت دولابها وعارفة كل حاجة عندها فين وبتاعة إيه.

شعرت باطمئنان قليلاً ثم عدت أقول:

- بس هى قالت كده في الجواب بتاعها.
- يمكن جوزها سابها.
- سابها؟!
- أه.. جايز مات ولا طلقها ولا اتجوز عليها.. إيه اللى يخليها تعيش معاه ٢٠ سنة وبعدين ترجع لوحدها مصر؟
- والله معاك حق.. هسألها عشان يبقى الكلام جد.
- بس خد بالك.. انت برضه مقولتش هتعمل إيه.
- هعمل ايه يعني.. لو زي ما بتقول كده هتجوزها فوراً.
- ماشى هتتجوزها وماله.. بس هتتجوزها إزاي؟!

هو الجواز بالساهل كده؟

- قصدك ايه يعني؟

- قصدي تشتغل.. تِرْكزْ بقى.. مش عايز تفتح بيت.. إيراد التاكسي ده بيكفي مصاريفك بالعافية.

انتابني الضيق الشديد لأنني أعلم أنه يتحدث بالحق، قد ضغط على موطن آلامي بقوة، نعم لازلت عاطلاً، خائباً، لا أصلح في شيء.

- إن شاء الله.. حاضر.

قلتها مستسلمًا فقط كي أنهي الحوار، حقاً هو ينطق بالصدق ولا أعرف ماذا أفعل كي أتزوجها، هذا بالطبع إن كانت غير متزوجة أصلاً.

إن هذه المرأة شديدة التعقيد في كثير من الأشياء، ولابد من توضيح كل الأمور حتى أستطيع اتخاذ قرار مفيد في النهاية.

ودعت زكريا ونهضت في طريقي إلى كشك الأزهار كي أحسم هذا الموقف نهائياً.

وصلت إلى حسين فسألني عما أشرب إلا أنني كنت قد اكتفيت، ناشدته أن يتركني دون أي شراب، فقط طلبت منه ورقة وقلمًا كي أكتب لها خطاباً يلحقه بأزهار الغد.

قام على الفور إلى مكتبه وفتح درجه في سرور بالغ كي يخرج لي طلباتى وكأنها معدة سلفًا، نظرت له مستفهماً فقال:

- كنت محضرهم لك..أنا واثق أنك مش هتبطل تبعت لها ورد.. انت إنسان مخلص.. وبتحب بجد يا نادر.

ابتسمت وشكرته.

حقاً كان حسين يثق في قوة حبي أكثر مني، يتمني لحظة أن تتوج هذه القصة بالزواج كأي فيلم عربي قديم. كان يؤدى دور (سنيد) البطل ببراعة لم يجدها (عبد السلام النابلسى) شخصياً. وهكذا أجلس على مكتبه، أعتصر ذهني كي أكتب لها الرسالة المنشودة.

"حبيبتي فوزية..

نعم حبيبتي. لقد أحببتك منذ النظرة الأولى، وآن وقت اعترافي بذلك لنفسي قبل أن يكون لك.

كل ما أراه فيك يفتنني، أنت بناظري المرأة النموذجية في كل شيء، بل إنك الوحيدة التي تستحق لقب (المرأة)، ما دونك من النساء مجرد مسوخ وأشباه إناث.

برغم أنك أخبرتني بزواجك إلا أنني أشك في أنه مازال قائمًا. أُمنّي نفسى بأنك حرة الآن وتملكين حق اختيار زوج آخر. إن كان الأمر كذلك أرجوكِ أن تطمئني قلبي، وإن كان زواجك قائماً فأعدك أن تكون تلك آخر باقة أزهار تصلك مني وآخر رسالة تحمل اسمي.

لا أملك الكثير لأقوله في الوقت الحالي ويكفي أن الفضول يقتلني، ولكني سأنتظر ردك بفارغ الصبر. لا أدرى لماذا تصرّين على تبادل الخطابات ونحن في نهاية القرن العشرين، ولكني أتقبل منك كل شيء، بل أحبه كذلك. فقط أرجو أن تخبريني بحقيقة زواجك حتى أهدأ بالاً. لك كل المحبة الصافية..

نادر نصار

٩٩/١/٢

ملحوظة: ماذا تقصدين بنظرة الوصيف؟"

أنهيت خطابي ووضعته في المظروف الأنيق الذي أتانى به حسين، سلمته إياه ونهضت من مكاني، دعاني للبقاء أكثر ولكني كنت أفضل الانصراف.

غادرت المكان دون أن أنبه عليه ألا ينسى الخطاب مع الأزهار.

هو أكثر حرصاً مني على إيصاله بكل الأحوال.

٢٩

"نادر..

لازلت على عهدي بك.

مقاتلاً، لا تستسلم أبداً، برغم هزائمك المتكررة في معركة الحياة.

هذا الإصرار هو ما يجعلني أرضخ.. أتحدث.. أصدمك بالحقائق علها تشفيك من حمى التعلق بأمل واه.

الوصيف هو البديل الاحتياطي للبطل، صاحب المركز الثاني، حائز الميدالية الفضية.

هو الشخص الذي كاد أن يتوج بطلاً ولكنه لم يفعل.

الذي بذل جهداً متواصلاً لسنوات، وتفوق على كل أقرانه كي يحوز الجائزة ولكنه لم يبلغ خط النهاية، ربما منعه عنها إخفاقة واحدة فقط نقلته من خانة الفائز إلى خانة الخاسرين.

ينزوى بعيداً منسياً بينما الفائز يأخذ كل شيء في النهاية.

فى الأوليمبياد يحصد البطل الجائزة وحده ويسجل اسمه في تاريخ الرياضيين، وينزوى الوصيف ليختفى تماما بسبب تأخره لكسر من الثانية في الجولة الأخيرة.

الوصيف لا أحد يذكره يا نادر أبداً، وحتى حين يتذكره أحد فهو يذكر له هزيمته فقط.

هل تابعت مباريات كأس العالم في العام الماضى؟
لقد سمعت أحدهم في الطريق يقول لصاحبه إن (البرازيل) هُزِمت من (فرنسا) بثلاثة أهداف مقابل لا شئ.
لم يذكر له مشوار البرازيل الناجح طوال البطولة، لم يذكر انتصاراتها المتتالية، كل ما ذكره هو لحظة الهزيمة الأخيرة بعد مشوار طويل مضن.

وعلى منصة التتويج تجد البطل محط الأنظار جميعها، تتألق على وجهه كل إضاءات كاميرات المصورين، يقف مزهواً، سعيداً، منتشياً.
ويبقى الوصيف حاملاً ميداليته الفضية يخالجه شعور قاتل من الأسى الممتزج بالفرحة.
تطل من عينيه ذات النظرة، فرحاً بما أتاه، حزيناً على ما فاته.
فخوراً بما وصل إليه، متحسراً على إخفاقه في لحظة واحدة كادت أن تجعله أسطورياً.

أنت مثلي وصيف في حياتك، كدت أن تبلغ أحلامك كلها لولا خطأ واحد ارتكبته.
نقص واحد فينا أخرجنا من بطولة الحياة صفر اليدين، نتوارى في الظل، لا يذكرنا أحد.

أنا لا أنجب يا نادر.

طوال خمس سنوات كاملة مرت على زواجي لم يعر أحمد اهتماماً بالموضوع، كان يعاتبني إذا طلبت منه البحث عن علاج، يرفض ذهابي للأطباء كي يجعلوا مني فأر تجارب يختبرون فيه فاعلية عقاقيرهم.

كنت أذهب دون علمه أحياناً وأحاول العلاج بمعرفتي، كنت مثل كل امرأة تحلم بالأمومة، إضافة إلى ذلك فأنا أعشق زوجي، أتمنى أن أنجب طفلاً يشبهه، أريد أن أشعر بجزء منه يتحرك في أحشائي.

وكان دومًا يحاول أن يفعل ما يسعدني ويحقق لي ما أريد.

بعد إصرار مني بدأ يصطحبني إلى أكبر مراكز الإخصاب في بريطانيا، ولكن لم يُجْد الأمر.

سافر بى مرتين إلى ألمانيا الغربية ومرة واحدة إلى الولايات المتحدة.

كنت ألهث وراء كل أمل وهو لم يدخر جهدًا، يضمني إلى صدره الحنون ويطمئنني، يخبرني أنه يحبني في كل الأوقات، وإنه يشفق عليّ من تجارب العلاج. ينصحنى أن نترك الأمر بيد الله وحده وننتظر.

أستجيب لحديثه أحياناً، وأحياناً أخرى يغلبني ضعفي فأجدد رحلة السعى.

حتى تغير كل شيء في ذات يوم.

أذكر أن الموضوع بدأ بعد عيد زواجنا الثامن عشر. كان قد تجاوز الخمسين من العمر، وأنا يفصلني على الأربعين عامين أو أقل. هنا فقط انهارت مقاومته، بدأ يفيق من سكرته ويعي المأزق الذي يحيا فيه، يدرك أهمية أن يكون له ولد.

بدأ يسبقني إلى مراكز الإخصاب، ويطوف بي العالم بحثاً عن تقنية أفضل.
كان العلم قد تقدم كثيراً وبدا في الأفق العديد من الآمال لحالات مثلي. إلا أنى بقيت كما أنا.
كنت أتامل حياتي وقد منحني الله فيها كل شيء، أعد النعم في حياتي فلا أحصيها. كانت حياتي تقترب من الكمال المطلق لو لم أكن أملك (Rudimentary Horn) أو الرحم ذا القرن الإضافي كما شخص الأطباء الألمان حالتي.

كانت اختبارات الخصوبة لدى (أحمد) تقل كل عام عن سابقه، بات وشيكاً أنه في سبيله إلى الإصابة بالعقم هو الآخر. خطابات أختي تعذبني، وكذلك خطابات أهله هو، بدأ يصير أكثر عصبية وشرودًا، وأقل مرحاً وطبعاً أقل حباً بكثير.
بعد مرور عام آخر لم يعد يحتمل الأمر وصارحني برغبته في الزواج ثانيةً.
كنت أتوقع شيئًا كهذا على كل حال، إلا أنني لم أملك القوة على مواجهة هذا الأمر.
كيف تشاركني أخرى هذا الرجل الكامل الذي أملكه وحدي؟ كيف أسمح لأخرى بأن تنال ما كنت أناله أنا. ولكنني أحبه، أرى أنه سيكون أفضل أب في الوجود كما كان أفضل زوج ومن قبل أفضل ابن.

هو يستحق ذلك، أسأل نفسي كم ضحى من أجلي؟ لقد احتملني عاقراً عشرين عاماً تقريبًا، منحني كل ما يملك خلالها. هل أضن عليه بتضحية بسيطة مثل تلك؟

تدور الأفكار برأسي في عنف، يصيبني أرق مزمن لا تقدر عليه أقراص المهدئات، أزداد شحوباً ونحولاً، ويزداد حزناً وعصبية.

يقول إنه سيتزوج فقط بهدف الإنجاب، يقول إنني ملكة قلبه الوحيدة، يقول إنه سيبقى للأبد يحبني وحدي.

كنت أسمعه وأنا أتعذب. هل حقاً لن يحبها؟ وحتى إن فعل، على الأقل سيعاملها بلطف وحنان وكرم كطبعه.

هي التي ستحبه وتتشبث به، وهذا ليس عسيرًا، أية امرأة تقترب منه لمدة خمس ثوان تهيم به حباً.

يقول إنه لن يفعلها إلا بإرادتي، يقول إن سعادتي أهم أولوياته، فإن لم آذن له بالزواج من أخرى فلن يفعلها. ولكنه يعود ليرجوني أن أفكر من أجله.

وهكذا أقضي شهوراً ممزقة بين صراع الواجب ونداء العاطفة، كما يحدث في تراجيديات شيكسبير.

أخيرًا انتصرت لواجبي ووافقت على زواجه من أخرى.

خلال شهرين فقط كان قد اتخذ كافة الإجراءات كي يتزوج إحدى قريباته التي لا يعرف شكلها حتى. لقد رشحتها له أخته.

أخته منال صديقتي وتحبني بالفعل، كانت متعاطفة جدًا معي، تبكي كثيراً حين تحادثني في الهاتف، ولكنها في النهاية تحب أخاها أكثر بالتأكيد.

أتت العروس الجديدة لتقيم في أحد المنازل المجاورة لنا في شارع (كوفنتري) أو شارع العرب كما يطلقون عليه، كنا نقطن فيه بصحبة الكثير من العرب بالفعل، يقولون إن أكبر تجمع للمسلمين في المملكة المتحدة كلها في هذا الشارع وما حوله.

المهم، تم تحديد ليلة العرس، وكان كل شيء يتم بسرعة وكان أحمد متلهفاً يشعر بأن الزمن يسابقه.

ليلة زفافهما كنت أقيم في منزلي بصحبة منال التي حضرت من مصر مع العروس، كانت تحتضنني وتواسيني، تعد لي شراب الكاموميل ليهدئني وتحاول أن تهوّن عليّ الأمر، ولكن..

ما كان عقلي ليرحمني.

أراه بعين الخيال يرتع في أحضانها، يهمس في أذنها كما يهمس في أذني. ترى هل سيقبل ركبتها كما كان يفعل معي ليدغدغني ويثير ضحكاتي؟ هل سيحملها إلى الحمام بيديه ليريحها في المغطس ويبدأ في تدليك عنقها وكتفيها كما كان يفعل معي؟ هل سيمشط لها شعرها بنفسه ويدللها كابنته كما كان يفعلها معي؟

تهاجمني الصورة فأصرخ ولا أملك أن أتمالك نفسي، كل ما كان لي خالصًا، مميَّزاً، كل ما كان يجعلني أميرة في حضرة فارسها. كل هذا تبخر، ذهب إلى امرأة أخرى في نصف عمري.

بالتأكيد هى أجمل مني، ترى كم مرة سيمارس معها الجنس كل ليلة؟ أتذكر ليلة عرسنا وأنتحب أكثر، أصرخ، ألطم على صدغي كما تفعل المكلومات في القرى.

يسحقني القهر، ولا تفلح محاولات منال لتهدئتي، إنها شريكته في جريمته تلك، هي من اختارت العروس، هى من شجعته على ذبحي بسكين المنطق البارد.
أسبها وأصرخ.. أتذكره وأصرخ..
أنظر لهيئتي في المرآة..
شاحبة، محمرة العينين، مشعثة، أخفي شيب شعرى بالصبغات، والتجاعيد المحيطة بعينيّ بمستحضرات التجميل، وأصرخ..
أصرخ حتى تميد الأرض تحت قدميّ.

أفقت في المستشفى لأجدهم حولي جميعًا، أحمد، منال، رشيدة جارتي، طبيب وممرضتين. يقول الطبيب أنني أصبت بانهيار عصبي وأنني فقط أحتاج للراحة لمدة يومين في المستشفى، أحمد يقترب مني دامع العينين، يلثم يدي ويرجوني أن أسامحه على ما فعل.
أشيح بوجهي عنه وأنا أبحث عن صوتي حتى وجدته، ألفظ بكلمة واحدة فقط.."طلقني".

بعد محاولات مستميتة من كل الأطراف ودموع انهمرت تعادل الأطلنطي. أخيرًا رضخ أحمد لطلبي وقد تفهم موقفي.
ما كنت أحتمل المزيد، لا أحتمل أن يعود لي من عندها لينام في أحضاني فأرى الخدوش على جلده من آثار أظفارها، ما كنت أحتمل أن يأتى عليه اليوم الذي يناديني باسمها شاردًا، لهذا أصررت على الانسحاب.

تكفيني عشرون عامًا من السعادة المطلقة ولأتركها تنعم به ما تبقى له من العمر.

كان أحمد كريمًا في حبه كما هو كريم في كل شيء، رفض تطليقي إلا بعدما قبلت أن أحصل على مبلغ منه يكفل لي حياة كريمة من بعده، كنت زاهدة في كل شيء لكنه وضع هذا كشرط وحيد لتنفيذ طلبي، وقد كان.

أتيت إلى مصر واخترت أن أقيم في الإسكندرية، المدينة التي تحمل أجمل ذكرياتي على الإطلاق. ابتعت شقتي تلك وسيارتي الصغيرة التي تعرفها، وأودعت باقي مالي في المصرف، أنفق من أرباحه كما فعلت أنت بالظبط.

كنت رافضة العيش بالقرب من أختي أو بالقرب من أي شخص أعرفه، ثلاث سنوات أحيا منعزلة لا أريد أن أذكر شيئًا أو أعرف أحدًا، حتى أتيت لتقتحم عزلتي بباقات أزهارك وإصرارك المستميت على ملاحقتي.

أول مرة أقول مثل هذا الكلام، الحديث يؤلمني حقًا يا نادر، لكني وجدت أنني مدينة لك بالتفسير.

ستكون هذه المرة الأخيرة التي أكتب فيها لك، ابحث عن من تستحقك يا نادر، من تستطيع أن تبدأ معها حياة، أنا نلت قسطي كاملاً من الدنيا واكتفيت، وداعًا يا صديقى.

مع محبتي

صديقتك العجوز العقيم..

فوزية فؤاد"

"لاحول ولا قوة إلا بالله.. خير يا نادر.. حصل ايه بس؟"

يقولها حسين في جزع وهو يربت على كتفي، أنظر له متبلدًا قليلاً لا أفهم، يبدو أن العبرات كانت تنسال من عينيّ دون أن أشعر.

يناولني كوبًا من الماء كي أشرب فشربت، يربت على كتفي في رأفة ويردد عبارات المواساة وهو لا يعلم ما حل بى.
كنت أطالع خطابها لديه مثل كل يوم، آلمتني معاناتها كثيراً حتى شعرت بالوخز في قلبى وآلام في كتفي اليسرى.
أحاول أن أهدأ وأسترد انتظام أنفاسي، يبدو أنني أحبها أكثر مما اعتقدت.
وتلك السخرية المريرة في نهاية خطابها.
"صديقتك العجوز، العقيم"
أستشعر حزنها، فقدها، عذاباتها التي تتضاعف معها بمرور الوقت، فيتملكني الضياع والقهر وانعدام الحيلة.
ترى ماذا يمكنني فعله كي أخفف عنها؟ كيف أرد لها ضحكاتها الصافية؟ ماذا يعوضها عن خسارتها الفادحة؟

وتستمر دموعي في الانهمار دون أن أشعر ويستمر حسين في محاولات التخفيف عني.

طلبت منه أن أنصرف ولكنه أبى أن يتركني، بعد إلحاح اقتادني من يدي رغماً عني حتى ألقاني على المقعد الأمامى لسيارته، هل يملك سيارة؟ لم أعرف من قبل.
يقود بي نحو منزلي مسترشداً بوصفي للشارع حتى وصلنا، صعد معي الدرج ولم يتركني إلا بعدما اطمأن على استقراري في فراشي.
يخبرني أنه سينتظرني مساءً كالعادة وإن لم آت إليه سيأتيني هو، لم ينصرف حتى انتزع مني وعداً بالحضور.

أخيراً استلقيت على فراشي أحاول التفكير المنطقي.
كما قلت مسبقًا لزكريا أنا لا يهمني الإنجاب من عدمه، وسواء كانت عقيمًا منذ البداية أو بلغت سن اليأس فالنتيجة واحدة، هذا لا يشغلنى البتة، ولكنه لم يكن يشغل زوجها السابق كذلك، فهل أفعل مثله؟ هل سيأتى عليّ يوم أتحسر فيه على عمري الذي انقضى بدون طفل من صلبي؟
لقد شعر زوجها بذات ما شعر به زكريا حين بلوغهما نفس السن.
هل تلك هي السن التي يقيّم فيها الرجل حياته ويعدد إنجازاته على مدار العمر.
النجاح والثراء والمكانة الاجتماعية لا يعدونها إنجازات، فقط الإنجاب هو ما يشعرهم أنهم أصحاب قيمة وأنهم أضافوا شيئًا ما إلى ذلك العالم قبل رحيلهم.

كلا، أنا أختلف كلية عن هذا، لست أنا زكريا أو زوجها السابق، لست من يسعى لإثبات ذاته عبر تحقيق أي إنجازات من أي نوع. لا الأبوة ولا الثراء ولا النجاح، أنا لا أكترث لأي شيء.

أنا أفوقهم حكمة، أعي جيداً أن كل شيء إلى زوال، إن الحياة تتبدل في لحظة واحدة ولا شيء يبقى في النهاية، أدرك معنى أن العمر قصير جدًا وأنه قابل للانتهاء في أية لحظة، لهذا أريد أن أحيا ولو بعض يوم، أشعر بالسعادة ولو لساعات، أفعل شيئاً ما حقيقيًا يشعرني أنني لم أفنِ عمرى في البحث عن أشياء فانية بدورها.

سأتزوج فوزية، وأحيا لها خادمًا إن لزم الأمر، إن كان زوجها السابق عاملها كالأميرات، فلأعاملها أنا معاملة الآلهة، أهب نفسي إليها وأقدس حبها وألثم ظلها على الأرض كما كانوا يفعلون في العصور الوسطى مع البابااوات.

إن بقي لها يوم واحد فلتحياه معي في سعادة تعادل العشرين عامًا أو تفوقها، لقد نذرت نفسي في سبيل تعويضها عن كل لحظة ألم اعتصرت قلبها الرقيق.

أعيد قراءة خطابها مرات عديدة وفى كل مرة أزداد تشبثًا، إن الميزة الوحيدة التي أعرفها في نفسى أنني لا أستسلم أبدًا. أصر في عناد الثيران على السير في طريقي حتى أبلغ منتهاه أو تخرجني عنه قوة عليا كما حدث في حادثتي التي ماعدت أكره ذكراها.

٣٠

أجوب الشوارع بكل عزيمتى المعطلة منذ سنوات، قاصداً المركز الطبي لرأفت.

هو أخي الأكبر ولا بد من استشارته حتى ولو كان جافاً معي. أقطع شارع (فؤاد) لأستمر في شارع (صفية زغلول).

تذكرت علي الذي لم أره منذ فترة، يبدو أن انغماسي في الحب ألهاني عن صديقي، ولكنه لم يلهني عن واجبي تجاهه أبدًا، كنت بالقرب من منزله فقررت العروج عليه.

أجلس معه على السطح بالخارج من منزله، بعيداً عن أمه، أجرع كوب الشاي الذي أحضره لي وأحادثه.

لازال مجدًا في دراسته ويبدو أنه سيحقق حلم أخيه بسهولة، حكيت له عن فوزية وعن نيتي في الزواج منها.

كان مسروراً من أجلي وراح يشجعني أن أفعلها بسرعة، فرحت لمشاعره تجاهي ولكني لم أفهم سبب العجلة من وجهة نظره، سألته فراح يفكر قليلاً كي يصيغ كلماته ثم أخبرنى أنه لا داعي للعطلة.

إن لديّ منزلى بكامل آثاثه، ولديّ الرغبة الخالصة في الزواج، فلِمَ أحيا بعيدًا عمن أحب إذا كنت أملك أن أكون معه منذ الآن؟

يقول في حسرة أن أخاه ظل سنوات يكتم حبه لفاتن حتى مات، ترى ماذا لو كان صارحها؟!

ماذا لو كانت تملك له حلاً يعجل بزواجهما؟

ماذا لو كان مات سعيدًا حتى ولو قضى في أحضانها ليلة واحدة؟

كان ذلك يكفيه بدلاً من خسارته لكل شيء.

أستمع إلى كلامه ويقشعر بدني من الرهبة، علي ابن التاسعة عشرة ينطق بالحكمة التي لم يدركها عقل محام أريب في نهاية الخمسينيات من العمر.

حقاً كان ما يقوله صحيحًا، ماذا يمنع زواجي منها الآن وحالاً؟ ماذا لو هرعت إليها واصطحبتها إلى أقرب مأذون ثم اصطحبتها إلى منزلي في المساء لتقضي معي ما تبقى من العمر؟

كان زكريا يتحجج بالعمل وقلة مواردى المالية، حسناً سأعود للعمل كما كنت سابقاً، سأتحمل رائحة المطهرات واللون الأبيض السقيم بنفس راضية.

سيكون لديّ شخص ما أحتمل لأجله كلما ضاقت نفسي بالكيماويات ذرعًا، سأتذكر ضحكتها وأستقوى بها.

إنها تستحق القتال في سبيلها وليس مجرد احتمال عمل سخيف لبضع ساعات في اليوم، وعدت عليًا أنني سأفعل وشكرته على نصيحته الغالية وغاردت منطلقاً إلى رأفت.

كنت في البدء أرغب في مشورته بخصوص زواجي إلا أنني الآن سأطلب منه أى وظيفة مما رشحني فيها، سأعمل لديه حتى ولو فراشاً أو عامل نظافة.

أكمل السير في شارع (صفية زغلول) حتى نقطة تقاطعه مع شارع (السلطان حسين)، أقف أمام واجهة (مؤسسة بغداد).
أرى نفسى في انعكاس الزجاج عملاقاً، مهيباً، قادراً على فعل الخوارق.
تتدفق إلى عروق رغبة في الحياة لم أستشعرها من قبل، تثور في داخلى طاقة عطاء تكفيني لتحقيق ألف حلم مؤجل.

أشعر بالتسامح تجاه الشارع وكشك المرور والمتجر العملاق الذي عشت سنوات أفر منه.
يبدو أن حب فوزية هو طريقي الحقيقي الذي ضللت عنه عمراً بأكمله، وكأنني خُلِقت فقط لإسعادها، لاستبدال الحزن في قلبها بالعشق الخالص.
قد جاءت لتمنحني السلام النفسي والمصالحة مع الكون، وتستحق بالمقابل أن أمنحها كل دقيقة أحياها على هذه الأرض حتى أموت وأنا ألفظ حروف اسمها مع أنفاسي الأخيرة.

* * * * * *

أول مرة أعشق عملية رأفت وطريقته الغربية في التفكير، لم يسألني عن سنها وحين أخبرته أنا لم يهتم ولم يفهم لماذا أخبره، لا يرى فارق في حالتها الاجتماعية، لم يسألني سوى عن حبها لى ورغبتها في البقاء معي لآخر العمر، فقط سألني ذات سؤال زكريا عن نفقات الحياة.

كأن الحب مثل الحرب تمامًا، لا قيمة فيه للشجاعة والإخلاص وحدهما، بل لابد من المال والعتاد لاغتنامه والحفاظ عليه.

هم ينطقون بالمنطق القويم ولا أخالفهم الرأي، ولكن ليس بتلك الصورة الجشعة التي أهابها.

على كل حال أراحني سؤال رأفت لأنه فتح لي مدخلاً لمصارحته بالأمر، بالفعل رجوته أن يستخدمني لديه في أية وظيفة متاحة كما عرض علي من قبل، أخيرًا تهللت أساريره، نهض ليعانقني وقد بدا في شدة الفخر، أخبرني أن وظيفتي تنتظرني منذ افتتح هذا المركز.

أمرني أن أحضر في الغد لاستلام العمل، هكذا على الفور، كنت سعيداً بردود أفعاله كلها، سعيداً بحبه، نهضت لأقبل رأسه في امتنان فضمني لصدره ثانية، برغم صرامة رأفت وأدائه العملي البراجماتى دومًا، إلا أنه لم يكن قاسياً، لم يتخل عن مسئوليته تجاهي، ظل يرعاني طوال عمري، يتركني أبتعد حينما أقرر ذلك، وأجده في انتظاري مُرحباً حينما أقرر أن أعود إليه.

قبل أن أنصرف رجوته فقط أن يؤجل عملي لديه بضعة أيام كي أستعد فيها، في الواقع كنت أحتاج وقتاً أخبر فيه فوزية بما يدور، أقنعها بقبول الزواج مني، أناقش معها كيفية تحقيق ذلك.

حينما خرجت من عند رأفت توجهت إلى سنترال (محطة الرمل)، كانت الساعة قد قاربت السادسة مساء.

إن فارق التوقيت بيننا وبين بروكسل ساعة واحدة فقط، أى إنه وقت مناسب للاتصال بسمية.

جلست على كرسي الانتظار أدخن وأنتظر نداء عامل السنترال لي، لازالت الاتصالات بالخارج مرهقة جدًا وأنا لا أملك هاتفًا في منزلي الجديد وأكتفي بالهاتف المحمول.

تبا لغبائي، لماذا لم أطلب سمية من هاتف المركز عند رأفت؟ إنه يمتلك الآن ثلاثة خطوط تتيح الاتصالات الدولية كلها.

"بروكسل يا أستاذ، اللى طالب بروكسل، كابينه ٢"

انتشلني هذا النداء من خواطري فهرعت أدخل الكابينة وألتقط السماعة، وأنصت إلى الرنين الطويل المتصل المميز للمكالمات الدولية حتى أتاني صوت فتاة لابد أنها مروة، بالفعل كانت ابنة أختي الشابة، بعدما اطمأننت عليها وعلى أخيها أعطت السماعة لأمها.

بمجرد أن أخبرتها أنني أفكر في الزواج حتى قاطعتنى بزغرودة كبيرة أذهلتني وأثارت ضحكاتي.
زوجة الدبلوماسي المصري الحاصل على درجة سفير، خريجة المدارس الأجنبية، تزغرد من الفرحة كأي أم مصرية أصيلة تفتخر بابنها الذي (كبر وعايز يتجوز).

كم أحبك يا سمية وأفتقدك بجواري، اندهشت لفرحتها الغامرة لمجرد سماع الخبر دون أية تفاصيل فألجمتني بقولها إنها (ما صدقت). إنها المرة الأولى التي أفكر فيها في الزواج وهذا وحده جدير بالاحتفال من وجهة نظرها، إلا أن سعادتها بدأت في التلاشي ليحل محلها الحذر فور سردي لها التفاصيل.
لا أعرف لماذا تسللت نبرة الحسرة في صوتها وهى تسألني عن كيفية تقبلي لفكرة الزواج من مطلقة، لماذا يكون (أول بختي) على حد تعبيرها هكذا؟! بل والأدهى أنها تكبرنى بتسعة أعوام كاملة. كانت تفكر بعقيلة أبناء القرن الماضي، واختفت فجأة سنوات مخالطتها لصفوة المجتمع الأوروبي وعادت لأصلها المصري الصميم.

طلبتَ من عامل السنترال مدة ثانية للمكالمة حتى يتسنى لي الشرح، حاولت أن أحكي لها باختصار مقدار حبي لها، أهميتها عندي، المعجزة التي فعلتها كي تعيدني إلى الحياة التي زهدتها لسنوات.

بدأت نبرتها تتبدل تدريجيًا ليعود ويحتلها السرور، غالباً هى لم تفهم شيئاً سوى أن هذا ما يسعدني وكفى، دعت لى بالمباركة وطلبت مني إبلاغها قبل موعد الزفاف بفترة كافية كي تستطيع الحضور، وعدتها بذلك وودعتها وأنا أضع السماعة.

فعلاً إن زفافي هو حدث أسطوري كان يظنه الجميع مستحيلاً، حدث يستحق أن يأتوا له من كل حدب وصوب فقط ليروا تلك المرأة التي استطاعت تحقيق المستحيل.

بعدما خرجت من السنترال توجهت إلى حسين، لم أكن أرغب في كتابة أى خطابات أخرى، إن الأمور الآن لا يجدي معها سوى النقاش وجهًا لوجه.
فقط كنت أريد أن أشكره على عنايته بي واهتمامه الخالص، بالفعل تهلل لما رآني وقفز من كرسيه يعانقني مُرحباً كأنني غبت عنه دهراً وليس بضع ساعات.

أجلسنى وكاد أن يطلب لى فنجانًا من القهوة ولكننى اعتذرت، تعللت أنني أريد العودة لمنزلي والراحة من إرهاق اليوم، وأخبرته أنني سأمر عليه في الصباح الباكر لأسلم الأزهار بنفسي، فوعدني أن يكون بانتظاري.

إن هذا الرجل يحيا حياته كاملة في هذا الكشك. لا أعرف تفاصيل حياته ولكنه يقضي أكثر من ست عشرة ساعة هنا، لا يتغيب عن الكشك سوى ساعتين أو ثلاث خلال النهار، يتركه خلالها في رعاية حماده.

ودعته وانصرفت سعيدًا، أمشي في الطرقات والابتسامة لا تفارق شفتيّ، أحلم بعالم مختلف، أحلم بالصحبة والدفء والسلام، أحلم بفوزية فتزداد ابتسامتي اتساعاً.

٣١

فتحت الباب لتجدني أمامها فاكتفت بالابتسام هذه المرة، أهديتها باقة الأزهار وأنا أبتسم فتقبلتها شاكرة. تشممتها وضمتها إلى صدرها ثم سألتني عن سر حضوري هذا الصباح لأوصل الأزهار بنفسي بعدما طلبت مني أن أكف عن الاتصال بها.

أجبتها في مرح أنني بالفعل لم أتصل وقررت الحضور مباشرة، أخبرتها في جدية أن لي حديثاً مطولاً ولابد لها أن تسمعه.
طلبت منها السماح لي بالدخول فأبت في حرج، تنبهني إلى أنها مطلقة، تحيا وحيدة في عمارة مأهولة بالسكان، وتخشى حديث الناس عنها بسوء.
هذه (الهانم) التي قضت نصف عمرها في أوروبا تخشى أحكام المجتمع عليها، برغم كل شيء تتعامل كأنها ابنة حي شعبي وليست أرستقراطية والدها كان (بك) رسمياً.
تشبه سمية كثيراً في هذه النقطة، يبدو أن الجينات المصرية أقوى من أية عوامل تغيير خارجية، ذات المعتقدات الراسخة منذ عهد عبادة آمون ستبقى تحكم حيواتنا إلى يوم البعث.
ولكنى لابد أن أفاتحها في أمر زواجنا الآن، حالاً، لن أنتظر أن تعطيني موعداً في يوم آخر.

استاذنتْ أن تدلف لمنزلها حتى تضع باقة الأزهار في مزهريتها الخاصة وأمرتني بالبقاء على الباب لدقائق.

امتثلتُ وطفقت أنتظر، كانت ترتدى ملابس رياضية كاملة وتعقص شعرها القصير من الخلف. انطلقتْ للداخل بخفة شديدة ثم عادت بعد قليل وقد ارتدت سترة ثقيلة، وقلنسوة صوفية على رأسها، ثم دعتنى للنزول أمامها.

جلستُ بجوارها في سيارتها وهي تنطلق بنا إلى النادي، أخبرتنى أن هذا روتينها اليومى منذ فترة، تستقبل الأزهار وتنسقها، ثم تنطلق إلى النادي، تمارس رياضة الهرولة، ثم تتناول إفطارها في مقهى النادى، وتعود قبل الظهيرة إلى بيتها تجنباً لازدحام النادي برواده.

تقول إنها لا تقوى على الهرولة اليوم ولكنها ملت رقادها في الفراش، وتقصد النادي فقط للاسرخاء واستنشاق بعض الهواء الصحي عله يفيدها.

لم أفاتحها في شيء طوال الرحلة من فرط التوتر، لقد كانت أسوأ قائدة سيارة على وجه الأرض. قاسية على سيارتها، خطرة على المارة، مزعجة لأصحاب السيارات الأخرى.

أكثر من مرة أنبهها لاستخدام الإشارات الضوئية بلا جدوى، كانت تستخدم مرآة السيارة لتعدل من وضع خصلات شعرها فقط!!

أدعو الله أن نصل دون متاعب، قيادتها بطيئة لا تسبب كوارث ولكنها تعرضها للمشاكل وتذمر الآخرين وإفساد سيارتها الصغيرة.
فى ضيق حقيقي تقول لى في تحدٍ:

- ولما انت شاطر قوي كده طيب ما تيجى تسوق أنت.
- أعوذ بالله.. إنما الخمر والقيادة رجس من عمل الشيطان يا فوزية.

كانت أول مرة تعرف ارتباط الخمر بالقيادة عندي واعتقادي أنهما من كبائر المحرمات.
ضحكتْ على قولي واستمرتْ في طريقها حتى وصلنا أخيراً دون إصابات.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

متواجهين على طاولة جانبية نتبادل النظرات، طلبت من النادل لنفسها شراب الهوت سيدر (hot cider) ونظرت لي باستفهام حتى أطلب شيئاً ما، أبلغت النادل أمام نظراتها المذهولة أن يأتيني بمثله.
بعد انصراف النادل قالت باستغرب إنها شعرت أنني أكره هذا المشروب، بل هي متأكدة من ذلك، فماذا أختلف؟ هذه امرأة فائقة الذكاء تعي كل ما يدور حولها ولاحاجة لها بالشرح الممل.

أخبرها بأن الحب يغير العادات والمعتقدات كذلك، لقد صرت أتقبل عاداتها بل وأحب مشاركتها فيها أيضًا.

ربما لو كانت ساقي صحيحة لمارست الهرولة أن الآخر، ابتسمتْ ولم تعلق.

"تتجوزينى؟"

أقولها مباشرة وأنا أنظر إلى عينيها، بدون تمهيد مسبق أو شرح ملحق، كلمة بليغة مقتضبة كعادتى في الحديث معها منذ اللقاء الأول.

بدأت تتحدث في حرج، تهرب بنظراتها بعيداً عن عيني، تنطق بعبارات مفككة مرتبكة تحاول أن تشرح خلالها أنها لا ترفضني شخصياً ولكنها ترفض أن تعيد التجربة مرة أخرى، تخبرنى بأنني أستحق أن أبدأ الحياة بينما هى قد فرغت منها.

أتأمل لعثمتها أمامي وأقارنها بلغتها المحكمة في مراسلاتها، أظنني فهمت لم تفضل الخطابات، إنها فيما يبدو تميل للكتابة لأنها تجيد التعبير عن نفسها من خلالها أفضل، ربما تكون مصابة بنوع من الرهاب الاجتماعي الذي كان يجعل بعض زملائي في الكلية يتفوقون في الاختبار التحريري ولا ينبسون بحرف واحد في الاختبارات الشفوية.

أخبرها بخطتي في العمل لدى رأفت، بأهميتها في حياتي، بضرورة زواجنا واحتياج كل منا للآخر كي أعفيها من الكلام، ولكنها تستمر في الاعتراض والحديث الأجوف غير ذي الجدوى.

تجادلني وأجادلها حتى انتصف النهار، أخيراً طلبت مني مهلة للتفكير وأن أنتظر ردها النهائي قريباً.

وافقت على طلبها في سعادة، على الأقل قد حققت تقدماً، استأذنت أن تنصرف وعرضت عليّ أن تقلني في طريقها، لكنني رفضت بأدب وفضلت أن أتركها منذ الآن حتى تأخذ فرصتها لتفكر جيداً دون مؤثرات.
ودعتها على بوابة النادي وانطلقت عائداً إلى منزلي.

قضيت باقي يومي في اللاشيء فعلياً، أجلس منتظر إجابتها في توتر بالغ، تارة ينتابني القلق من رفضها وتارة أخرى تطمئن نفسي لقبولها المحتوم.
أحلم بها في بيتي لحظة، وأشفق على ذاتي من انكسار القلب في اللحظة التي تليها، وهكذا قضيت الليل حتى أنقذني بزوغ الصباح.
أبدلت ثيابي وخرجت قاصداً كشك حسين، كان الوقت باكراً جدًا فجلست على مقهى مجاور أنتظر قدومه حتى أتي في تمام الثامنة.

استقبلنى بترحاب وسألني عن لقاء الأمس فطلبت منه بطاقة أرسلها مع باقة اليوم وأخبرته أنني سأقص عليه كل شيء بعدها، أحضر لى البطاقة وشرع يعد باقة أنيقة كلها من الأزهار البيضاء.
يقول لي إنه يبتكر كل يوم تنسيقًا جديدًا ويستخدم ألوانًا مختلفة، يقول بفخر إنه لم يكرر باقة واحدة من كل ما أرسله لها، أبتسم ولا أعلق، هناك أشياء الحديث عنها يفسدها، لن يعرف كم أمتن له.
"اسمحى لى أعزمك على العشا، أرجوكي وافقي يا فوزية المرة دي، حتى لو كانت أول وآخر مرة هتحصل، بس خليها تكون أجمل ذكرى تفضل جوانا للأبد بغض النظر عن قرارك في الجواز"
كتب هذه الصيغة وأرفقها حسين بالباقة المنمقة ووضعها على المكتب لحين حضور حماده ليوصلها على دراجته كالعادة.
قبل أن يرحل حماده طلب منه حسين أن يرسل لنا بعض شطائر (الكبدة والسجق) من محل قريب ذي سمعة طيبة.
إنها الثامنة صباحاً وهو يريد أن يتناول (الكبدة) المقلية المتبلة بالثوم!! هذا الرجل ينتحر بالطعام ويريد بكرم حاتمي الطابع أن يقتلني معه.
وهكذا جلست مستسلماً أنتظر آلام القولون وأحكي له ما فاته من تفاصيل وهو يستمع بإنصات كأنه يتابع مسلسل السابعة مساءً.

* * * * * *

"لاتفرِّي من يدي مختبئة
خبت النار بجوف المدفأة!
أنا..
- لو تدرين-
من كنت له طفلة
لولا زمان فاجأه.
كان في كّفيِّ ما ضيعته
فى وعود الكلمات المرجأة
كان في جنبيِّ
لم أدْرِ به!
أوَ يدري البحر قدر اللؤلؤة؟"

يتردد أذان العصر في المسجد المجاور لبيتي وأنا مستلقٍ أقرأ ديوان (مقتل القمر)، صحيح أنني ممدد أمام مدفأتي الكهربائية ولكنها مدفأة بأى حال!

أشعر بما يشعر به (أمل دنقل) وأتألم من لوعة الجوى.

كل من يعشقون الشعر الحديث يتغنون بعبقرية (أمل دنقل) الثورية، يهيمون بدواوينه الملتهبة الحماسية، التي يتداولونها خلسة لأنها (ضد الحكومة).

ولكنني وحدي أهيم بهذا الديوان، أعشق هذا الشاعر المرهف الذي يعشق بطريقة مختلفة، يعي الحب جيداً ولا ينسخه من سابقيه.

نهضت بصعوبة عقب انتهاء الأذان متجهاً إلى الحمام حتى قاطعني رنين هاتفي، رقص قلبى على أنغام الرنين لرؤيته اسمها، هل وافقت أخيراً على دعوة العشاء؟

- أنت مش بتسمع الكلام ليه.. كل مرة كده.. مش بقولك سيبني أفكر شوية براحتي يا أخي.

تقولها في غضب مصطنع يغلفه الدلال ويتسلل إيه الفخر الأنثوي، إن المرأة مهما ادعت تبقى دائماً سعيدة بملاحقة المعجبين، يغويها التشبث بها، أسعدتنى نبرتها وأكدت لي أنني على صواب.

- هنتعشى مع بعض بس زي أي أتنين أصحاب.. ندردش في أي حاجة.. مش هنتكلم أبداً في الجواز.. وهاسيبك تفكري براحتك خالص..ها قولتي إيه.. بكرة كويس؟

- لا لا بكرة إيه، طيب ادينى فرصة.

- يا ستي واحدة عليكي وواحدة عليا.. خدي فرصتك في التفكير.. وإديني فرصتي في العشا.. موافقة؟

- طيب معلش خليها بعد بكرة أحسن.

- ليه بس وأنتي بكرة وراكي إيه؟

- بعدين هقولك بس خليها بعد بكرة.. يوم الأربع.

- خلاص يا ستى يوم الأربع.. تحبي تتعشي فين؟
- أى حتة على ذوقك بقى.
- على ذوقي ؟.. بصراحة نفسى أأكلك من إيدي.. إيه رأيك أعزمك عندي في البيت.
- أنت بتقول إيه.. لا طبعاً مينفعش أبداً أنت....
- فوزية، لو سمحتي.
- نعم؟
- إنسي الناس شوية.. مرة واحدة بس أكسري قواعد المجتمع دي..عشان خاطري.. مرة واحدة يمكن تكون آخر مرة أشوفك فيها..أرجوكي.

صمتت قليلاً ثم أغلق الهاتف فجأة، هكذا بدون مقدمات. هي مولعة بغلق الخط في وجهي كل مرة.
أعدت الاتصال بها فلم ترد، أحاول ثانية ولا رد.
استسلمت وتركت الهاتف، سأتوضأ وأدعو عليها في سجودي، تباً للنساء وجنونهن.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

في المساء أثناء مشاهدتى لفيلم السهرة أتاني هاتفها، لم تعتذر على غلق الخط، لم تسألني عن أحوالي، فقط قالت إنها موافقة. هكذا مباشرة، قبل أن أرد بأى كلمة أغلقت الهاتف ثانية فاستغرقتُ في الضحك.

أحياناً تكون بعقلية عجوز حكيم خبر الدنيا كلها، وأحيانا تكون بعقلية مراهقة في الخامسة عشرة يغازلها (ابن الجيران).
على الأقل لن أشعر معها بالملل، امرأة متجددة متقلبة المزاج، كل ساعة بحال. حتما سأستمتع بالحياة معها، فقط لو لم تدفعني للجنون.

٣٢

أستيقظ في التاسعة على رنين المنبه، أنوي الخروج مبكراً حتى أجد متسعاً للتسوق وتتبيل الطعام وإعداده قبل أن تحضر، لم أكلمها طوال الأمس ولم نتبادل أية رسالة.

سأهاتفها عند الظهيرة فقط كي أعرف ساعة قدومها بالتحديد وأصف لها العنوان بدقة، لابد أن أتذكر أن أنبهها أن تأتي سيراً على الأقدام، إن المسافة بيننا أقطعها في ربع ساعة سيرًا بساقي المصابة. الأمر لا يحتمل التعرض لخطورة قيادتها، أريدها أن تحضر لمنزلى لا أن أذهب وراءها لقسم لشرطة.

كنت قد قررت إعداد طبق من الأسماك وبعض المأكولات البحرية، سيكلفني الأمر كثيراً ولكنها تستحق بالتأكيد، عسى فقط أن تكفي نقودي. بعد ممارسة عاداتي الصباحية والاستعداد للخروج، انطلقت في سيارة أجرة إلى (بحري).

سأشترى كل ما أريده من (حلقة الأسماك) ثم أعرج على سوق الخضر في طريق عودتي للحصول على باقي المكونات الناقصة. إن لي وقتًا طويلاً لم أمارس هواية الطهو، ولكنني أذكر أنني لازلت أملك العديد من التوابل وبعض الخضروات في ثلاجتي ستفيدنى حتما.

* * * * *

حينما تجاوز عقرب الساعة السادسة ببضع دقائق، سمعت رنين جرس الباب، هى مواعيدها دقيقة أيضًا، لقد اختارت أن تتناول عشاءها في السادسة. كما توقعت من قبل، إنها تمتنع عن الطعام في المساء حفاظاً على قوامها الذي يستحق في الواقع.

هرعت نحو الباب مهرولاً لأفتحه، وأقف مذهولاً أمام البهاء المتجسد على عتبة بيتي في هيئة امرأة.

تقف مرتدية فستاناً وردي اللون مزركشاً بنقوش الأزهار كانت (ماجدة) ترتدي مثله في أفلامها القديمة، تضع على كتفيها وشاحًا شتويًا أنيقاً، تتلفع به ليمنحها الدفء والمزيد من الفتنة.
تقف مبتسمة تحمل وجهًا يفوق جمال (هيدي لامار)، وقوامًا ينافس (سعاد حسني)، الحق أنها تجمع كل جمال فاتنات السينما عبر العصور.
ابتسمتْ في خجل وهي تستفسر عن إمكانية دخولها للمنزل بعدما طالت وقفتها، أفقت من شدوهي وانتابني الحرج وأنا أفسح لها المجال، عبرت إلى الداخل في خطوات أنيقة تتهادى على كعبي حذائها الدقيقين، كأميرة على بساط أحمر في بهو قصرها.
ملاك هبط من السماء ليدلف إلى منزلي ويشيع في أرجائه الكئيبة الكثير من الطمأنينة والسلام والحب.

أقتادها مبهوراً إلى طاولة الطعام، التي حرصتُ على إعدادها في دقة ونظام يفوق أفخر مطاعم العالم.

سحبت لها مقعداً فشكرتني في تهذيب، استأذنتها أن أحضر الأطباق الرئيسية من المطبخ وانصرفت لأغيب عنها، أختلس النظر إليها من حين لآخر فأجدها تتطلع إلى مكونات المنزل بفضول محبب إلى قلبي، تتأمل كل طبق أضعه أمامها مبتسمة، ما إن انتهيت حتى أشعلت الشموع المستقرة على المائدة، وتوجهت إلى جهاز (الكاسيت) أديره على شريط (أنت الحب) ثم أخفض إضاءة الغرفة لتبرز إضاءة الشموع، للأسف لم أجد معطراً للجو برائحة (اللافندر) كي تكتمل الصورة التي كنت أرسمها في مخيلتي، فاكتفيت بما فعلت ثم استقررت بمواجهتها مبتسماً.

أبدتْ مديحاً في اختياري لربطة عنقي، هى أول مرة تراني في ملابس رسمية كاملة وقد أثار إبهارها طريقة إعدادى للمائدة، وطقوس العشاء الرومانسي التي جاهدت لأتمها.

رقيقة، طيبة القلب، سهلة الإرضاء، تفرح بأى شيء أفعله. وقد منحني هذا المزيد من الثقة.

كانت فخورة بصنيعة يدي، لا تصدق أنني من أعد هذه الأصناف كلها، تناولت كأس كوكتيل القريدس (shrimp cocktail) منبهرة، لم تصدق أنني من أعده حتى أقسمت لها، بدأت تتذوقه وهي تطلق صيحات الإعجاب بطعمه.

يقولون إن أقصر الطرق إلى قلب الرجل معدته، ولكن يبدو أن هذا هو الحال مع المرأة أيضًا.

شرعنا في تناول وجبتنا مسرورين يتأمل كل منا الآخر في صمت، تتبادل نظراتنا أحاديث يعجز لسانانا عن التعبير عنها.

أراقب أصابعها البلورية تقبض على السكين في رقة كأنها تقبض على ريشة رسام، تقطع لحم الأسماك في عذوبة كأنها تداعبها. أهيم في إنفراجة شفتاها وهما تلقمان الطعام من طرف الشوكة في مشهد يثير بداخلي كل الغرائز التي نسيتها من زمن قصي. ترى نظراتى فتبتسم خجلاً وتعتدل في مجلسها ثم تقول:

- وبعدين؟ هتفضل تبص لي كده كتير، مش هتاكل ولا إيه؟
- أنا ببص لك بشبع عن كل حاجة يا فوزية.
- طيب كل ولم نفسك شوية.

تقولها بدلال وغنج يستره لهجة أمر مضحكة، تزيد من إثارتي ولا تقللها. أحاول أن أصرف نظري إلى طعامي وأستأنف تناوله.

- كنتي فين إمبارح؟

أسأل في فضول محاولاً صرف انتباهي عن رغبتى المتقدة.

- فى البيت، مروحتش ف حتة.

- طيب ليه ماجيتيش إمبارح.

"كنت عايزة أجيلك يوم الأربع".. تقولها في خبث أنثوي.

- إشمعنى الأربع يعني، مش فاهم.

تعتدل في جلستها وتنظر مباشرة لعينيّ، تقول لى بلوم لتعلمني أى أحمق أكونه:

- أول مرة أتقابلنا فيها في القطر كان يوم أربع.

تلجمنى الدهشة فأصمت وهي لازالت تكمل:

- يوم (فتح الله) كمان كان يوم أربع، كان المفروض تكون فاكر الحاجات دي.

تباً للنساء وتفاصيلهن المعقدة، إنهن يطلبن من الرجل تذكر أشياء عجيبة تضن بها الذاكرة، تشعر المرأة بالإهمال والجفاء لمجرد أن الرجل نسى أي لون كانت تطلي به أظفارها في أول لقاء لهما، ثم في النهاية تبكي كمداً وهي تعاتبه لأنه لا يهتم بها حقاً كما يدعي.

إلا أنني سعدت بهذا التصريح برغم ما يحمله من لوم، لقد أثرت اهتمامها منذ اللحظة الأولى إذن مثلما فعلت هي، هو ليس حباً من طرف واحد كما كنت أظن، على الأقل أنا أشكل لها شيئاً ما ولست مجرد نكرة في حياتها.

صارحتها بذلك فابتسمت لسذاجتي وقالت في سأم كأنها معلمة ملت من تكرار شرح ذات الدرس لتلاميذها:

- كل ست جواها قرون استشعار.. بتحس كويس قوي بأي راجل يحبها.. بتفهم كويس أي نظرة وأي كلمة وراها إيه.. الستات ذكية زيادة عن اللزوم.. عشان كده متعبين للرجالة.

لكنى لست أى رجل يا فوزية، أنني أعشق ذكاءك كما أعشق جمالك بذات المقدار، أنا أفتخر بوجودك في حياتي ولن أشكو منه أبدًا. وأنت لازلت تغازلين القريدس بشفتيكِ، تمتصين عصارته بصورة تزيد من تدفق هرمونات الشهوة في دمائي.

- أنتي متطلقة بقالك قد إيه يا فوزية؟

هكذا باندفاع أهوج أقولها، تبتسم وهى ترفع حاجبها الأيسر في شك - حاجبها الذي يأسرنى دوماً -، هذه المرأة عبقرية تقرأ أفكاري فيما يبدو.

- أخر مرة لمسني جوزي فيها من أكتر من ٣ سنين يا نادر.
- أنا بقى آخر مرة لمست فيها ست من ٨ سنين.. تقريباً نسيت بيحصل إيه.. أنا نسيت شكل جسم الستات.. تقدرى تقولي إني رجعت عذراء من تاني.

قلتها فانفجرتْ في الضحك، وأنا كذلك ضحكتُ، أشعر بحرارتي ترتفع في زمهرير يناير فأجرع كوب الماء البارد على رشفة واحدة.

- طب لم نفسك بقى أحسن هقوم أمشي والله.

تقولها في تهديد أجوف، تفضحها عيناها اللتان تفيضان بالرغبة، شفتاها المكتنزتان تنتابهما رعشة خفيفة.

تتناول قدح الماء هي الأخرى.. تجرع منه جرعة صغيرة تناسب أمعاءها وتترك حافته ملوثة بصبغة شفتيها المغرية.

- فوزية.

أناديها بلهفة وحِدّة، فتنظر لى متسائلة في قلق من لهجتي.

إن أكثر القرارات تهوراً هى التي يتخذها الرجل تحت وطأة شهوته الجنسية.

ولكني أراه قراراً صائباً برغم كل شيء، أقبض على كفها الرقيق بأصابعي وأضغط عليها بقوة دون أن أشعر.

- يالا نتجوز دلوقتى حالاً.

تسحب يدها مني بذعر وتتسع عيناها من المفاجأة.

- انت مجنون يا نادر.. أنا حتى لسه ما أخدتش قرار في الجواز من أصله.. وحتى لو خدت قرار.. هو الجواز ده مش بيحتاج ترتيبات كتير.

ثم تبتسم وهى تتأملني وتهز رأسها الجميل متعجبة.

- اهدى بس شوية وسيبني أفكر وبعدين نتكلم يا نادر.

- اسمعيني لو سمحتي وبطّلي التردد اللي بيضيع كل حاجة حلوة ده.. تعالي نتجوز دلوقتي وبعدين نبقى نرتب كل حاجة.. إحنا الحمد لله عندنا كل حاجة.. هنستنى إيه بقى. يا فوزية العمر قصير قوي.. محمد حسن مات ف غمضة عين.. مات قبل ما يتجوز فاتن.. وأنا مش عايز أكون زيه.
- محمد حسن مين؟!

تذكرت أنها لا تعرف هوية ضحيتي، تعرف فقط أنه (القتيل)، مجهول هكذا كأنه لم يكن يملك اسمًا وقلبًا نابضًا، وأحلامًا مجهضة.

وتستمر في مقاومتي واستمر في جدالها.
كانت لا شعوريًا تخشى الزواج، بالأحرى كانت تخشى فشل الزواج ثانية، تخشى أن أتخلى عنها يوماً ما لأبحث عمن هي أصغر سنًا أو أكثر خصوبة، تخشى أن تفيق من أحلامها على كابوس الفقد كما حدث في السابق.

أفهمها جيداً وأشعر بها ولكني لا أملك أن أطمئنها بشيء، بالتأكيد أقسم لها زوجها السابق أنه سيبقى للأبد ثم لم يفِ بوعده، لها الحق أن تشعر بالخوف دون أن تفهم سببه.

- فوزية هقولك حاجة أخيرة وانتي صاحبة قرارك في النهاية.
- قول.
- لو أنا مت كمان شوية.. هتندمي إنك مخلتنيش أتجوزك؟
- بعد الشر عليك.. متقولش كده.
- جاوبينى لو سمحتي.. لو نزلت أوصلك دلوقتى.. و وانا راجع واحد عمل فيا زي ما أنا عملت في محمد حسن.. هتندمي ساعتها؟

لحظات من الصمت والتفكير سادت بيننا، كلما تفتح فاها لتنطق بكلمة تتراجع وتعود لتفكر، أتأملها صامتاً ولا أقاطعها، عزفت عن الطعام فتركتها ونهضت إلى شرفتي.

أشعل سيجارة أتأمل دخانها المتصاعد وأحاول أن أتبين كنه الأشكال التي يرسمها في رحلته إلى الفراغ.

أنهيت سيجارتي فألقيتها إلى الشارع المبتل، قد كانت تمطر إذن ونحن نتناول الطعام لا نشعر بشيء مما يدور في العالم الخارجي، شعرت بكفها الرقيق تتحسس كتفي فأجفلت ثم التفتّ لها.

كانت تبتسم بينما عيناها مغرورقتان بالدموع، تنسال صبغة رموشها السوداء على وجنتيها في مشهد مضحك.

طفلة في العاشرة تلوث وجهها بأصباغ أمها.

لا أصدق أن هذه الفتاة تتجاوز الأربعين بسنوات مهما قالت بطاقتها الشخصية.

ابتسمت لها وتناولت كفها لأحتضنه بين راحتيّ وربت عليها لأطمئنها.

- هات المأذون دلوقتي.

قالتها فلم أعِ جيداً ما تقول وتجمدت في مكانى بدون حراك، راحت تهز رأسها بالإيجاب تأكيداً على ما قالت.

جذبتها إلى صدري لأضمها غير مصدق.

أعتصرها بين ذراعيّ بعنف دون أن أشعر وهي تربت على ظهري في رفق لتنبهني لذلك ولم أنتبه.

أغمر وجهها بالقبلات وهي مرتبكة لا تدري ما تفعل سوى أن تذرف المزيد من الدموع، حتى تلامست شفاهنا فأطبقت علي شفتيها ألتهمهما بنهم.

لحظة خاطفة من السعادة بعدها أشاحت بوجهها في رفق وبدأت تحرر نفسها من بين ذراعيّ.

- المأذون الأول وبعدين أعمل كل اللى ف نفسك.

"هوا"..

قلتها واندفعت أبحث عن هاتفى حتى وجدته، ظللت أتصل بزكريا حتى أجابني في المرة الخامسة ولو ظل يتجاهلني كنت سأستمر للخمسمائة، أنا لا أعرف كيف أفعل شيئاً بدونه.

كان مشغولاً بالفعل ولكني طلبت منه أن يترك كل شيء ويأتيني حالاً.

أخبرته بأنني سأتزوج الآن، وليحضر بصحبة مأذون ويكون هو شاهدي على العقد.

أطلق الكثير من السباب ودعا عليّ بالخراب ولعنني عشر مرات ثم تهلل صوته وأخبرني أنه سيرتب كل شيء ويكون عندي بعد ساعتين على الأكثر ثم تمنى لي المباركة وهو يقهقه.

أخبرت فوزية أن زكريا سيصل في غضون ساعة أو اثنتين، كانت تبتسم في سعادة غير مصدقة ما يدور ثم طلبت مني أن تذهب إلى منزلها قليلاً على أن تعود قبل وصول زكريا.

صدمني قولها ذلك ولم أجد له مبررًا ولكنها قالت إنها عروس وتريد أن تستعد ولو بالقليل، إن العروس تستعد لزفافها قبلها بأيام كاملة وأنا لا أريد أن أمنحها ساعة واحدة ؟!

أقنعني قولها فتناولت سلسلة مفاتيحي وزفرت في الشموع لأطفئها ثم اقتدتها إلى الخارج وأغلقت الباب خلفنا.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

نسير في الشارع المبتل تتعانق كفانا في وله، تبدو ملابسنا مناسبة لكوننا عروسين بالفعل.

أرى في الشارع بعض مظاهر الفرح.

أطفال يلهون بملابس تبدو جديدة في مرح زائد برغم برودة الجو، رجال ونساء متأنقون يسيرون برفقة بعضهم البعض وتكتسي ملامحهم بالبهجة، كأن العالم يشاركنا الفرحة، وكأن يوم زفافنا هو عيد يحتفل به الجميع.

حقًا إنه عيد بالفعل، لقد نسيت.

إن اليوم هو السابع من يناير، انتبهت لذلك فانطلقت في الضحك وقربت يدها من فمي لألثمها في امتنان، فبادلتني نظرة بذات المغزى.

هو يوم مجيد إذن، وكأن ذكرى ميلاد المسيح هى المعادل الموضوعي لميلاد كل واحد منا في ذاته، وكذلك ميلادنا معاً، بداية جديدة لحياتين ظن أصحابهما أنهما ولّتا.

أسير هائما بصحبة معشوقتي نبدو للعيان كمراهقين في بداية العمر.

"It's never too late"

قالها رأفت ولم أعِها جيدًا في السابق ولكنني أفهمها جيدًا الآن.

بعدما ودعت فوزية عند منزلها استوقفت سيارة أجرة وهرعت جريًا إلى كشك الأزهار.

حسين أكثر من يستحق أن يكون الشاهد الثاني على عقد قراننا، هذا الرجل الذي كان ينتظر زفافنا أكثر ما ننتظره نحن.

ما أجملك يا حسين وما أطيب قلبك، لقد استقبل نبأ زفافي بفرحة أخ حقيقي، كان فخوراً بنفسه، يرى أن مجهوده كلل بالنجاح، برغم أنني لا أعرف أي شيء عن حياته الشخصية إلا أنه يعرف أدق تفاصيلي، وما كان يزعجني ذلك بل يبهجني لأقصى مدى.

طلب مني الانصراف كي يستعد ووعدني بالحضور خلال ساعة على الأكثر، ودعته وانصرفت ضاحكًا في سخرية، كل الناس عندها مهام تريد أن تفعلها للاستعداد لزفافي، وأنا لا أملك شيئاً أفعله كي أستعد مثلهم.
ثم تذكرت أن لديّ شيء ما يجب أن أفعله، اتجهت إلى علي كي أدعوه للحضور، وأنا في الطريق اتصلت برأفت وأبلغته في الهاتف فراح يتندر قليلاً على أفعالي الهوجاء كعادتي منذ الطفولة ثم وعدني أن يستعد هو الآخر ويحضر سريعاً.

لو قال لي علي إنه سيستعد هو الآخر لألقيته من فوق سطح بيتهم، قد صار الموضوع مستفزًا!

لم أنس أن أعرج على (السنترال) كي أتحمل توبيخ سمية واحتجاجها على زفاف لا تحضره، وتمنياتها لنا بالسعادة برغم كي شيء.

٣٣

قد جاوزت الثامنة ولازلت أجلس وحيدًا في منزلي بانتظار عودة (المستعدين) جميعًا، لا يؤنس وحدتي سوى علي الذي ساعدني في إخلاء المائدة وترتيب المنزل قليلاً استعدادًا لقدوم الوافدين، وأعد لي بعض القهوة.

بعد لحظات وجدت فوزية تطلبنى على الهاتف، ألومها على التأخير فتطمئنني وتقول إنها أبلغت أختها في الهاتف فور وصولها المنزل.
إن طنطا لا تبعد كثيراً وتتوقع وصولها خلال نصف الساعة أو أكثر، حسناً من الجيد أنها فعلت ذلك.
طلبت مني أن أرسل لها أحدًا من طرفي لتبعث معه أشياء لي، لم توضح ماهية هذه الأشياء، تحادثني في عجالة وتنهي المكالمة سريعًا، على الأقل لم تغلق الخط فجأة كعادتها.
وصفت لعلي موقع منزلها وطلبت منه الذهاب إليها، حمدًا لله أنه موجود.

بمجرد انصرافه وجدت من يناديني، خرجت لأجد أشخاصًا لا أعرفهم يباركون لي ويقتحمون السطح محملين بالأحمال، إنهم متعهدو أفراح وقد أرسلهم زكريا ليعدوا السطح أمام منزلي.

مقاعد خشبية، طاولات، كرسيان مميزان واضح أنهما (كوشة العروسين)، أضواء زينة، سماعات عملاقة. يا للهول!

إن زكريا يعد حفل زفاف حقيقي، انهمكت مع العمال حتى أنقذني خالد، جاري العبوس الذي خرج ليستفسر عما يدور.
أبلغه أنها ليلة زفافي فيتجاوز المفاجأة سريعًا ثم يعانقني ويبتسم في إشراقة، إن ابتسامته كخسوف الشمس، من الظواهر الكونية التي تستحق التسجيل.
إلا أنه كان متعاونًا جدًا فطلب مني العودة لمنزلي وترك كل هذه الأمور له. قبل أن أبلغ منزلي وجدت آخرين يسألون عن العريس، كانوا عمال أحد المطاعم وبدأوا في إعداد (بوفيه) متنوع الأصناف، حتى إنه يحتوي على ديك رومي كذلك!!
سألتهم عن زكريا فأجابوا أنهم حضروا بأمر من الدكتور رأفت.
كنت مذهولاً من أفعال رأفت وزكريا، إنهما يأخذان الموضوع بجدية خطرة، في ساعتين فقط يقيمان حفل زفاف كامل، إنهما ينسقان فيما بينهما كما أظن وكلاهما يملك المال والعلاقات التي تسمح بتحقيق مأربهما، وأنا كل ما طلبته مأذون فقط، لكن رأفت ما كان ينتظر رأيي ولو أمهلته للغد لكان حجز لي قاعة حفلات في أحد الفنادق، إنه يهوى التفاخر والبذخ في كل شيء، وهذه أول مرة يسعدنى تفاخره هذا.

تركت الجميع بصحبة خالد وعدت لمنزلي وقد زاد توتري من تطور الحدث، فشرعت في التدخين أحاول ترتيب أفكاري.

جاء صوت علي من الخارج يقاطعني وهو يناديني كأنه يستنجد بي، لماذا يناديني ولا يقرع الباب؟
فتحت له لأجده محملاً بالكثير من الأشياء مما شغل يديه، تناولت منه بعض الأحمال وساعدته في إدخالها وبدأت في فرزها وأنا أسأله عن كل شيء.
كان أولها حقيبة كبيرة مغلقة، قال إنها أشياء تخص العروس طلبت أن تبقى في انتظارها ولا يفتحها أحد.
حسنًا ماذا لدينا أيضًا؟
علبة من الورق المقوى تحتوي ملاءات أو أغطية أو شيئًا من هذا القبيل، عليّ أن أضعها على الفراش حتى تأتي أخت العروس.
يا إلهي ما كل هذه التعقيدات، حقاً كانوا يستعدون بالفعل ولا يبالغون إذن، ماذا لديك أيضًا يا أخ علي؟!
إنها حلة زفاف سوداء طراز (tuxedo suit)، والأدهى أنها تناسب قياسي!!
أخيرًا، أخرج علي من جيبه علبة صغيرة مغلفة بالمخمل.
كما توقعت بالضبط، فتحتها لأجد فيها خاتمي زفاف أحدهما صغير القطر من الذهب والآخر من الفضة يناسب بنصرى جيداً.

أين وجدت الوقت لتفعل كل ذلك؟!

وكيف تعرف قياساتي؟!

يقول علي إنه سيخرج ليعاون الرجال بالخارج فأوصيته أن يترك الباب مفتوحاً.

وعدت أتأمل خاتم زواجي الأنيق.

برغم غرابة الأمر إلا أنني شعرت بالغبطة، إن الزواج من امرأة تعرف قياساتي جيداً بمجرد النظر أمر يبعث على الطمأنينة في النفس، هى امرأة ستجيد العناية بي ولن تتركني أرتكب الحماقات.

هكذا قررت أن أغتسل سريعًا وخرجت لأرتدى حلتي الأنيقة.

فوجئت بوجود علي بصحبة أحدهم يبدو أنهما كانا في انتظاري، ترى من يكون هو الآخر؟

مرحى إنه الحلاق وقد أرسله زكريا، يقول علي إن المصور قد حضر في الخارج كذلك.

إن زكريا لم يتزوج من قبل، من أين له أن يعرف كل هذه التفاصيل؟!

ثم أنني لا أحتاج للحلاقة، لقد كنت متأنقًا بالفعل بمناسبة موعد العشاء الذي تحول فجأة إلى حفل زفاف مرتجل، ولكن الرجل قد حضر وانتهى الأمر، بالتأكيد سيجد ما يفعله.

وهكذا جلست أمامه مستسلمًا.

أخيرًا دخل علي مهرولاً ينبئنى بحضور سيارة العروس، يطلب مني النزول لاستقبالها في الشارع لتبدأ (الزفة).

سيارة العروس!! وهنالك زفة كذلك!!

لقد تحول الحدث إلى مهرجان شعبي وأنا لا أفهم متى وكيف.

نظرت في ساعتي فوجدتها العاشرة إلا قليلاً، فنهضت وعدلت هندامي سريعًا بمعاونة الحلاق ثم نزلت الدرج حثيثاً بصحبة علي.

يا لهول ما رأيت، لقد أتى حسين بسيارة مزينة بالأزهار كأفضل ما يكون وأحضر بها عروسي الحسناء، كان قد أرسل كذلك مجموعة من الشباب يشكلون فيما بينهم فرقة هواة، يحملون بعض الآلات الموسيقية ويغنون بأصوات نشاز ولكنهم يبعثون على البهجة.

لقد وجدهم يلعبون (الدومينو) على المقهى المجاور لصالون التجميل.

لم أسأل عن صالون التجميل هذا فقد خرج الأمر عن السيطرة تماماً.

توجهت إلى السيارة كي أساعد العروس على الترجل منها.

الأميرة فوزية تخرج من السيارة تصاحبها الزغاريد وأغاني الأفراح، ترتدى ثوب زفاف أبيض اللون يغلف روعتها ويزيدها سحرًا، تضع زينة كاملة تحمل بصمات المحترفين وبين كفيها تستقر باقة أزهار رقيقة.

تبعتها من ذات السيارة امرأة طويلة القامة، جميلة برغم سنها المتقدم نوعًا، لاريب أنها أختها، برغم أن الفارق بينهما أربع سنوات تقريبًا إلا أن ميرفت تبدو في سنها الحقيقي وفوزية تبدو كأنها أصغر منها بعشر سنوات على الأقل.

تأبطتْ ذراعي وسط هذا الصخب وبدأت أصعد الدرج بصحبتها وخلفنا رهط من القوم، لا أعرف كيف احتشدوا بهذه الصورة.

على السطح فاجأتني الصورة الكاملة لهذا السيرك المنصوب.

يزداد توتري من الزحام ويظهر في صورة عرق في هذا الصقيع.
لا أذكر آخر مرة رأيت فيها مثل هذا الحشد من البشر في مكان واحد.
رأفت الذي يحضر لمنزلي لأول مرة، زكريا، حسين، حماده، شفيع، جميعهم موجودون، حتى أم رضا كانت موجودة، تعرفني فوزية بزوج أختها الوقور وأبنائها الأشقياء.

"ألف مبروك يا طنط زوزو"
تقولها إحدى البنات الصغيرات التي ورثت جمال أمها فبدت في جمال الملائكة بزيها الأبيض القصير.

"زوزو؟!، بيقولولك يا زوزو؟"

أقولها ساخرًا، وأنا أهمس في أذنها الجذابة، وأمنع شفتيّ أن تطبقا على قرطها المدلى بصعوبة.

"وساعات بيقولوا يا لوزة.. أنت الوحيد اللى مش بتدلعنى".. تقولها همسًا هى الأخرى في عتاب غناج.

- عشان انتي هتفضلي طول عمرك الأميرة فوزية فؤاد.. ملكة اللى فات واللي جاي من عمري.

قلتها في صدق استشعره قلبها فابتسمت في حنان وهي تتمتم بشفتيها "بحبك".. للمرة الأولى تنطقها.

أشعر بخدر لذيذ يسري في أطرافي لا أعهده، كأنها تطبع قبلة ندية على روحي الجريحة فتضمدها.

أجلس بجوارها سكيرًا من نشوة الحب المقطرة حتى يدعوني زكريا لبدء مراسم عقد القران في هذا الحفل الرائع الذي يدور على السطح في ليل يناير، أدعو الله ألا تمطر حالاً وتفسد كل هذه الجهود.

تخالجني مشاعر لم أخبرها من قبل قط، لأول مرة منذ عهود طويلة أشعر بهذه السعادة، وللمرة الأولى أشعر بكل هذا الزحام من الأحباء.

٣٤

أحاول في حذر شديد تقريب كوب عصير البرتقال الذي أحمله إلي فمي فلا أستطيع.

لقد غيرني الحب بالفعل، فصرت أشرب البرتقال وأرتاح للون الأبيض.

أحاول جاهدًا أن أمد عنقي نحو حافة الكوب فيعوق حركتي قدمها الصغير المرتخي على كتفي، تحاول أن تفسح لي المجال فقط لتغرز مرفقها في ساقي.

نقبع في استسلام وتتعالى قهقهاتنا.

إن المغطس صغير الحجم جدًا، يتشابك فيه جسدانا تحت المياه الساخنة في تعقيد فلا يستطيع أحدنا الحركة بسهولة، يداي أحمل بأحدهما كوب العصير وبالأخرى سيجارة مشتعلة أحرص أن أبعدها عن المياه.

يداها مشغولتان بحمل طبق صغير من الكرز تتناول حباته في استمتاع، إني لأحسدها على حرية حركة ذراعيها.

كان الجو باردًا لدرجة أنني اصطحبت معي المدفأة إلى الحمام!

لا أدري كم مرة مارسنا الجنس في فراشنا الذي أحاطته ميرفت بذلك المفرش المزخرف، المخصص للأعراس.

بعد الشروق كانت فوزية تشعر بالنعاس وبدا على كلينا الإجهاد من أحداث الليلة السابقة التي بدأت باستضافة امرأة غريبة على العشاء وانتهت بتناولها الكرز عارية في مغطس مضيفها الذي صار زوجها!

هي من اقترحت عليّ أن نغتسل حتى نفيق ونستأنف نشاطنا المحبب.

تلتقط حبة كرز أخرى وتعبث بها بين شفتيها في غنج يثير في نفسي رغبة تقبيلها، إن الوصول لشفتيها مستحيل فلا أجد أمامي إلا إبهام قدمها الأنيق المرتكز على ذقني، أقبله، فتنطلق ضحكتها رنانة عالية بفعل سيراميك الحمام.

فجأة انتصبت وهى تصيح أن لديها فكرة مهمة، ترفع حاجبيها وقد ارتسمت الجدية على ملامحها، هكذا في لحظة واحدة تتبدد ضحكتها بأسلوب (On/ Off).

حاولت أن أجاريها وأعتدل في جلستي فلم أقدر، حسنًا، لنناقش فكرتك المهمة إذن وجسدانا ممتزجان ببعضهما تحت الماء الساخن وفقاقيع صابون الاستحمام.

- إيه رأيك نفتح مطعم؟!
- إيه؟
- أنت كنت هترجع تشتغل في التحاليل غصب عنك.. ليه ماتعملش الحاجة اللي بتحبها.. هتبدع فيها أكثر وتحقق نفسك بجد.

أسحب شهيقاً طويلاً من دخان سيجارتي ثم أزفره بعيداً عن وجهها، وأنا أحاول ابتلاع دهشتي لبساطة فكرتها.

طوال سنوات انغماسي بين أواني الطهو، كنت أتخذها كهواية أقضي بها أوقات فراغي الطويلة.

لم تخطر لى تلك الفكرة من قبل، برغم أنها المثلى لحياتي.

حقًا أنني أجيد الطهو أفضل من طهاة عالميين، حتى لقد خطر لي ذات مرة أن أشارك في مسابقة للطهو. أنني لو طهوت عشرين ساعة متواصلة في اليوم الواحد لا أتذمر وأبقى مستمتعاً.

هل أنا أحمق لهذه الدرجة حتى لا تأتيني هذه الفكرة من تلقاء ذاتي؟ إنك لعبقرية يا فتاتي، وإني أشعر بالفخر لكونى زوجك.

أشرد في خواطرى نحوها وهى تستمر في التخطيط.

- بص.. أنا شقتى أكبر من شقتك وتمنها غالي.. إحنا نبيعها كلها بعفشها وكل حاجة فيها.. ونعيش هنا ف بيتك.. ونحط فلوس الشقة على الفلوس اللي معايا ف البنك ونشتري محل كبير.

- ممكن أبيع التاكسي وتمنه يساعدنا في المعدات والتجهيزات.
- لا أوعى تعمل كده.. التاكسي ده هنعيش منه لحد ما نشتغل والمطعم يقف على رجليه.. ساعتها بقى مش نبيعه.. ده إحنا نجيب واحد تاني وتالت كمان..
عارف، أنا ممكن أبيع العربية بس مش هتجيب كتير، وإحنا هنحتاجها ف شغلنا.
- طيب شايفة المفروض نعمل إيه؟
- إحنا ممكن بعد ما نشتري المحل ونسجله ناخد بضمانه قرض من البنك نشتري بيه المعدات.
- لا القرض فوايده كتير..
أنا ممكن أعمل حاجة أحسن..
أنا هاستلف الفلوس دي من أخواتي ونسدها كأننا بنسد القرض.. بس من غير فوايد.
- طيب هايل، كده أنت هتطبخ، وأنا هشتغل (hostess) في الصالة..
وهنحتاج معانا (stuff) صغير في الأول يساعدنا ومع الوقت نكبره..
إيه رأيك ؟

أضع الكوب من يدى جانباً محاولاً النهوض فينزلق جسدها الضئيل داخل المغطس لتغمر المياه جسدها كله، تحاول التشبث وهي تضحك في مرح، أسحبها من يدها لتخرج هي الأخرى وأقول لها إني سأخبرها برأيي فيما بعد، وأنطلق بها نحو غرفة النوم وهي تهرول خلفي تنعتني بالجنون وتطلق المزيد من الضحكات.

* * * * * *

يقول زكريا في دهاء:

- اشترى محل ف (سموحة).

كنا في مكتبه نجرع القهوة ونستشيره في مشروعنا المزمع.

لقد أصابه الذعر لتلقيه مكالمة مني في ظهيرة اليوم التالى لزفافي، وتحول ذعره إلى هلع وأنا أبلغه أنني أريد مقابلته فوراً أنا وزوجتى.

كان يتوقع كارثة تستدعى خروجنا من المنزل يوم (الصباحية)، حاولت أن أطمئنه وأخبرته أننا بخير ونريد فقط الدردشة معه، دعانا إلى مكتبه ثم أطلق سبة مهينة قبل أن يغلق الخط.

لقد صار بذيئاً مؤخراً، لا أدرى ماذا دهاه؟!

فور سماعه فكرة فوزية أعجب بها وتبناها على الفور، لدرجة أنه عرض عليّ الشراكة وراح يثني على موهبتي الفذة في إعداد أصناف الطعام الصعبة، ومهارتي في تحضير موائد الحفلات.

إن زكريا خبير مطاعم وذوّاقة من الطراز الأول، وشهادته لي تمنحني المزيد من الثقة في نجاحنا.

إلا أن فكرة الشراكة تحتاج الكثير من الدراسة، وخصوصًا أن فوزية قد اقترحت فكرتها ليكون هذا عمل أسرتنا الذي نتفانى فيه ويصبح مملكتنا الصغيرة.

"سموحة إيه يا أستاذ زكريا.. دي حتة مقطوعة وكلها خوص.. إحنا عايزين منطقة حية وراقية كمان.. منطقة محتاجة مطعم شيك.. حتى ولو كان مساحته صغيرة.. وسموحة دي مفيهاش غير النادي والشارع اللى قصاده بس"

تصرح فوزية بما يدور في خلدي إلا أنني أثق في عقلية زكريا التجارية، بالتأكيد هناك سر ما في الموضوع، خصوصاً أنه لم يعلق واكتفى بنظرة السخرية التي يرمقنا بها.

أشعلت سيجارة والتزمت الصمت، كذا فعلت فوزية وهى تنتظر التفسير، ظل يرمقنا كثيراً حتى تحرر لسانه أخيرًا وبدأ يطرح ما لديه.
يرى زكريا أن هذه المنطقة هى مستقبل الاستثمار الجاد، لقد صارت الآن تضم مبنى مديرية الأمن الجديدة، والأبراج السكنية الخاصة بالضباط وأسرهم، وقد بدأت المنطقة بالفعل تضم بعض النقابات والمدارس الدولية وهناك مراكز طبية كبرى تحت الإنشاء.

كل هذا يغري بالزحف السكاني نحوها من الأثرياء وأصحاب الأعمال، وبالفعل بدأت الأبراج السكنية الفاخرة تنتشر فيها بسرعة العدوى الفيروسية.

إضافة إلى ذلك يخبرني زكريا بأن (عبد الفتاح رجب) ينوي إقامة مشروع تجاري ضخم هناك يضم العديد من التوكيلات التجارية العالمية والمطاعم ودور السينما ومراكز الترفيه، بل سيضم أيضًا فندق (هيلتون)، ليس هذا فحسب بل إنه ينوي إنشاء جامعة خاصة كذلك.

كنت أستمع مدهوشاً ومستمتعاً كذلك، أنظر لفوزية بعتاب ولسان حالي يقول لها هل رأيت فائدة الحزب الذي تنقمين عليه؟ ولكني أكتم خواطري وأنصت أكثر.

يقول زكريا إن هذه المنطقة لا تحتاج لكثير من الوقت كي تتحول إلى واحدة من أرقى مناطق الإسكندرية وأكثرها ازدحام.
إنه يتوقع أنه في خلال سنتين أو ثلاث فقط، سيرتفع سعر متر الأرض فيها عشرة أضعاف، يقول لي أن أنتهز الفرصة وأشتري فيها محلاً كبيرًا بسعر معقول الآن، وأن أوفر في رأس مالي لأدبر باقي النفقات.

طلبت منه أن يساعدني في إجراءات بيع ممتلكاتنا والبدء في تأسيس مطعمنا، كان أريبًا يحاول أن يقنعني بقبول شراكته، وإصراره هذا طمئنني لنجاح المشروع، إلا أنني لم أعطه ردًا قاطعًا ووعدته أن أدرس الأمر، قلتها ثم ودعناه وانطلقنا للخارج.

نسير في طريقنا إلى سيارتنا ملتصقين، وقد احتضنت فوزية ذراعي في دفء بكلتا ذراعيها، أرنو إليها وأفكر في الغد.
لأول مرة منذ سنوات بعيدة أشعر بالتفاؤل تجاه شيءٍ ما، لا أجرؤ على الاعتراف لنفسي بأنني يمكنني النجاح.

ندلف إلى سيارة زوجتي فتدير محركها وتتركه يسخن قليلاً حتى تستطيع الانطلاق بها، أجدها تقبض على المقود بكلتا يديها دون سبب وعيناها هائمتان في الفراغ.

هي تفكر في شيء ما، لم أقاطعها وظللت أنظر صامتًا إلى وجهها الذي يسرني كلما تأملته، حتى التفتت لي بكامل جزعها لتواجهني وكأنها حسمت أمرًا خطيراً.

قالت إنها ستطلعنى على سر لا يعرفه أحد سواها، فازددت انتباهًا لما تقول.

بكلمات رزينة هادئة انطلقت في حديثها لتخبرني أنها لازالت محتفظة بخاتم زواجها السابق، خاتمها الذي رافقها منذ كانت في التاسعة عشرة من عمرها، الخاتم ذو الفص الماسي فئة D الذي يتجاوز ثمنه اليوم عشرة آلاف جنيه استرليني، تقول إنها كانت تحتفظ به سرًا على سبيل التذكار، كانت لاتزال تحب زوجها السابق.

ولكن اليوم، شعرت بروحها تتحرر من قيد أحمد بدران، باتت ذكراه لها قصية، باهتة، وقد أبدلها الله برجل خير منه، تقول إن الخاتم وصاحبه ما عادا يمثلان لها أى شيء.

أخبرتني أنها ستبيعه، وهكذا لا نضطر لشراكة أحد أو الاقتراض من أحد، فقط نحن اللذان نخاطر بأموالنا وطاقاتنا في سبيل تحقيق ذواتنا.

تقولها بحسم لم يتأت لقائد عسكري في ساحة معركة.

زفرت زفرة ملتهبة كأنها تبصق انفعالاتها كلها، ثم مالت لتقبلني! قبلة خاطفة استمرت لثوان ثم انطلقتْ بعدها بالسيارة قبل أن يلتف حولنا الفضوليون.

واثقة، قوية، ساذجة، تضع نفسها وكل ما تملك تحت إمرتي ولم يمض على زواجنا سوى ليلة واحدة ونصف نهار.

أسترخي في مقعدي بجوارها متجاهلاً سوء قيادتها وأفكر فيما تفعله.

ماذا رأت فيّ كي تمنحني كل تلك الثقة، كيف تؤمن بي إذا كنت أنا شخصياً لا أؤمن بذاتي.
لقد بددت ثروات كل أهلي في السابق، هل سأبدد ثروة زوجتي أيضًا؟

تنظر لى بحنان وتغمز بعينها لتمنحنى الثقة، إن كانت آمنت بي حقاً لسبب لا أدريه، فيجب أن أؤمن بذاتي، بقدرتي على فعل ما أحب.

لأول مرة في حياتى أشعر أن مستقبلاً مبهراً ينتظرني بصحبة المخلوق الوحيد الذي يستحق لقب (المرأة).

٣٥

أعد طبقاً جديداً من التيكا ماسالا (Chicken tikka masala) إنه الثامن لهذا اليوم. برغم أنه طبق هندي في الأساس إلا أنه الأكثر شعبية في بريطانيا كلها.

لقد كانت فوزية تعشق مذاقه ويبدو أنها تروج له جيداً بالخارج.

يعاونني في المطبخ اثنان من الطهاة شديدا البراعة برغم حداثة سنهما.

والخمسة نوادل يهروعون بين الموائد بحرفية رائعة تشرف عليهم فوزية وتستقبل ضيوف المطعم.

لقد أجادت فوزية اختيار فريق العمل بحق، وقد اقتضى الأمر ستة أشهر كاملة حتى أصل لهذا الموقع، ستة أشهر من نشوة الإنجاز ولذة الحب نتوجها بافتتاح مطعمنا اليوم.

وجدتها تدلف إلى المطبخ لتميل بجزعها عبر نضد التحضير وتقبلني في شفتيّ أمام أعين زملاء العمل الذين يبتسمون ويحاول كل منهم أن يدفن وجهه فيما يفعله.

ما عادت تخجل من أن تقبلني أمام أى شخص وقد اعتادوا ذلك على كل حال.

يرونها (خواجاية) ويتندرون علينا فيما بينهم.

تبتسم في زهو لتبلغني أن رأفت قد حضر بصحبة المحافظ شخصيًا.

لم أصدق هذه المفاجأة ورحت أغسل يديّ في عجالة وتركت مكاني وأنا أعدل هندامي وأخرج للصالة كي أستقبل المحافظ.

كانوا يجلسون جميعًا على طاولة مميزة.

المحافظ، رأفت، زكريا، محسن غالي، ورجال آخرون لا أعرفهم.

إن فوزية تؤدي عملها ببراعة وقد أسعدنى ذلك، يهنئنى المحافظ ويبدي إعجابه بالأزهار والديكور ورائحة (اللافندر) المنتشرة في الجو. ويثني محسن على أطباقنا المميزة من اللحوم أمامه وينصحه بتناول أحدها.

أخيرًا سأعد شيئاً بخلاف الدجاج هذه الليلة.

بعد تبادل عبارات الترحيب استأذنتُ من ضيف الشرف في الانصراف بأدب وابتسامتي تزداد اتساعاً وأنا أهرول في اتجاه مطبخي لإعداد طبق من اللحم على ذائقتي كما أوصاني.

يقطع حسين الطريق عليّ ليهنئني مرة أخيرة ويمتدح لذة طعامنا، ويبلغني برحيله.

هو لا يحتمل الغياب عن كشك الأزهار أكثر من هذا، يميل على أذني هامسًا بأن جميع باقات الأزهار هذا الأسبوع على حسابه، بمناسبة الافتتاح.

يغمز بعينه وهو يلوح مبتعدًا تصاحبه ابتساماتي.

لم أنقطع عن عادة إرسال الأزهار اليومية لها، كل ما تغير أن حماده أصبح يأتينا في العاشرة على عنوان منزلي أنا.
ما عادت فوزية تذهب إلى النادي صباحًا، كانت تتناول إفطارها بصحبتي وتقضي ساعات اليوم بصحبتي ونحن غارقان في كل تفاصيل التجهيزات الخاصة بإعداد المطعم للافتتاح، أحياناً تصطحبني إلى النادي مرة أو مرتين أسبوعيًا لتمارس الهرولة لمدة ساعة وأمارس هوايتى في تأملها.

فى طريقي للمطبخ أراها تقف في منتصف المطعم، في زيها الرسمي شديد الأناقة، تبدو كملكة محبوبة وسط حاشيتها المخلصة، فاتنة، قوية، مسيطرة، تحب الجميع فيتفانون في خدمتها.
ألوح لها مبتسمًا فيشرق وجهها وتغمز بعينها اليسرى، وأعود لرفيقيّ أحتل مكاني بينهما أمام الموقد.

برغم تأخر الافتتاح عما توقعت، إلا أنه كان من الجيد أن يحدث هذا في منتصف الصيف، لقد حضرت ميرفت وأسرتها لتقيم بالإسكندرية، يستمتع أبناؤها بالبحر وينهكها معاونتها لنا في الأسبوع العصيب السابق للافتتاح.

كذلك حضرت سمية إلى مصر بعد أن أبكر زوجها بموعد إجازته، كنت منهمكاً جدًا، يداهمني الوقت وأنا محاط بأحبائي من كل صوب.

أتذكر سنوات الفراغ والوحدة والعبث، فتثير الشجن في أعماقي وأستمر في عملي سعيداً.

تناديني أم رضا من أمام حوض الغسيل لتشكو لي (الباشمهندس) الذي يصر على ضبط درجة حرارة الجلاية عاليا مما يخرج الأطباق ملتهبة لا تحتمل أن تلمسها لتكمل تلميعها، وعلي يصيح بوجهها أن درجة الحرارة ضرورية لتعقيم الأطباق وأنها لا بد وأن ترتدي قفازات الوقاية، بينما هي تتحجج بأنها تعوقها عن الحركة وتبطئ من سير العمل.

أحاول أن أفض الاشتباك بينهما وأنا أضحك على أفعالهما الصبيانية، إنهما يتشاكسان منذ بداية التحضيرات، كلاهما طيب القلب، شديد الإخلاص، لا يطيق أمرًا من الآخر.

لقد أصرت فوزية على تعيين أم رضا في عمل ما لدينا، لتجد ضالتها أخيرًا في عمل مستقر يحقق دخلاً منتظمًا.

بينما عليّ قد حقق حلمه أخيراً، نجح في التخرج من المدرسة بمجموع كبير وسيبدأ دراسته في العام القادم بكلية الهندسة، وبرغم ذلك يجبر أم رضا أن تناديه بلقب (باشمهندس) ويتندر على طريقتها المضحكة في نطق اسم المطعم، وهي تسخر من نحوله الشديد.

كان علي يساعدنا في فترة الإجازة الصيفية طواعية منه، يساعد العمال في النقل، يخزن البضائع، يقوم بأي مهمة طارئة على الوجه الأكمل، لم يطلب أجرًا نظير أي شيء، يتعامل كأنه فرد من الأسرة، كنت فخوراً به وقد أبلغني أن أخته قد تتزوج قريباً فازددت فرحاً.

تركتهما يتشاكسان ثانية حول الأسلوب الأمثل لتلميع الفضيات وخرجت مبتسمًا أعود للمطبخ وأنا أضحك على استفزاز علي لها بطلبه تكرارها اسم مطعمنا على مسامعي ليحرجها أمامي.
فوزية هى من اختارت الاسم تيمنًا بالحدث الراهن ومحاولة استغلال شهرته.
كل العالم يتحدث عن الألفية الجيدة ونحن على بعد شهور منها، الجميع قلق بخصوص مشكلة الصفرين التي لا أفهمها ويحاول هشام جاهداً أن يشرحها لي دون جدوى، كانت حمى الألفية تنتشر في العالم كله ولذلك اختارت فوزية أن تكون اسم مطعمنا.

(Millennium) هو اسم مطعمنا، بل هو كذلك اسم ألبوم غنائي أطلقته فرقة (backstreet boys) الأمريكية وحقق نجاحاً هائلاً محطمًا أرقامًا قياسية في المبيعات، كذلك هو اسم لإصدار نظام تشغيل الكومبيوتر أطلقته شركة (Microsoft) العالمية.

هشام يقول لي كل ذلك في حماسة، فقط ليشعرني بأنني رجل كهوف لا أعي شيئًا عن الحياة المعاصرة، لكنني سعيد بكل شيء.

وأستمر في عملي متلذذًا بهوايتي التي تحولت أخيرًا إلى مصدر رزقي.

انتبهت فجأة لأجد رأفت يراقبني بينما كنت منهمكًا في تقطيع الطماطم، تتألق على شفتيه ابتسامة هادئة، لا أجرؤ على القول إنها ابتسامة زهو، إن ملامح رأفت لا تشي بمشاعره أبدًا.

سألته عن رأيه في جودة الطعام وتعليق المحافظ فطمأنني أن كل شيء بخير، أخبرني كذلك أن محسن بعدما ودع المحافظ وأطمأن على رحيله رحل هو الآخر.

قال إن هذا حدث منذ أكثر من ساعة، نظرت مستغربًا إلى عقارب الساعة العملاقة المعلقة على الحائط لأجدها تقترب من منتصف الليل، حقاً لم أنتبه للوقت وقد استغرقني العمل.

أخرج رأفت من جيبه مظروفًا أنيقًا أهدانيه مبتسمًا وهو يتمنى لي ليلة طيبة، ثم انطلق للخارج.

كان مظروفًا بداخله دعوة كدعوات الزفاف. ماهذا؟
هل سيتزوج رأفت ثانية على زوجته الكندية الباردة؟!
تركت ما بيدي وخرجت من الباب الخلفي الذي يطل على شارع جانبي ضيق يختلف عن الشارع الرئيس الذي تقع فيه بوابة المطعم الفاخرة، أشعلت سيجارة وشرعت أفتح المظروف الذي يحمل اسمي لأقرأ السطور القليلة المخطوطة على الدعوة بداخله.
تصدمني الفرحة، تتسع عيناي في محاولة استيعاب ما أقرأه أكثر، لم تكن تلك دعوة زفاف كما ظننت في البدء، بل هي شيء أكثر أهمية.

دعوة شخصية لحضور العرض الخاص لفيلم (عبود على الحدود).
هل هذا حقيقي بالفعل؟!
دعوة موجهة لي أنا وتحمل توقيع (شريف عرفة) شخصيًا.
هل لازال يذكرني حتى الآن؟
لقد تحمل عناء إرسال دعوة شخصية لي لحضور العرض الأول لفيلمه الجديد.
فيلمه الذي كنت أتسول دورًا فيه أثناء رحلتي العبثية، ترى هل يعرف أنني وجدت ما نصحني به؟
لاغرابة في أن رأفت استلم هذا المظروف نيابة عني، لقد أتاه على عنواني القديم الذي تحول إلى مركز رأفت الطبي حالياً.

كم أثرت فيّ تلك اللفتة، وأطلقت في نفسي العديد من المشاعر المختلطة، المتضاربة فلا أميز بينها جيداً.

شعرت فجأة بأناملها الرقيقة تمسح عبرة فرت من عيني لتنساب في صمت على وجنتي.
متى دمعت عيناى؟ كيف شعرت بي فوزية وهي في الداخل؟
متى تسللت إلى الشارع خلفي لتربت على كتفي وتمسح عبراتي دون أن تنطق؟
فقط تبتسم في دفء لتنشر السلام داخلي.
أميل بوجهي الذي يستقر على راحتها الحانية، أستنشق عبيرها وتبحث شفتاي عن أناملها لتلثمها.

- في إيه؟
- بحبك.

نطقتها وألقيت بنفسي بين ذراعيها لأغيب عن الوجود.

تمت

للتواصل مع الكاتب

أمير مصطفى- صفحة الكاتب

أمير مصطفى

Amir Mustapha



الإسكندرية ج . م . ع

٠١٠١٨٨٣١٣٦١ (+٢)

٠١٠٢٢٨٤٢٨٩٨ (+٢)

 حسناء للنشر والتوزيع



هو البديل الاحتياطى للبطل، صاحب المركز الثانى، حائز الميدالية الفضية. هو الشخص الذي كاد أن يتوج بطلا ولكنه لم يفعل.

الذي بذل جهدا متواصلا لسنوات، وتفوق على كل أقرانه كى يحوز الجائزة ولكنه لم يبلغ خط النهاية، ربما منعه عنها إخفاقة واحدة فقط نقلته من خانة الفائز إلى خانة الخاسرين. ينزوى بعيدا منسيا بينما الفائز يأخذ كل شيء في النهاية.

فى الأوليمبياد يحصد البطل الجائزة وحده ويسجل اسمه في تاريخ الرياضيين، وينزوى الوصيف ليختفى تماما بسبب تأخره لكسر من الثانية في الجولة الأخيرة.

الوصيف لا أحد يذكره أبدا، وحتى حين يتذكره أحد فهو يذكر له هزيمته فقط. وعلى منصة التتويج تجد البطل محط الأنظار جميعها، تتألق على وجهه كل إضاءات كاميرات المصورين، يقف مزهوا، سعيدا، منتشيا.

ويبقى الوصيف حاملا ميداليته الفضية يخالجه شعور قاتل من الأسى الممتزج بالفرحة.

تطل من عينيه ذات النظرة، فرحا بما أتاه، حزينا على ما فاته.

فخورا بما وصل إليه، متحسرا على إخفاقه في لحظة واحدة كادت أن تجعله أسطوريا.



أمير مصطفى من مواليد الإسكندرية، صدر له:

رواية كلا حين الجبل عام ٢٠١٥

مسرحية الحاناتي عام ٢٠١٦

ديوان ٤ وشوش غيري فى العام ٢٠١٦

فازت هذه الرواية "الوصيف" بالمركز الثالث لمسابقة أخبار الأدب عام ٢٠١٧

فازت روايته "كلا حين الجبل" بالمركز الأول فى مسابقة ربيع مفتاح عام ٢٠١٦

كما فازت قبلها بالمركز الأول فى المسابقة المركزية عام ٢٠١٤

